GABRIEL GARCIA MARQUEZ

رواية

NOVEL

غابرييل غارسيا ماركيز

في ساعة نحس

ترجمة: كامل يوسف حسين

IN AN EVIL HOUR



غابرييل غارسيا ماركيز

في ساعة نحس

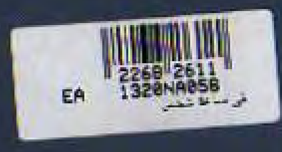
لقد أشار الكاتب الكوبي اليخو كاربنتيه الى أن الخيال الجامح في الرواية الامريكية والاسبانية المعاصرة يرجع الى محافظة الروائيين على مفردات كانت متداولة في اسبانيا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر وقد تمثل ذلك في أدب سرفانتس وفي روايات المغامرة والتشرد الاسبانية .

وبتقاليد أدبية عميقة أنطلق الكاتب الكولومبي غابرييل غارسيا ماركيز مستفيدا من أحداث ومنجزات الرواية المعاصرة - ليشيد صرح عالم روائي يجذب نظر المرء بمختلف ضروب جماليات العمل الفني الذي يتجلى بزخر الابنية والعلاقات التي تربط بين جزئياته . من هنا برز حرص ماركيز على تجاوز الحضور التجريبي البارد منطلقا الى عالم آخر ، منفلتا من عقاله ، متدفقا - كالرعب.

أن هذا الحرص يتمثل في سلسلة الانتقالات الزمنية أو القفزات الهشة الوانية حينا والمتدفقة بوحشية احيانا أخرى الى الامام والى الوراء متنبئا بالمستقبل في رجفة الانتظار، تستديم الماضي في غيبوبة كالاسترخاء . تتلاعب بعجلة الزمن حجبا واستحضارا كي تبرز اللحظات الحاسمة في حياة الفرد والجماعة وفي كثير من الاحيان اللحظات القاتلة التي كفت فيها الحياة عن ان تكون الا رحيلا في الرماد .

ISBN: 9953 - 36 - 052 - 9





مقدمة المترجم

في الزمن والعزلة

كان الكاتب الكوبي الراحل إليخو كاربنتيه هو الذي أشار يوماً إلى أنه «بالرغم مما يراه البعض فإن الخيال الجامح في الرواية الأمريكية الإسبانية المعاصرة يرجع إلى محافظة الروائيين على مفردات ومصطلحات كانت متداولة في إسبانيا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر والكثير مما ينعت بالتأمرك يمثل في أدب سرفانتس وفي روايات المغامرة والتشرد الإسبانية».

وضارباً جذوره في قلب تقاليد أدبية بهذا العمق انطلق الكاتب الكولومبي جابرييل جارسيا ماركيز مستفيداً من أحدث منجزات الرواية المعاصرة، فضلاً عن ثراء ما وعته أجيال بكاملها من موروث شعبي في قرية سياناجا التي وُلِدَ بها، ومن وفرة الأدب المنقول التي عمت مقاطعة أراكاتاكا بكولومبيا ليشيد صرح عالم روائي لا يجذب نظر المرء بمختلف ضروب جماليات العمل الفني التي يتحلى بها فحسب وإنما يزخر بالأبنية والعلاقات التي تربط بين جزئياته، فتحيله كوناً هائلاً ينتظر نظرة العين

السيميولوجية الأولى لتفض الحجب عما يكتنف علاماته من أسرار.

ولكن ألم يكن ماركيز هو نفسه القائل بأن «كل رواية جيدة هي سبر لأغوار العالم»؟

في عالم ماركيز المرتجف بالحيوية والتألق يستقطب الاهتمام بُعدان مسدودان يثيران الفضول ـ لتميزهما ـ أكثر من غيرهما: الزمن والعزلة.

يمكن بأوسع المعاني القول بأن هناك ثلاثة أبعاد لمفهوم الزمن عند جارسيا ماركيز بعامة وفي روايته «في ساعة نحس» بخاصة:

أ ـ **البعد الأول**: وينتظم التسلسل التاريخي الذي ينظم إيقاع الأحداث، إنه هذه الحركة التجريبية الباردة القابلة للقياس والإمساك والتسجيل، وماركيز حريص أشد الحرص على أن يرفع مؤشرات هذا الزمن في البداية والنهاية كأنها الأحجار تحدد امتداد حقل فلاح بائس في قرية سياناجا، ففي الصفحة الأولى يغمغم الأب أنجيل بأن اليوم هو الثلاثاء الرابع من أكتوبر وفي الصفحة قبل الأخيرة ومع انداح الأحداث نحو نهايتها نعلم منه أيضاً أن اليوم هو الجمعة الحادي والعشرين من الشهر نفسه.

وفي غمار السياحة في هذا البعد ستطالع بداية تشابك العناصر في البلدة، سنتعرف شخوصها، رموز السلطة، عناصر المقاومة، تركيب الحياة الاجتماعية فيها وتداخل مقوماتها ليغادرنا هذا كله مع النهاية في المكان المنطقي: الأدغال.

ولكن أهذا هو زمن جارسيا ماركيز حقاً؟

ب ـ **البعد الثاني**: يحرص القاص على أن يردف ـ عبر كلمات الأب أنجيل ـ التحديد الأول للزمن بإيضاح اليوم المقابل في تقويم القديسين، فاليوم الأول هو يوم القديس فرانسيس الأسيزي واليوم الأخير هو يوم القديس هيلاري، وتلك الإيماءة على هشاشتها تؤدي وظيفتها تماماً: إن رحاب الزمن لا يضم فحسب ذلك الحضور التجريبي البارد وإنما هناك عالم آخر بأسره ينتظر لينطلق من عقاله متدفقاً ـ كالرعب ـ في دروب البلدة.

هذا البعد الثاني للزمن يتمثل في سلسلة من الانتقالات الزمنية أو القفزات الهشة الواتية حيناً والمندلعة في وحشية أحياناً أخرى إلى الأمام وإلى الوراء، تتنبأ بالمستقبل في رجفة الانتظار، تستديم الماضي في غيبوبة كالاستمناء، تتلاعب بعجلة الزمن حجباً واستحضاراً كي تبرز اللحظات الحاسمة في حياة الفرد والجماعة، وفي غير قليل من الأحيان اللحظات القاتلة التي كفت فيها الحياة عن أن تكون إلاّ رحيلاً في الرماد.

وفي غمار كوابيس هذا البعد وأحلامه يستحضر العمدة قدومه إلى البلدة عارياً يواجه المجهول بقطعة من ورق، ويرحل القاضي عبر أيامه الذهبية التي لن تعود أبداً في الجامعة، ويستحضر الأب أنجيل في روع ذكرى سلفه في ماكوندو وتجربة الاعتراف الأولى الملطخة بالعار وسوء التقدير في البلدة، وتعود الأرملة مونتيل إلى زوجها القعيد بمقعده ساعة الاحتضار فيما يدوي بسمع الأرملة آزيس الطلق الناري الذي أصاب به زوجها قرداً كان يستمني محدقاً في بدنها المعري وتحلم نورا جاكوب

بحين يأتي من الدهر لتعلن على الملأ غرامها الخفاشي المنتشر في كوى الليل.

ولكن ترى أيقف زمن جارسيا ماركيز عند هذين البعدين؟

ج ـ البعد الثالث: هنا تحاول الشخوص أن تجترح هذا الممكن ـ المستحيل معاً على نحو عجائبي وبغض النظر عن كافة الضوابط القائمة والمخاطرات التي تكتنف المحاولة: القفز خارج عجلة الزمن.

هذه المحاولة ليست مجرد قفزة صغيرة وهشة تستبق الحاضر التجريبي البارد في استشفاف عارم للآتي، وإنما هي إجهاشة في وجه هذا الذي يأتي، إلقاء للذات في هوة لا نهاية لها بغية الانعتاق من ربقة الشعور بوطأة الزمن ذاتها.

هو ذا العمدة يسقط ضائعاً في قبضة هذا البعد، فيضع حيرته بين يدي العرافة ـ العاهرة كاساندرا ـ الجدة العليا المولودة عام ١٩٦٢ مع صدور الرواية الشخصية بيلارتيرنيرا التي لن ترى النور إلاّ مع صدور «مائة عام من العزلة» عام ١٩٦٧ ـ ويُلقى عليها ذيل أفعى الأسئلة التي تنهشه.

«فجأة بدا ضائعاً في الغرفة، طقطق أشاجعه وقد بدت عليه علامات الاستسلام، غمغم: «عليك أن تسدي إليّ جميلاً»، فحدجته المرأة متسائلة، مضى في حديثه: ليبقَ الأمر سراً بيننا، أريدك أن تفحصي أوراقك لتري ما إذا كان من الممكن اكتشاف المسؤول عن هذه المهزلة».

والأرملة مونتيل بدورها تود اجتراح القفز عبر أسلاك الزمن الشائكة، ولكن كيف؟

«في الليل حينما تمضي عبر الغرف الخاوية بأنبوبة المبيد الحشري تجد الأم الكبرى وهي تسحق القمل في الأبهاء فتسائلها: متى ألقى حتفي؟ لكن هذا التواصل البهيج بالعالم الآخر لا يفلح إلاّ في زيادة حيرتها لأن الردود ـ شأن كافة ردود الموتى ـ كانت تأتي سخيفة ومتضاربة».

ولكن بأي المعاني تتداخل هذه الأبعاد الثلاثة لتصنع عالماً؟

إن الزمن عند جارسيا ماركيز وفقاً لما يقوله سيزار سيجر في كتابه Semiotics and fiterary Criticism ينساب في إطار مفهوم الدورة الزمنية، يقول سيجر:

«إن الوظيفة الأولى لثورات عجلة الزمن مهما تضاءلت أو عظمت هي أن تميط اللثام مع بداية دورة الحياة عن نهايتها بحيث تجعل الحاضر مدركاً على نحو ما سيكون عليه مستقبلاً، فيشاهد الحاضر بهذا باعتباره حدثاً ماضياً».

ولكن هل هذا صحيح في التحليل النهائي؟

من المحقق أن مفهوم الدورة ليس بالمفهوم الحديث في الفكر الإنساني، وقد يدهش الكثيرون إذا ما علموا أن الحكيم الفرعوني إيبو ـ وير قد لجأ إليه في محاولته الفاتنة والمجهولة لدى الكثيرين لتفسير ثورة الدولة القديمة، ومفهوم الدورة يطل علينا من كتابات أكثر من مفكر إغريقي واحد، ليفاجئنا من جديد في تضاعيف الفكر الإسلامي، ألم يكن إبن خلدون هو القائل: «الآتي أشبه بالماضي من القطرة بالقطرة؟» أما في الفكر المسيحي فهو يتصارع مع المعضلة الحقيقية المتمثلة في عبقرية الحضور

اليسوعي غير القابل للتكرار والذي ينبغي أن يكون الزمن تكريساً له ودلالة عليه لا اجتراراً له، وفي عصر النهضة يفاجئنا مفهوم الدورة من آخر مكان تتوقعه فيه، صفحات مجلد «تاريخ البندقية» الذي دبجه المفكر العتيد نيقولو ماكيافيللي، ثم يحتجب على استحياء مع ظهور فلسفات التطور ليطل من جديد مع استواء القرن العشرين على عودة وإن يكن متخفياً بأشكال جديدة، أليست نظرية التحدي والاستجابة عند توينبي استحضاراً له في تجل جديد مراوغ؟

الآن هل يمكن لهذا المفهوم أن يكون محور عالم جارسيا ماركيز؟

إن أهم ما يميز مفهوم الدورة هو سهولته وقابليته الفذة للتطبيق، ولقد كان توهم استدارة الزمان في «مائة عام من العزلة» بصفة خاصة هو الذي دفع سيجر والكثيرين من النقاد إلى القول باعتماد القاص الكولومبي لهذا المفهوم حجراً لأساس أبنيته.

الآن لنلق نظرة على ملمح من النسيج العقلي والروائي لجارسيا ماركيز ولنسائل أنفسنا بأمانة وصدق عما إذا كان هذا النسيج يمكن أن يقبل مفهوم الدورة منطلقاً وقاعدة.

في حوار طويل مع ميجيل فرنانديز براسو يقول جارسيا ماركيز «أعتقد أن العالم سيصبح اشتراكياً إن عاجلاً أو آجلاً، بل أتمنى أن يصبح اشتراكياً وخير له أن يحدث ذلك في أقرب وقت. . . فقراؤنا في غير حاجة إلى أن نظل نروي لهم مأساة الاضطهاد والظلم فهم يعرفون تفاصيلها غيباً، ما ينتظرونه من الرواية هو أن تكشف لهم جديداً».

من المحقق أن الإجابة عن التساؤل أكثر من واضحة.

الآن في أي عالم يضرب الزمن الماركيزي بأبعاده تلك جذوره؟

إن تعقّد الزمن عند ماركيز يرجع ـ بالأساس ـ إلى أنه يعاش في عالم من عزلة، ومحاولة تفكيك عناصر العزلة الماركيزية تكاد تقرب من حوافي المستحيل، ومع ذلك فلا مناص من الإقدام عليها لأنه بعيد اكتناه أسرارها يضرب قارىء ماركيز في العماء.

العزلة اصطلاح غائر في أعماق عالم ماركيز انطلاقاً من عالمه الخاص إنسياباً إلى بناء الروائية، يقول في حواره مع ميجيل فرنانديز براسو إنه «تعرف العالم وأسماء الأشياء في بيت أجداده الكبير المليء بالأشباح، كانوا ذوي خيال واسع يؤمنون بالخرافات، وكانت في كل زاوية من البيت ذكريات وأموات فإذا جاء المساء بدا المنزل مقفراً، كان ذاك المنزل، عالماً يسكنه الخوف دائماً أحاديث غامضة بين ساكنيه، وهو لا يكاد يتذكر ملامح أبويه، كان يخيل إليه أن أمة غائبة كما يتخيل طفل حضناً لم يحتضنه قط، عرفها للمرة الأولى وهو في السابعة أو الثامنة، فقد تركته في رعاية جديه اللذين يتذكرهما كما تذكر مخلوقات خرافية».

والعزلة لا تفارقه حين يصل سمت العمر، فهو يكشف مكنون قلبه لجونزاليث برميخو فيقول: «الواقع إن واحدنا لا يؤلف كتاباً، بل من الصعب أن يعرف هوية الكتاب الذي يؤلف، وبالنسبة لي فإن الكتاب الذي أؤلفه هو كتاب ماكوندو ولكنك لو

فكرت ملياً لوجدت أنه ليس كتاب ماكوندو، إنه كتاب العزلة».

وكان لا بد للعزلة أن تكون بطلة رواياته لأنها النبض الحي لكلماته.

العزلة وفقاً لما يقوله سيزار سيجر ـ مرة أخرى ـ هي حالة عقلية؟

ومرة أخرى هل هذا صحيح؟

لنسلّم ابتداءً بأن العزلة هي في جوهرها ضرب من العكوف على الذات يدفع ضحاياه أحياناً إلى القيام بنشاط محموم لا جدوى منه كما يدفعهم في أحيان أخرى إلى إصرار جنوني على مهام لا قيمة لها ولكنهم في كلتا الحالتين ينفرون من الواقع ويتقوقعون حول أعمق مكونات عالمهم الداخلي: اغترابهم الذي لا يملكون منه افتكاكاً.

لكن العزلة في عالم ماركيز تتجاوز كونها حالة، إنها تضرب جذورها، تتعمق، تتكاثف، تتبلور تصبح في النهاية طريقة حياة، تغدو منهاج استجابة في مواجهة الدوافع السياسية والاقتصادية الخارجية، تنتقل من كونها لعنة كما يعبّر سيجر إلى انكفاء سلوكي يترجم المحتوى العقلي في شكل انكماش إزاء العالم الخارجي حتى التفاني والتحوّل إلى رماد.

وقوقعة العزلة لن تتحطم إلاّ حين يتصاعد الصراع فيغدو تطاحناً حتى الموت في مواجهة الاغتراب عن الطبيعة والآخرين والذات، إن تهشم القوقعة لا يحدث إلاّ في حالة واحدة فحسب: حين يغدو بداخلها كائن آخر مختلف كيفياً عن سابقه، كائن نجح

ـ ولو لمرة واحدة ـ في أن يحدق متجرداً في وجه اغترابه.

بهذا المعنى فإن تاريخ الأفراد في عالم ماركيز لا يعدو أن يكون تنويعات على شتى ضروب العزلة، رحلة طويلة لقهر الاغتراب قد تنتهي عند أطراف صحراء الفناء بحكم القصور الذاتي لكنها كذلك قد تنتهي عند مشارف الأدغال حيث ترتجف أوراق الشجر بشهوة الحياة.

وتتعدد قنوات قهر الاغتراب: الدين، الفن، الحب، لكن مأساة الشخوص أن هذه القنوات تغدو في كثير من الأحيان جزءاً من اللعبة القاتلة، هو ذا فنان البلدة وباعث النغمات في صباحها الموحش يلقى مصرعه في الصفحات الأولى، والأب أنجيل سيأتي عليه حين من الدهر يوشك فيه أن يلقي السلاح في معركة الرب، والحب عند روبرتو آزيس يغدو ملكية، عند نورا جاكوب شهوة يعري نور النهار قبحها فتختفي مع إطلاله، عند ترينيداد مضاجعة لمحرم، وعند القاضي أركاديو تسافداً عدمياً.

وأنماط العزلة بهذا الشكل تتعدد فتتعقد وتوشك أن تستعصي على محاولة الإمساك والتشريح، مع ذلك يمكن من خلال التطبيق على «في ساعة نحس» بشكل خاص تصور نظام مثلث الأضلاع:

ـ فهناك الشخصيات القابعة في عتمة العزلة والمستسلمة لها تماماً في توحّد شجي مع اغترابها ومحاولتها للافتكاك إنما تلقي بها في غيابات الاغتراب.

وإلى جانبها الشخصيات التي تحاول التعايش مع العزلة

فتحاول تصوير ما هو قائم باعتباره طبيعياً ومنطقياً وبالتالي عقلياً.

وأخيراً هنالك الشخصيات التي تأبى إلا التمرد عليها ومحاولة الخروج من قوقعتها وليس هناك من ضمان على الاطلاق لنجاحها لكنها رغم ذلك تجترح المحاولة.

الشخصيات وحدها التي تحاول الانعتاق من ربقة الزمن دون المرور بمخاطبة الأشباح، وتحطيم قوقعة العزلة عن طريق التحول إلى كائنات أخرى بداخلها من خلال قهر الاغتراب قد توفق يوماً في الوصول إلى مغادرة المدينة التي يفوح فيها نتن البقرة الجانحة على شاطىء النهر المعتم لتصل إلى مشارف الأدغال حيث ترتجف أوراق الأشجار بشهوة الحياة.

فتشمم ما حولك!

تشمم ما حولك!

المترجم

الفصل الأول

نهض الأب أنجيل بجهد وقور، حكَّ عينيه بأشاجعه، نحى غطاء كلته المزخرف، اقتعد الحشايا الجرداء مكتئباً للحظة هي الوقت الذي لا يستغنى عنه ليدرك أنه لا يزال على قيد الحياة وليتذكر اسم اليوم وما يقابله من أيام في تقويم القديسين، راح يحدّث نفسه، اليوم الثلاثاء الرابع من أكتوبر، وبصوت منخفض قال: القديس فرانسيس الأسيزي.

ارتدى ملابسه دون أن يغتسل ودون أن يرتل صلاته، كان وافر البدن أصهب له القوام المسالم والمستأنس الذي يتمتع به ثور، وكان يتحرك كثور بإيماءات غليظة حزينة، وبعد أن أبدى اهتماماً بإحكام أزرار ردائه الديني بانتباه فاتر وحركات تماثل تلك التي يعزف بها على القيثار، أزاح الرتاج وفتح الباب المطل على الفناء، جلب له عرف الناردين في المطر كلمات أغنية.

تنهد محدثاً نفسه: «سيفيض البحر بدموعي».

كانت غرفة النوم متصلة بالكنيسة بشرفة داخلية تحفها أصص الأزهار ومهدت أرضها ببلاطات مخلخلة كان نجيل أكتوبر قد شرع ينمو فيما بينها، مضى الأب أنجيل قبل ذهابه للكنيسة إلى

المغسل، تبول فأكثر ممسكاً بأنفاسه حتى لا يستنشق رائحة البول الحادة التي تثير الدموع داخله، ثم خرج إلى الشرفة متذكراً: «ستحملني هذه السفينة إلى أحلامك» وعند باب الكنيسة الصغير الضيق اشتم عبق الناردين للمرة الأخيرة.

في الداخل كانت الرائحة كريهة، كان هناك صحن للكنيسة ممهد كذلك بالبلاط المخلخل له باب واحد يطل على الميدان، مضى الأب أنجيل إلى برج الجرس مباشرة، رأى الأثقال الموازنة للساعة على ارتفاع ما يزيد على ياردة فوق رأسه فحدّث نفسه بأن الساعة ممتلئة بما يكفي لاستمرار عملها لمدة أسبوع، هاجمه البعوض، سحق إحداها على قفاه بلطمة عنيفة وجفف يده على حبل الجرس، ومن أعلى تناهى إليه الصوت العميق للدواليب الميكانيكية المعقدة، وأعقب ذلك على الفور عميقاً كئيباً قرع جرس الساعة الخامسة وكأنه يتردد في معدته.

انتظر حتى خمد الرنين الأخير، ثم أمسك الحبل بكلتا يديه بشدة، لفّه حول معصميه وجعل الأجراس البرونزية المتصدعة تقرع بيقين قاطع، كان قد خلف عامه الحادي والستين وراءه، وكان الجهد المبذول في قرع الأجراس بالغ العنف بالنسبة له، لكنه كان دائماً ما يقرع الأجراس بنفسه لشهود القداس وقد دعم هذا التمرين معنوياته.

دفعت ترينيداد الباب المطل على الشارع فانفتح فيما كانت الأجراس تقرع ومضت إلى الركن الذي كانت قد أعدت به الفخاخ للفئران، ألفت شيئاً جلب لها الاشمئزاز والابتهاج في الوقت نفسه: مذبحة صغيرة.

فقت المصيدة الأولى، التقطت الفأر من ذيله بإبهامها وسبابتها، ألقت به إلى صندوق من الورق المقوى، كان الأب أنجيل قد فتح لتوه الباب المطل على الميدان.

قالت ترينيداد: «عم صباحاً يا أبتاه».

لم يتردد صوته الجهير، أثار فيه الميدان المقفر وأشجار اللوز الوسني في المطر والقرية الجامدة في فجر أكتوبر الذي لا يقبل العزاء شعوراً بالضياع، لكنه حينما اعتاد صوت المطر اكتشف مزمار باستور في خلفية الميدان صافياً وغير حقيقي إلى حد ما.

قال: «الم يكن باستور يعزف مع الناس».

قالت ترينيداد مؤكّدة وهي تقترب حاملة صندوق الفئران النافقة: «لا، كانت جيتارات كلها تلك الآلات التي استخدمت في العزف».

قال القس: «لقد قضوا ساعتين تقريباً في أغنية واحدة صغيرة تافهة هي «البحر سيفيض بدموعي» ألم يكن الأمر كذلك؟».

قالت: «تلك أغنية باستور الجديدة».

اخترم القس وقد جمد لدى الباب افتتان فوري، لسنوات طويلة أصغى إلى مزمار باستور فيما كان هذا يجلس على مبعدة مجموعتين من المباني ليمارس العزف على مقعده العالي الناهض أمام دعامة برج الحمام الخاص به في الخامسة من فجر كل يوم،

تلك كانت الدورة الأولى الآلية للبلدة وهي تسير بانتظام، في البداية يقرع الجرس مشيراً إلى الساعة الخامسة ثم النداء الأول للقداس يعقبه مزمار باستور في فناء داره باعثاً النقاء في الهواء المثقل بقايا الحمام بأنغام شفافة جميلة.

رد القس قائلاً: «الموسيقى جيدة، لكن كلمات الأغنية سخيفة، يمكن غناء الكلمات من البداية أو النهاية دون أن يحدث أي تغيير، «هذه السفينة ستحملني إلى أحلامك».

التفت مبتسماً لاكتشافه، مضى لينير المذبح، تبعته ترينيداد، كانت ترتدي رداء أبيض سابغاً بأكمام تصل إلى الرسغين والوشاح الحريري الأزرق للنساء العاديات، كانت عيناها كثيفتي السواد تحت حاجبيها المقرونين.

قال القس: «كانوا يدورون حول هذا المكان طوال الليل».

قالت ترينيداد متنصلة من الموضوع وهي تهز الفأر النافق في الصندوق: «عند ساحة مارجوت راميريز، لكن ليلة الأمس شهدت ما هو أفضل من العزف».

توقف القس، رمقها بعينيه الزرقاوين الصامتتين، قال: «ماذا كان ذلك؟».

قالت ترينيداد وقد ندت عنها ضحكة قصيرة عصبية: «نشرات فضائح».

وراء هذا البناء وبعد ثلاث دور كان سيزار مونتيرو يحلم بالفيلة، كان قد شاهدها في الأفلام يوم الأحد، هطل المطر قبل

انتهاء الفيلم بنصف ساعة والآن هو ذا يتواصل في حلمه.

ألقى بثقل بدنه الهائل على الحائط فيما كان الوطنيون المذعورون يلوذون بالفرار من قطيع الفيلة، دفعته زوجته برقة غير أن أياً منهما لم يستيقظ، غمغم قائلاً: «إننا راحلون.. وعاد إلى وضعه الأول، ثم استيقظ، تردد في تلك اللحظة النداء الثاني للقداس.

كانت غرفة ذات فتحات كبيرة أسدلت عليها الستائر، وكان للنافذة المطلة على الميدان ستارة من قماش الكريتون ذات زهور زرقاء، على المنضدة الليلية الصغيرة كان هناك مذياع نقّال ومصباح وساعة ذات قرص مضيء، وعلى الجانب الآخر بإزاء الحائط كانت هناك خزانة ملابس بأبواب زُيِّنت بالمرايا، وفيما كان سيزار مونتيرو ينتعل حذاء الركوب شرع في الاصغاء إلى صوت مزمار باستور. كان الطين قد جعل الأربطة المصنوعة من الجلد النمام تتصلب، جذبها بشدة، ومرّرها عبر قبضته التي كانت أكثر خشونة من الأربطة، بحث عن مهمازيه، لكنه لم يستطع العثور عليهما تحت الفراش، واصل ارتداء ملابسه في الظلام محاولاً ألا يحدث ضجيجاً حتى لا يوقظ زوجته، وفيما كان يحكم أزرار قميصه تطلع إلى الساعة الموضوعة فوق المنضدة ليتبين الوقت ثم عاد إلى البحث عن المهمازين تحت الفراش، بحث عنهما أولاً بيديه، ثم جثا على أربع بتطور الأمر وشرع يحك الأرض تحت الفراش فاستيقظت زوجته.

- عم تبحث؟

- عن المهمازين.

- إنهما معلقان وراء خزانة الملابس، وضعتهما بنفسك هناك يوم السبت.

نحت غطاء الكلة وأشعلت الضوء، نهض محتدم الوجه خجلاً، كان جرماً، له كتفان مربعان وثيقا البنيان، لكن حركاته مرنة حتى وهو ينتعل حذاء الركوب الذي كان نعلاه يشبهان كتلتين من الخشب، كانت عافيته همجية على نحو ما، بدا وكأنه لا ينتمي إلى عمر معين لكن جلد رقبته وشي بأنه تجاوز الخمسين، اقتعد السرير ليثبت مهمازيه.

قالت زوجته وقد خامرها الشعور بأن عظامها النابضة ألماً قد امتصت رطوبة الليل: «ما زال المطر يهطل، أحس بأنني قطعة اسفنج».

كانت ضئيلة الحجم ناتئة العظام ذات أنف طويل حاد، تتمتع بطبيعة تجعلها لا تبدو وكأنها استيقظت تماماً، حاولت أن تشاهد المطر عبر الستائر، كان سيزار مونتيرو قد انتهى من تثبيت مهمازيه فنهض واقفاً، لطم الأرض بقدميه عدة مرات فاهتزت الدار للمهمازين النحاسيين.

قال: «النمور المرقطة تترهل في أكتوبر».

لكن زوجته التي كانت تحلق في نشوة مع لحن باستور لم تسمعه، وحينما نظرت إليه مرة أخرى كان يمشط شعره أمام الخزانة وقد تفخج وانحنى رأسه إلى الأمام لأنه كان بالغ الطول بالنسبة للمرآة.

كانت تتابع لحن باستور بصوت خفيض.

قال: «كانوا يرددون تلك الأغنية طوال الليل».

قالت: «إنها بالغة الجمال».

فكت شريطاً من أعلى الفراش، جمعت به شعرها خلف عنقها، تنهدت وقد استيقظت تماماً مرددة مع الأغنية: «سأظل في أحلامك حتى الموت» لم يبد اكتراثاً بها، من أحد أدراج الخزانة حيث كانت هناك إلى جوار بعض الحلي ساعة نسائية صغيرة وقلم حبر أخذ رزمة نقود، انتزع منها أربعاً وأعاد الحافظة إلى المكان ذاته، ثم وضع ست طلقات في جيب قميصه.

قال: «إذا استمر المطر فلن أعود يوم السبت».

حينما فتح الباب المطل على الفناء، وقف صامتاً برهة عند المدخل مستافاً رائحة أكتوبر الكئيبة فيما راحت عيناه تتعودان الظلمة، كان في سبيله إلى إغلاق الباب حينما قرع المنبه في المخدع.

هرعت زوجته مغادرة الفراش، ظل على توتره ويده فوق مقبض الباب إلى أن أسكتت زوجته المنبه، ثم تطلع إليها للمرة الأولى مكتئباً.

قال: «حلمت ليلة الأمس بالفيلة».

ثم أغلق الباب ومضى ليسرج البغل.

ازداد هطول المطر قبل النداء الثالث للقداس، انتزعت ريح دانية الوريقات الأخيرة الذابلة من أشجار اللوز في الميدان،

انطفأت أنوار الشوارع لكن الدور كانت لا تزال موصدة، امتطى سيزار مونتيرو البغل حتى المطبخ ودون أن يترجل صاح بزوجته أن تجلب له معطفه الواقي من المطر، انتزع مسدسه المزدوج الخزانة الذي كان قد علقه على كاهله وثبته أفقياً مع أحزمة السرج، لاحت زوجته حاملة المعطف.

قالت دون اقتناع: «انتظر حتى يكف المطر».

ارتدى المعطف صامتاً، ثم تطلع نحو الفناء وقال: «لن يكف المطر حتى ديسمبر».

رمقته متابعة حتى نهاية الشرفة، كان المطر يرجم الألواح الصدئة في السقف لكنه كان يمضي مستحثاً البغل، اضطر للانحناء في سرجه حتى لا يرتطم بعارض الباب فيما كان ينطلق إلى الفناء، راحت القطرات المتساقطة من الافريز تنفجر مثل خردق الأيائل على ظهره، ودون أن يلتفت لدى الباب الرئيسي صاح: «إلى اللقاء يوم السبت».

قالت: «إلى اللقاء يوم السبت».

كان البابِ الوحيد المطل على الميدان والمفتوح هو باب الكنيسة، تطلع سيزار مونتيرو فرأى السماء مثقلة ودانية وكأنها على بعد قدمين فوق رأسه، رشم الصليب، نخس البغل فجعله يدور حول نفسه عدة مرات على قائمتيه الخلفيتين إلى أن تمسك بالأرض الزلقة، كانت تلك هي اللحظة التي شاهد فيها الوريقة ملصقة بباب داره.

طالعها دون أن يترجل، كان الماء قد جعل الألوان تتحلل، لكن النص الذي كان مكتوباً بفرشاة بحروف طباعية خشنة كان لا

يزال من الممكن فهمه، اقترب بالبغل من الجدار، انتزع الورقة ومزقها إرباً.

وبلطمة من العنان دفع البغل إلى السير خبباً لأميال عديدة، غادر الميدان عبر شارع ضيق وملتو تحفه دور ذات جدران من الطين اللبن كانت أبوابها إذا ما فتحت تظهر آثار النوم، اشتم رائحة القهوة، وحينما خلف آخر دور البلدة وراءه عندئذ فحسب دار بالبغل عائداً بالسير الخبب القصير والمنتظم ذاته، عاد إلى الميدان ووقف أمام دار باستور، هناك ترجل، انتزع المسدس، وقيّد البغل إلى دعامة الباب، مؤدياً كل حركة في الوقت المحدد الذي تمس الحاجة إليه.

لم يكن الباب مرتجاً وإنما سدته من أسفل قوقعة بحرية عملاقة، مضى سيزار مونتيرو إلى غرفة المعيشة الصغيرة الظليلة، سمع نغمة حادة ثم ساد صمت مترقب، مرَّ بأربعة مقاعد صفت حول منضدة صغيرة عليها غطاء صوفي واناء للزهور به زهور صناعية، أخيراً توقّف أمام باب الفناء، ردَّ إلى الخلف قلنسوة معطفه، خلص زمام أمان مسدسه باللمس وبصوت هادىء ودود تقريباً نادى:

ـ باستور!

ظهر باستور لدى الباب وهو ينزع رأس مزماره، كان فتى نحيلاً منبسط القامة له شارب حديث الظهور شذبت حوافه بمقص، حينما شاهد سيزار مونتيرو وقد غرس عقبيه في الأرض الطينية وشهر مسدسه من جانبه مصوباً إياه نحوه فغر فاه، لكنه لم يقل شيئاً، شحب، ابتسم، ثبت سيزار مونتيرو عقبيه في الأرض

أولاً ثم عقب المسدس بكوعه في خاصرته وضغط على أسنانه وفي الوقت نفسه على الزناد، اهتزت الدار بالانفجار لكن سيزار مونتيرو لم يدر إن كان قد شاهد قبل الاضطراب أم بعده على الجانب الآخر من الباب باستور وهو يجر نفسه بتموج الدودة على امتداد ريش رقيق مدمى.

كان العمدة قد بدأ يغفو لحظة إطلاق النار، أمضى ثلاث ليال مسهداً معذباً بسبب ألم أصاب أحد أضراسه، وفي ذلك الصباح وعند النداء الأول للقداس تناول القرص المسكن الثامن، تراخى الألم، ساعده قرع حبات المطر على السقف المصنوع من الزنك على النعاس، لكن الضرس كان لا يزال ينبض دونما ألم خلال نومه، وحينما سمع الطلقة استيقظ منتفضاً وقبض على حزام الرصاص والمسدس اللذين يتركهما دائماً على مقعد بجوار مرقده قريباً من يده اليسرى، ولكن بما أنه لم يكن بمقدوره أن يسمع إلاّ صوت الرذاذ فقد اعتقد أن الأمر كان كابوساً وشعر بالألم ينتابه من جديد.

عادته حمة خفيفة، لاحظ في المرآة أن خده آخذ في التورم، فتح علبة صغيرة تحتوي مرهماً ممزوجاً بزيت النعناع ومرره على موضع الألم الذي كان منقبضاً نامي الشعر، فجأة التقط رنين أصوات بعيدة خلال المطر، خرج إلى الشرفة، كان سكان الشارع وبعضهم يرتدون مناماتهم ينطلقون عدواً تجاه الميدان، التفت نحوه أحد الصبية، رفع ذراعيه، ومضى يصيح دون توقف:

ـ سيزار مونتيرو قتل باستور.

في الميدان كان سيزار مونتيرو يمضي جيئة وذهاباً ومسدسه مشهر في وجه الجميع، لم يلق العمدة كبير عناء في تعرفه، حمل مسدسه بيساره وشق الجمع باتجاه قلب الميدان، أفسح الناس له الطريق، قدم أحد رجال الشرطة من مكتب المراهنات شاهراً بندقيته ومصوباً إياها إلى سيزار مونتيرو، بصوت خفيض قال له العمدة: «لا تطلق النار أيها الحيوان!»، وضع مسدسه في قرابه، انتزع البندقية من الشرطي وواصل السير إلى قلب الميدان.

صاح: «سيزار مونتيرو، أعطني ذلك المسدس».

لم يكن سيزار مونتيرو قد رآه حتى الآن، وبقفزة التفت ناحيته، أحكم العمدة وضع اصبعه على الزناد لكنه لم يطلق النار.

صاح سيزار مونتيرو: «تعال وخذه!».

كان العمدة يمسك البندقية بيده اليسرى ويجفف خفيه باليمنى، راح يحسب كل خطوة واصبعه متوتر على الزناد وعيناه مثبتتان على سيزار مونتيرو، وفجأة توقف وراح يتحدث بنغمة ودية:

إلق بالمسدس على الأرض يا سيزار، لا تأت مزيداً من الحماقات!

تراجع سيزار مونتيرو، وواصل العمدة مسيرته واصبعه محكم على الزناد، لم يحرك عضلة واحدة في جسمه حتى خفض سيزار مونتيرو مسدسه وأسقطه، عندئذ أدرك العمدة أنه لا يرتدي إلاّ سروال منامته وأنه كان يرفض عرقاً تحت المطر وأن ضرسه كفّ عن إيلامه.

فتحت الدور أبوابها، انطلق اثنان من رجال الشرطة يعدوان باتجاه قلب الميدان، تقاطر الجمهور مقبلاً خلفهما، قفز رجلا الشرطة ملتفتين إلى الخلف وصاحا شاهرين البنادق:

ـ إلى الوراء!

صاح العمدة بصوت هادىء دون أن ينظر إلى أحد:

ـ اخلوا الميدان!

انفض الجمع، فتش العمدة سيزار مونتيرو دون أن يجعله ينزع معطفه، وجد أربع طلقات في جيب قميصه وسكيناً ذات مقبض من العظم ونصل مرتد في الجيب الخلفي لسرواله وحلقة بها ثلاثة مفاتيح وأربع أوراق مالية فئة مائة بيزو، انصاع سيزار مونتيرو للتفتيش بجمود وقد أبعد يديه عن جسده ودون أن يتحرك إلا ليسهل عملية تفتيشه، وحينما انتهى الأمر استدعى العمدة رجلي الشرطة وأعطاهما تلك الأشياء وسلمهما سيزار مونتيرو.

قال آمراً: «خذاه إلى الطابق الثاني من قاعة المدينة، أحملكما المسؤولية عنه!».

نزع سيزار مونتيرو معطفه الواقي من المطر، أعطاه لأحد الرجلين ومضى بينهما دون مبالاة بالمطر أو حيرة الناس الذين احتشدوا في الميدان، راح العمدة وقد غرق في التفكير يراقبه وهو يمضي، ثم التفت إلى الجمع، وأشار كما لو كان يفزع بعض الدجاج وصاح:

ـ انفضوا!

راح يجفف وجهه بذراعه العاري، عبر الشارع، ودلف إلى دار باستور.

كانت أم القتيل منهارة في أحد المقاعد وسط نسوة يروحن لها باجتهاد لا يعرف الرحمة، دفع العمدة إحداهن جانباً، قال: «امنحوها بعض الهواء!» التفتت المرأة ناحيته قائلة:

ـ غادرت الدار لتوها لتشهد القداس.

قال العمدة:

ـ ليكن، أما الآن فدعوها تتنفس!

كان باستور في الرواق، منكفئاً إلى جوار برج الحمام في فراش من الريش المدمى، سادت رائحة بقايا الحمام الحادة، وكانت مجموعة من الرجال تحاول رفع الجثة حينما ظهر العمدة بالباب.

قال: «إلى الوراء».

وضع الرجل الجثة مرة أخرى وسط الريش في الوضع ذاته الذي وجدوها عليه وانسحبوا في صمت، بعد أن فحص العمدة الجثة دحرجها عدة مرات، كان هناك العديد من الريش الدقيق وعند مستوى الخصر كان هناك المزيد منه ملتصقاً بالدم الذي كان لا يزال دافئاً ونابضاً بالحياة، أزاح الريش بعيداً بيديه، كان القميص ممزقاً وربطة الحزام مفكوكة، وتحت القميص رأى الأحشاء المبقورة، كان الجرح قد كفَّ عن النزف.

قال أحد الرجال: «أطلق الرصاص من مسدس نمر أرقط».

نهض العمدة واقفاً، نفض الريش المدمى على دعامة برج الحمام وهو لا يزال ينظر إلى الجثة، انتهى إلى تجفيف يديه في سروال منامته، قال للجمع:

ـ لا تحركوه من هنا!

قال أحدهم: «سوف يتركه ممدداً هنا!».

قال العمدة: «علينا أن نحصل على وثيقة تخولنا تحريكه».

داخل الدار بدأ نواح النسوة، شق العمدة طريقه عبر الصيحات والروائح الخانقة التي شرعت تثقل الهواء في الغرفة، ولدى الباب المطل على الشارع ألفى الأب أنجيل.

صاح القس متحيراً: «مات!».

رد العمدة: «ميت كالخنزير».

كانت الدور المطلة على الميدان مفتوحة الأبواب، توقّف المطر لكن السحب المثقلة كانت تطوف فوق الأسقف دون أن تتيح فرجة بينها تطل منها الشمس، أمسك الأب أنجيل بذراع العمدة.

قال: «سيزار مونتيرو رجل طيب، لا بد أن تلك كانت لحظة اضطراب».

قال العمدة بصبر نافد: «أعرف ذلك، لا عليك أيُها الأب، لن يحدث له شيء، ادخل الدار، ذلك هو المكان الذي يحتاجونك فيه».

مضى متعجلاً، أمر رجال الشرطة برفع نطاق الحراسة الذي كان مضروباً، فاندفع الجمهور الذي كان حتى هذه اللحظة محتجزاً خلف خط رسم له يعدو إلى دار باستور، مضى العمدة إلى مكتب المراهنة حيث كان أحد رجال الشرطة ينتظره بطاقم من الملابس النظيفة لردائه الرسمي كملازم شرطة.

عادة ما لا يكون المكتب مفتوحاً في هذه الساعة، أما في ذلك اليوم فقد كان مزدحماً قبل السابعة وحول المناضد ذات المقاعد الأربعة أو بإزاء المشرب كان الرجال يحتسون القهوة، كان معظمهم لا يزال يرتدي سترات مناماتهم وينتعل أخفافاً منزلية.

خلع العمدة ملابسه أمام الجميع وجفف نفسه عاجلاً بسروال منامته وشرع في ارتداء زيه الرسمي صامتاً مستحثاً التعليقات بقوة، وحينما غادر المكان كان قد ألمَّ تماماً بكافة تفاصيل الحادث.

صاح من وقفته بالباب: «حذار، إذا قلب المدينة أحد عليّ فسألقيه بالسجن».

مضى عبر الشارع الممهد بالحجر دون أن يحيي أحداً وإن كان يدرك حالة الانفعال التي تعيشها المدينة، كان شاباً وئيد الحركات ومع كل خطوة يخطوها كان يكشف عن مقصده المتمثل في جعل حضوره ملموساً.

في الساعة السابعة أطلقت الزوارق التي تحمل البضائع والركاب ثلاث مرات كل أسبوع صفارتها فيما هي تغادر الرصيف

دون أن يبدي أحد الاهتمام الذي تحظى به في الأيام الأخرى، مضى العمدة عبر الممر المقنطر حيث كان التجار السوريون قد شرعوا في عرض أغراضهم الملونة، كان الدكتور أوكتافيو جيرالدو وهو طبيب غير ممدد العمر يحفل رأسه بطيات الجلد المجعدة يراقب الزوارق وهي تنطلق محدقاً من باب عيادته، كان بدوره يرتدي سترة منامته وخفيه.

قال العمدة: «أيها الطبيب، ارتد ملابسك لتستطيع المضي للقيام بتشريح الجثة!».

تطلع إليه الطبيب بفضول مفتراً عن صف طويل من الأسنان البيضاء المتينة وقال: «هكذا فإننا نقوم بعمليات تشريح الآن». وأضاف: «جلي أن ذلك تقدم عظيم».

حاول العمدة أن يبتسم لكن حساسية خده حالت دون ذلك، غطى فمه بيده.

تساءل الطبيب: «ما الأمر؟».

ـ ضرس لعين.

بدا الدكتور جيرالدو مستعداً للحوار لكن العمدة كان في عجلة من أمره.

في نهاية الرصيف طرق باب دار ذات جدران من قصب القنوات المائية دون طين فوقها وسقف من سعف النخيل يتدلى حتى مستوى الماء تقريباً، فتحت له الباب امرأة ذات جلد مخضر حامل في شهرها السابع، كانت حافية القدمين، نحاها العمدة جانباً ودلف إلى غرفة المعيشة الظليلة.

صاح منادياً: «أيها القاضي!»

ظهر القاضي أركاديو بالباب الداخلي منتعلاً خفاً خشبياً، كان يرتدي سراويل قطنية دون حزام ممسكاً بها دون سرته وجذعه العاري.

قال العمدة: «أعد تصريحاً بدفن جثة!»

أطلق القاضي أركاديو صفيراً دالاً على الحيرة، قال: «من أين حصلت على فكرة الرواية تلك؟»

تبعه العمدة ببطء إلى المخدع، قال وهو يفتح النافذة ليطهر الهواء المثقل بآثار النوم: «ذلك أمر مختلف، الأفضل أن نقوم بالأمور على وجهها السليم» مسح التراب من يديه في سراويله المكوية وتساءل دون أدنى إشارة سخرية:

ـ أتعرف ما هو تصريح دفن جثة؟

قال القاضي: «بالطبع».

فحص العمدة يديه قرب النافذة، قال دون قصد خفي مرة أخرى: «استدع سكرتيرك ليقوم بما يقتضيه الأمر من كتابة!» ثم التفت إلى الفتاة وقد بسط راحتي يديه، كانت هناك آثار دماء.

قال: «أين يمكنني الاغتسال؟»

قالت: «في الحوض».

مضى العمدة إلى الفناء، بحثت الفتاة في الخزانة عن منشفة نظيفة، لفتها حول قطعة صابون معطرة.

خرجت إلى الفناء في الوقت ذاته الذي كان فيه العمدة عائداً إلى المخدع ناتراً يديه.

قالت: «أحضرت لك الصابون».

ـ الأمر على ما يرام هكذا.

قالها العمدة وتطلع إلى راحتي يديه مرة أخرى، تناول المنشفة وجفّف نفسه مكتئباً وهو يحدق في القاضي أركاديو.

قال: «كان مغطى بريش الحمام».

اقتعد الفراش، راح يحتسي جرعات حذرة من قدح قهوة سوداء، انتظر انتهاء القاضي أركاديو من ارتداء ملابسه، تبعتهما الفتاة عبر غرفة المعيشة.

قالت للعمدة: «لن يزول الورم حتى تنزع ذلك الضرس».

دفع بالقاضي أركاديو إلى الشارع، التفت لينظر إليها، مس بطنها البارزة بسبابته، وقال:

ـ ماذا عن هذا الورم؟ متى يزول؟

قالت: «الآن يمكن أن يزول في أي يوم».

لم يقم الأب أنجيل بنزهته المسائية المعتادة، توقف عقب الجنازة ليتجاذب أطراف الحديث في إحدى الدور في الجانب الأدنى من البلدة ومكث هناك حتى الغسق، شعر بأن حالته طيبة على الرغم من أن المطر المتطاول الهطول يجلب له عادة ألماً في عموده الفقري، وحينما عاد إلى الدار كانت أنوار الشارع قد أضيئت.

كانت ترينيداد تسقي الأزهار في الشرفة، سألها القس عن خبز القربان المقدس فردّت بأنها وضعته على المذبح الرئيسي، احتواه ضباب من البعوض حينما أضاء المصباح في غرفته، وقبل أن يوصد الباب طهّر الغرفة بلا انتهاء بمبيدات الحشرات وهو يعطس بسبب الرائحة، كان العرق قد غلله حينما انتهى من ذلك، بدّل مسوحه الأسود وارتدى ثوبه الأبيض المرتق الذي يلبسه في خلوته ومضى ليقرع الجرس أنجيلوس.

عاد إلى الغرفة، وضع مقلاة على النار وشرع يقلي قطعة من اللحم فيما هو يقطع بصلة إلى شرائح، ثم وضع كل شيء على صحفة تحتوي قطعة من المنيهوت المخلل وبعض الأرز البارد المتبقي من طعام الغذاء، حمل الصحفة إلى المائدة وجلس ليتناول الطعام.

راح يلتهمها جميعاً في الوقت نفسه، مجتزئاً شرائح صغيرة من ألوان الطعام جميعاً ومكوماً إياها على شوكته بالسكين، كان يعمل المضغ بضمير يقظ طاحناً كل شيء حتى آخر حبة أرز بأضراسه ذات التيجان الفضية وإن كانت شفتاه مطبقتين، وفيما يقوم بذلك كان يترك السكين والشوكة على حوافي الصحفة ويفحص الغرفة بنظرة مستمرة كاملة الانتباه، كانت هناك أمامه رفوف تحمل مجلدات سميكة هي محفوظات الأبرشية وفي الركن مقعد هزاز له ظهر مرتفع ووسادة ثبتت عند مستوى الرأس، وخلف المقعد كانت هناك ستارة تتدلى عليها أيقونة للمسيح مصوباً إلى جوار تقويم يدعو إلى شراء دواء للسعال، وإلى الجانب الآخر من الستار امتد فراشه.

شعر الأب أنجيل في نهاية وجبته بالاختناق، فجرد قطعة صغيرة من حلوى الجوافة من ورقها وملأ قدحه حتى حافته بالماء والتهم الحلوى السكرية محدقاً في التقويم، وبين كل قطعة وأخرى كان يتناول رشفة من الماء دون أن يحول عينيه عن التقويم، وأخيراً تجشأ وجفف شفتيه بكم ردائه، طول تسعة عشر عاماً تناول طعامه على هذا النحو وحيداً في مكتبه مكرراً كل حركة بدقة منتظمة، لم يشعر بالخجل من عزلته قط.

بعد التسبيح طلبت منه ترينيداد نقوداً لتبتاع الزرنيخ، رفض القس للمرة الثالثة متعللاً بأن المصايد كافية، فأصرّت ترينيداد قائلة:

ـ إن الفئران الصغيرة تسرق الجبن ولا تمسك بها المصايد وذلك هو السبب في أنه من الأفضل تسميم الجبن.

أقر القس في دخيلته أن ترينيداد على صواب، لكنه قبل أن يعبر عن ذلك اخترق مكبر الصوت الصاك في دار السينما الواقعة عبر الطريق هدوء الكنيسة، في البداية كانت هناك زمجرة كئيبة، ثم تردد صوت احتكاك الإبرة بالأسطوانة وفي الحال اندلعت موسيقى المامبو بنفخة بوق عملاقة.

تساءل القس: «أهناك عرض الليلة؟»

قالت ترينيداد إن هناك عرضاً سيجري تقديمه.

ـ أتعلمين ما الذي يعرضونه؟

قالت ترينيداد: «طرزان والربة الخضراء»، إنه الفيلم نفسه

الذي لم يتمكنوا من انهائه يوم الأحد بسبب المطر، وقد تمّت الموافقة على عرضه لجميع النظارة».

مضى الأب أنجيل إلى أسفل برج الجرس وقرع الجرس اثني عشرة مرة بطيئة، فحارت ترينيداد في الأمر.

قالت: «أنت مخطىء، يا أبت، إنه فيلم تمت الموافقة على عرضه لجميع النظارة، تذكر، إنك لم تقرع الجرس مرة واحدة يوم الأحد»، لوّحت بيديها وقد لاحت نظرة معذبة في عينيها.

قال القس: «لكن في ذلك عدم احترام للبلدة، عدم احترام!» وراح يجفف العرق الذي غلل رقبته وهو يكرّر اللفظة الأخيرة.

فهمت ترينيداد الأمر.

قال القس: «كل ما كان يتعين عليك القيام به هو أن تشاهدي الجنازة، كان الرجال يتعاركون من أجل فرصة لحمل النعش».

ثم صرف الفتاة، أغلق الباب المطل على الميدان المهجور، أطفأ الأنوار في الكنيسة، في الرواق لطم جبينه وهو في الطريق إلى المخدع متذكراً أنه نسي أن يعطي ترينيداد النقود لشراء الزرنيخ، لكنه نسي الأمر ثانية قبل أن يصل غرفته.

بعد قليل جلس إلى مكتبه متأهباً لإنهاء الرسالة التي كان قد بدأها ليلة الأمس، فك أزرار ردائه حتى معدته، وضع أوراق الكتابة والمحبرة والورق المعد لتجفيف الحبر بانتظام على

المكتب فيما راح يبحث في جيوبه عن عويناته، ثم تذكّر أنه تركها في الرداء الذي شهد به الجنازة فنهض لإحضارها، طالع ما كان قد كتبه في الليلة الماضية وبدأ في كتابة فقرة جديدة، تردد صوت ثلاث طرقات على الباب.

ـ ادخل!

كان الطارق مدير دار السينما، بدا ضئيل الحجم، شاحباً أفرط في حلاقة لحيته، ارتسمت على محياه إمارات الفجيعة، كان يرتدي ثوباً كتانياً نظيفاً وينتعل حذاء ذا لونين، أومأ له الأب أنجيل أن يجلس في المقعد الهزاز، لكنه أخرج منديلاً من سراويله وفرده بدقة وأزال الغبار به، اقتعد الدرج متفحجاً، عندئذ أدرك الأب أنجيل أن ما كان يثبته بحزامه لم يكن مسدساً وإنما مشعلاً كهربائياً.

تساءل القس: «ما الذي يمكنني القيام به لك؟».

قال المدير وقد أوشكت أنفاسه على الانقطاع: «عفواً يا أبت لتدخلي في شؤونك لكن من المحقق أن خطأ وقع الليلة».

أومأ القس برأسه وانتظر.

واصل المدير حديثه: «طرزان والربة الخضراء فيلم تمت الموافقة على عرضه لجميع النظارة، أنت نفسك سلمت بهذا يوم الأحد».

حاول القس مقاطعة حديثه لكنه رفع إحدى يديه مشيراً إلى أنه لم ينته بعد.

قال: «لقد قبلت موضوع الجرس لأنه من الصحيح أن هناك أفلاماً لا أخلاقية، ولكن هذا الفيلم ليس به ما يعيبه، إنما نعتزم عرضه يوم السبت في حفل الأطفال الصباحي».

عندئذ أوضح له القس أن الفيلم حقاً ليس مدرجاً ضمن الأفلام غير الأخلاقية بالقائمة التي يتلقاها شهرياً بالبريد.

أضاف: «لكن عرض فيلم اليوم يظهر عدم احترام للبلدة حيث وقع حادث وفاة بها، ذلك أيضاً جزء من الأخلاق».

حدق فيه المدير.

صاح مهتاجاً: «في العام الماضي قتل رجال الشرطة بأنفسهم رجلاً داخل دار السينما وما أن خرجوا بالجثة حتى استمر العرض».

قال القس: «الأمر مختلف الآن، فالعمدة لانت عريكته».

رد المدير مغضباً: «حين يجرون الانتخابات مرة أخرى سيعود القتل من جديد، دائماً ومنذ كانت المدينة يحدث الشيء ذاته».

قال القس: «سنرى!»

تفحصه المدير بنظرة أفعمت حزناً، حينما تحدث مرة أخرى وهو يهز قميصه ليهوي صدره اكتسب صوته نغمة ضارعة.

قال: «هذا هو ثالث فيلم مسموح بعرضه للجميع نحصل عليه هذا العام، يوم السبت الماضي لم تعرض ثلاث بكرات بسبب المطر، وهناك الكثيرون ممن يرغبون في معرفة كيف ينتهي الفيلم».

قال القس: «لقد قرع الجرس بالفعل».

أطلق المدير تنهيدة يأس، راح ينتظر محدقاً في وجه القس دون أن يخطر على باله شيء عدا الحرارة الخانقة السائدة في المكتب.

ـ هكذا فليس هناك ما يمكن عمله؟

أومأ الأب أنجيل برأسه موافقاً.

لطم المدير ركبتيه وانتز واقفاً.

قال: «ليكن، ما الذي يسعنا عمله».

طوى منديله مرة أخرى، جفف العرق المنساب على رقبته، تفحّص المكتب بعناية تشوبها المرارة.

قال: «هذا المكان جحيم».

رافقه القس حتى الباب، ارتجه خلفه، جلس إلى مكتبه لينهي الرسالة، قرأها مرة أخرى من البداية، أكمل الفقرة التي قوطع خلال كتابتها وتوقف ليمعن التفكير، في هذه اللحظة توقفت الموسيقى المنبعثة من مكبر الصوت، قال صوت تجرد من الهوية: «نود أن نعلن لعملائنا الكرام أن عرض الليلة قد ألغي لأن هذه المؤسسة ترغب في أن تشارك المدينة الحداد» ومبتسماً تعرّف الأب أنجيل صوت المدير.

تفاقمت الحرارة، واصل الراعي الكتابة مع فترات توقف قصيرة يجفف فيها عرقه وليعيد قراءة ما دوّنه حتى ملأ صفحتين ولم يكد يوقّع الرسالة حتى انهمر المطر مدراراً دون انذار، نفذ

إلى الغرفة ضباب ترابي، كتب الأب أنجيل العنوان على المظروف، أغلق المحبرة وتأهب لغلق المظروف لكنه قرأ أولاً الفقرة الأخيرة مرة أخرى، ثم فتح المحبرة وكتب حاشية جاء فيها: «السماء تمطر ثانية، مع هذا الشتاء والأمور التي حدّثتك عنها أعتقد أن أياماً مريرة تنتظرنا».

الفصل الثاني

أطل فجر الجمعة دافئاً جافاً، في ذلك الصباح قطع القاضي أركاديو الذي كان يتباهى بأنه يضاجع إمرأة ثلاث مرات كل ليلة منذ أتى ذلك للمرة الأولى حبال الكلة وسقط على الأرض مع زوجته في لحظة الذروة ملتفين في الكلة المزركشة.

غمغمت: دعها كما هي سأثبتها فيما بعد!

انبعثا عاريين تماماً من قلب الغمام المحير للكلة، مضى القاضي أركاديو إلى خزانة الملابس باحثاً عن ملابس داخلية نظيفة، حينما عاد كانت زوجته قد ارتدت ملابسها ورتّبت الكلة، مرَّ بها دون أن ينظر إليها، اقتعد الجانب الآخر من الفراش لينتعل حذاءه وما زال تنفسه ثقيلاً تحت وطأة المضاجعة، تبعته زوجته، أراحت بطنها المتوترة المستديرة على ذراعه وطاردت أذنه بأسنانها، دفعها برقة.

قال: «دعيني وشأني!».

ندت عنها ضحكة مترعة بالعافية، طاردت زوجها إلى الجانب الآخر من الغرفة دافعة سبابتها إلى كليتيه، قائلة: «أيُّها

الحمار الطائش!»، قفز مبتعداً، دفع بذراعيها بعيداً، تركته وشأنه ضاحكة من جديد، لكن الجد حلَّ بها فجأة، صاحت:

- أوه، يا إلهي!

- تساءل: «ما الأمر؟»

صاحت: كان الباب مفتوحاً على مصراعيه، ذلك أقصى حدود الوقاحة».

مضت إلى الحمام منفجرة بالضحك.

لم ينتظر القاضي أركاديو لتناول الافطار، لطف النعناع الممزوج بمعجون الأسنان من مزاجه، فانطلق إلى الشارع، وهناك أشرقت شمس نحاسية، كان السوريون يقتعدون أعتاب حوانيتهم متأملين النهر المفعم بالسلام. فيما هو يمر بعيادة دكتور جيرالدو مرَّ بظفره على ستار الباب وصاح دون أن يتلبث:

- أيُّها الطبيب «ما هو خير علاج للصداع؟»

ردَّ الطبيب من الداخل: «ألا تكون قد احتسيت شيئاً ليلة الأمس».

عند الرصيف كانت مجموعة من النسوة تعلق بأصوات عالية على محتويات نشرة فضائح جديدة علقت على الجدران ليلة أمس، وبما أن اليوم أشرق فجره وضاحاً لا يشوبه المطر فقد طالعت النسوة المارات في طريقهن إلى قداس الساعة الخامسة نشرة الفضائح والآن أحاطت البلدة بأسرها بالأمر علماً، لم يتوقف القاضي أركاديو، شعر كأنه ثور يقاد من خطمه إلى مكتب

المراهنة، هناك دعا بزجاجة جعة وقرص من الأسبرين، كانت دقات الساعة قد أعلنت لتوها التاسعة فيما احتشد المكان بمَن فيه بالفعل.

قال القاضي أركاديو: «المدينة بأسرها تعاني من الصداع».

احتمل الزجاجة إلى إحدى الموائد حيث تحلق ثلاثة رجال حول كؤوس جعتهم وقد بدا عليهم الاضطراب، اقتعد الكرسي الشاغر.

تساءل: «ألا تزال هذه الفوضى سائدة؟»

- كانت هناك أربع نشرات هذا الصباح.

قال أحد الرجال: «دارت النشرة التي قرأها الجميع حول راكيل كونتريراس».

ابتلع القاضي أركاديو قرص الأسبرين، تجرّع جعته من الزجاجة مباشرة، كانت الجرعة الأولى كريهة، لكن معدته ألفت الشراب فشعر بالانتعاش وبأنه تجرّد من ماضيه.

- ما الذي قالته تلك النشرة؟

قال الرجل: «هراء، إن الرحلات التي قامت بها هذا العام لم تكن لعلاج أسنانها كما قالت وإنما لتجهض».

قال القاضي أركاديو: «لم يكن الأمر يستحق إدراجه في نشرة فضائح؛ فالجميع كانوا يتحدثون عن ذلك».

على الرغم من أن الشمس النارية كانت تؤلم بؤبؤيه حينما

غادر المؤسسة فإنّه لم يكن يستشعر عند ذاك الغثيان المحير الذي أحس به عند الفجر، مضى إلى المحكمة مباشرة، أطل عليه سكرتيره وهو كهل هضيم كان ينزع ريش دجاجة من فوق إطارات عويناته بنظرة مَن لا يصدق ما يراه:

ـ إلامَ ندين بهذه المعجزة؟

ـ علينا أن نزيل هذه الفوضى.

مضى السكرتير إلى الفناء جاراً خفيه، وأعطى الدجاجة التي انتزع نصف ريشها عبر الحائط لطاهية الفندق، للمرة الأولى استقر المقام بالقاضي في مقعد مكتبه منذ توليه منصبه قبل أحد عشر شهراً.

كان المكتب المتهالك مقسماً قسمين بفاصل خشبي، كانت هناك في القسم الخارجي منصة من الخشب كذلك تعلوها صورة للعدالة معصوبة العينين تحمل ميزاناً بيدها. في الداخل كان المكتبان العتيقان يواجه أحدهما الآخر وهناك بعض الرفوف تعلوها دفاتر متربة وآلة طابعة، وعلى الحائط تدلت فوق مكتب القاضي صورة للمسيح مصلوباً حفرت في النحاس، وعلى الحائط المقابل تدلت صورة مؤطرة لرجل أصلع سمين مبتسم يتقاطع على صدره وشاح الرئاسة وتحته كلمات مذهبة: السلام والعدل، كانت الصورة هي الشيء الوحيد الجديد في المكتب.

تقنّع السكرتير بمنديل لينظف المكاتب مما علاها من غبار، قال: إذا لم تغط وجهك سيهاجمك السعال، لم يأخذ القاضي بالنصيحة، تراجع في مقعده الدوار ماداً ساقيه ليختبر النوابض.

تساءل مشيراً إلى الغبار المنتشر: «هل سيسكن؟»

هزَّ السكرتير رأسه نافياً، قال: «حينما قتلوا القاضي فيتيلا انكسرت النوابض غير أنها أصلحت» ودون أن ينزع المنديل واصل الحديث: «العمدة بنفسه أمر بذلك حينما تغيّرت الحكومة وشرع محققون خصوصيون في الظهور من النواحي كافة».

قال القاضي: «إن العمدة يريد لهذا المكتب أن يؤدي عمله».

فتح الدرج الأوسط، التقط حزمة من المفاتيح، وراح يفتح الأدراج واحداً بعد الآخر، كانت مكدسة جميعاً بالأوراق، فحصها بصورة سطحية ملتقطاً الأوراق بسبابته ليتأكد من أنه ليس هناك ما يثير اهتمامه ثم أغلق الأدراج ووضع عدة أشياء على المكتب بانتظام: محبرة زجاجية ذات عين حمراء وأخرى زرقاء، قلم حبر لكل عين يتطابق لونه مع الحبر، كان الحبر قد جف.

قال السكرتير: «العمدة يكن لك الود».

مهتزاً في مقعده تابعه القاضي بنظرة مكتئبة فيما هو ينظف الحاجز، راح السكرتير يتأمله كأنه يريد أن يتذكره للأبد تحت ذلك الضوء في تلك اللحظة وفي ذلك الوضع، قال مشيراً إليه باصبعه: «تماماً كما أنت الآن كان القاضي فيتيلا حينما أطلقوا عليه النار».

مسَّ القاضي العروق النائتة في صدغه، كان الصداع يعاوده.

واصل السكرتير حديثه مشيراً إلى الآلة الطابعة فيما هو يمضي إلى الجانب الآخر من الحاجز: «كنت هناك» ودون أن يبتر حكايته انحنى على الحاجز ومنفضة الغبار موجهة إلى القاضي كأنها بندقية، بدا كأحد سارقي البريد في فيلم عن رعاة البقر.

قال: «وقف رجال الشرطة الثلاثة على هذا النحو، وبالكاد نجح القاضي فيتيلا في مشاهدتهم فرفع يديه قائلاً ببطء بالغ: لا تقتلوني ولكن في التو اندفع المقعد في اتجاه واندفع هو في الاتجاه الآخر مثقلاً بالرصاص».

اعتصر القاضي أركاديو جمجمته بيديه، شعر بمخه ينبض ألماً، نزع السكرتير قناعه وعلق المنفضة خلف الباب، قال: «وكان هذا كله لأنه حينما تعتعه السكر قال إنه هنا لضمان حرمة الاقتراع» ظلّ واقفاً وهو ينظر إلى القاضي أركاديو الذي التوى فوق المكتب وقد وضع يديه على معدته.

ـ هل تعاني من متاعب؟

قال القاضي إنه كذلك، وحدثه عن الليلة الماضية، طلب منه أن يمضي إلى مكتب المراهنات ويجلب له قرص أسبرين وزجاجتي جعة، وحينما فرغ من الزجاجة الأولى لم يستطع أن يجد أدنى أثر للاعتكار بفؤاده، كان الصفاء قد حلّ به.

جلس السكرتير أمام الآلة الطابعة.

تساءل: «ما الذي علينا أن نفعله الآن؟»

قال القاضي: «لا شيء».

ـ إذن سأمضي إذا سمحت لي لأعثر على ماريا وأساعدها في تنظيف الدجاجة.

اعترض القاضي، قال: «هذا مكتب لتسيير شؤون العدالة لا لتنظيف الدجاج» فحص مساعده من أعلى إلى أسفل بنظرة مشفقة وأضاف: «أضف إلى ذلك أن عليك أن تتخلص من هذين الخفين وأن تأتي إلى هذا المكتب متنعلاً حذاء!»

تفاقمت الحرارة مع إقبال الظهيرة، حينما دقت الساعة معلنة الثانية عشرة كان القاضي أركاديو قد عب اثنتي عشرة زجاجة جعة، راح يحوم في رحاب الذكريات، كان يتحدث بقلق كابوسي عن الماضي الذي لم يعرف فيه الحرمان والذي حفل بأيام آحاد قضاها إلى جوار البحر بصحبة نساء خلاسيات لا تروى رغباتهن يجامعن الرجال واقفات خلف أبواب المداخ، قال مفرقعاً باصبعيه في مواجهة خمول السكرتير الخدر الذي كان يصغي صامتاً مشيراً برأسه علامة الموافقة: «هكذا كانت الحياة أيامها» شعر بالكآبة وإن كان أكثر تموجاً بالحياة في غمار ذكرياته.

حينما أعلن برج جرس الكنيسة الساعة الواحدة أفصح السكرتير عن إمارات نفاد الصبر.

قال: «الحساء يبرد الآن».

لم يدعه القاضي ينهض، قال مجاملاً: «المرء لا يصادف إنساناً موهوباً في مدن كهذه» شكره السكرتير وقد أبهظته حرارة الجو وراح يتقلقل في مقعده، كان ذلك يوماً متطاولاً حتى السأم

من أيام الجمعة، راح الرجلان يثرثران لنصف ساعة آخر تحت ألواح السقف المتقدة، فيما كانت البلدة تطهو طعام ما قبل القيلولة، عندئذ أشار السكرتير وهو على وشك السقوط إعياء إلى نشرات الفضائح، فهزّ القاضي أركاديو كتفيه دونما اكتراث.

قال مستعيداً شكله المألوف للمرة الأولى: «وهكذا فأنت أيضاً تتابع تلك المادة البلهاء».

لم يكن السكرتير يرغب في مواصلة الثرثرة وقد أوهنه الجوع والاختناق لكنه لم يكن يعتقد أن نشرات الفضائح هراء، فقال: «لقد تلقينا بالفعل حالة الوفاة الأولى وإذا استمرت الأمور على هذا النحو فإننا سنقضي وقتاً عصيباً من جرائها» وراح يحكي قصة بلدة أطاحت بها نشرات الفضائح في أسبوع واحد، فانتهى الأمر بسكانها إلى إفناء بعضهم البعض قتلاً، أما الناجون فقد احتفروا الأرض مستخرجين عظام موتاهم وحملوها معهم ليؤكدوا لأنفسهم أنهم لن يعودوا إلى تلك البلدة ثانية.

أصغى القاضي متفكهاً وهو يفك أزرار قميصه ببطء فيما كان الآخر يتحدث، ضمن أن سكرتيره كان من مشجعي أقاصيص الرعب.

قال: «تلك قضية بسيطة مستمدة من رواية بوليسية».

هزّ المساعد رأسه سلباً، فحدثه القاضي أركاديو كيف أنه اشترك خلال دراسته الجامعية في منظمة تعكف على حل الألغاز البوليسية، كان كل عضو من الأعضاء يقرأ رواية بوليسية حتى مقطع محدد مسبقاً ثم يجتمعون في أيام السبت لحل اللغز، قال:

لم يفتني حل لغز واحد، ساعدتني بالطبع معرفتي بالروايات الكلاسيكية التي كشفت النقاب عن منطق للحياة قادر على اختراق حجب أي لغز، ثم طرح لغزاً: سجل رجل اسمه في سجل أحد الفنادق في الساعة العاشرة ليلاً ومضى إلى غرفته، وصباح اليوم التالي وجده الساقي الذي أحضر له القهوة ميتاً ومتعفناً في فراشه، وأظهر التشريح أن النزيل الذي وصل ليلة الأمس كان ميتاً منذ أسبوع.

انبعث السكرتير ناهضاً على ساقين مقرقعتين، وقال: «ذلك يعني أنه حين بلغ الفندق كان ميتاً بالفعل منذ أسبوع».

قال القاضي أركاديو متجاهلاً مقاطعة حديثه: «كتبت الرواية قبل اثني عشر عاماً لكن هيرقليطس قدّم مفتاح اللغز قبل ميلاد المسيح بخمسة قرون».

تأهب لكشف الحل، لكن السكرتير كان قد ضاق ذرعاً، فأعلن بعدوانية شرسة: «لم يحدث قط منذ أصبح العالم على ما هو عليه أن اكتشف أحد من الذي يعلق نشرات الفضائح» تأمله القاضي أركاديو بعينين منحرفتين.

قال: «أراهن أنني سأكتشفه».

- إني أقبل الرهان.

كانت ربيكا آزيس تعاني الاختناق في المخدع الخانق بالدار المقابلة وقد غاصت رأسها في الوسادة وهي تحاول أن تغفو في قيلولة مستحيلة، كانت قد دخنت أوراقاً ألصقت إلى صدغيها.

قالت مخاطبة زوجها: «إذا لم تفتح النافذة فسنختنق من الحر».

فتح روبرتو آزيس النافذة في اللحظة التي كان القاضي أركاديو يغادر فيها مكتبه.

قال مبتهلاً للمرأة المتوقدة الحيوية التي كانت مضطجعة مفتوحة الذراعين تحت غمام الكلة الوردية المزركشة متجردة تماماً تحت غلالها الليلية المصنوعة من النايلون: «حاولي أن تنامي، أعدك بألا أتذكر الأمر ثانية».

كان روبرتو آزيس الذي أمضى الليلة يذرع المخدع مشعلاً سيجارة عقب أخرى وقد جافاه النوم قاب قوسين أو أدنى من الامساك بكاتب نشرات الفضائح فجر ذلك اليوم، كان قد سمع حفيف الورق أمام داره وصوت احتكاك الأيدي المتكرر وهي تحاول تثبيتها على الجدار، لكنه أدرك الأمر كله متأخراً بعد أن علقت نشرة الفضائح، وحينما فتح النافذة كان المؤلف المحترم قد غادر المكان.

منذ تلك اللحظة وحتى الساعة الثانية من بعد الظهر حينما وعد زوجته بأنه لن يتذكر نشرة الفضائح مرة أخرى استخدمت كافة أشكال الاقناع في محاولة تهدئته، وأخيراً اقترحت صيغة يائسة، فعرضت عليه كدليل نهائي على براءتها أن تعترف أمام الأب أنجيل بصوت عال في حضور زوجها، كان مجرد عرض القبول بهذا الإذلال كافياً، وعلى الرغم من اضطرابه فإنه لم يجرؤ على اتخاذ الخطوة التالية واضطر للاستسلام.

قالت دون أن تفتح عينيها: «من الأفضل دائماً أن نخرج ما بداخلنا من مشاعر، كانت كارثة ستقع لو أنك ظللت متكتماً الأمر طوال الليل».

أحكم إغلاق الباب خلفه، سمع في الدار الظليلة المترفة المغلقة تماماً طنين مروحة أمه الكهربائية فيما هي غافية في قيلولتها بالدار المجاورة، صبَّ لنفسه كأساً من عصير الليمون جلبه من الثلاجة تحت النظرة الناعسة للطاهية الزنجية.

من قلب المتعلقات الخاصة بالمرأة الرطبة والمحيطة بها سألته عما إذا كان يرغب في تناول طعام الغذاء، نزع الغطاء عن الإناء، كانت سلحفاة كاملة تطفو وزعانفها إلى أعلى في الماء المغلي، للحظة لم تشمله الرعدة لفكرة أن السلحفاة قد ألقيت حية في الإناء، وأن قلبها ربما سيظل ينبض حينما سيجلبونها مقطعة إلى أربعة أجزاء متساوية إلى المائدة.

قال وهو يرد غطاء الإناء: «لست جائعاً» وأضاف لدى الباب: لن تتناول السيدة الطعام أيضاً، أصابها الصداع طوال اليوم.

كان رواق ذو أحجار خضراء ممهدة يربط الدارين وكان بوسع المرء أن يرى منه أسلاك خن الدجاج في خلفية الفناء المشترك، وفي جانب الرواق التابع لدار أمه تناثرت أقفاص طيور عديدة معلقة من الطنف وأصص أزهار عديدة حفلت بالزهور الملونة.

من كرسيها المستطيل حيته أخته البالغة أحد عشر عاماً تحية

أقرب إلى الزمجرة بعد قيلولتها التي انتهت لتوها، كان أثر نسيج قماش الكرسي القطني مطبوعاً على خدها.

أشار في صوت بالغ الانخفاض: «الساعة توشك أن تبلغ الثالثة، حاولي مواصلة ما كنت فيه!».

قالت الصبية: «حلمت بقطعة زجاجية».

لم يستطع أن يسيطر على رعدة خفيفة أخذته.

ـ ماذا كانت تشبه؟

قالت الفتاة محاولة أن تعطي الحيوان الكابوسي شكلاً بيديها: «كانت كلها زجاجية، مثل طير زجاجي، لكنها قطة».

ألفى نفسه ضائعاً في وضح النهار في مدينة غريبة.

غمغم قائلاً: «انسي الأمر، شيء كهذا لا يستحق عناء تذكره». في هذه اللحظة رأى أمه لدى باب مخدعها، أحسَّ بأنه تم انقاذه.

قال مؤكداً: «تشعرين بالتحسن».

ردت الأرملة آزيس بتعبير ينضح مرارة: «في كل يوم أتحسن بصورة أفضل حتى أتمكن من الاقتراع!» وراحت تشكو عن قصة شعرها الغزير الحديدي اللون على شكل كعكة، مضت إلى الرواق لتغير الماء في أقفاص الطيور.

تهالك روبرت آزيس على الكرسي المستطيل حيث كانت أخته راقدة، وقد وضع يديه خلف قفاه، رمق بعينيه الذابلتين

المرأة الهضيمة في ردائها الأسود التي راحت تناغي الطيور بصوت خفيض، رفت هذه الأخيرة في الماء المتجلد فنثرت قطرات من الماء على وجه المرأة بخفقات أجنحتها المبتهجة، حينما انتهت الأرملة آزيس من أقفاص الطيور رمقت ولدها بنظرة مترددة.

قالت: «كانت لديك أمور عليك انجازها في الغابات».

قال: «لم أذهب، كانت هناك بعض الأمور يتعين القيام بها هنا».

ـ الآن لن تذهب قبل يوم الاثنين.

وافق بنظرة من عينيه، عبر الغرفة خادم زنجي حافي القدمين مع الصبية ليمضي بها إلى المدرسة، ظلّت الأرملة آزيس في الرواق حتى مضيا، ثم أومأت لولدها فتبعها إلى المخدع الفسيح حيث كانت المروحة تطن، تهالكت جالسة على مقعد هزاز متهالك إلى جوار المروحة وقد بدا عليها الإعياء البالغ، على الجدران تدلت صور أطفال بعد بهم العهد في أطر نحاسية، تمدد على الفراش الوثير الضخم متداعياً مكتئباً حيث كان بعض الأطفال الذين ضمتهم الصور ومن بينهم والده في ديسمبر الماضي قد لفظوا أنفاسهم الأخيرة.

تساءلت الأرملة: «ماذا دهاك؟»

تساءل بدوره: «أتصدقين ما يقوله الناس؟»

ردت الأرملة: «في مثل سني يتعين أن تصدق كل شيء» وتساءلت بتراخ: «ما الذي يقولونه؟»

- إن ريبكا إيزابيل ليست طفلتي.

شرعت الأرملة في هز مقعدها ببطء، وقالت: «إن لها أنف آل آزيس» تساءلت متنصلة بعد لحظة تفكير: «مَن الذي يقول ذلك؟» قضم روبرتو آزيس أظافره.

- علقوا نشرة فضائح.

عندئذ فحسب فهمت الأرملة إن الهالات المرتسمة تحت عيني ولدها ليست أثراً لأرق طويل.

بادرت قائلة: «نشرات الفضائح ليست هي الناس».

قالت روبرت آزيس: «لكنها تقول فحسب ما يتقوله الناس بالفعل، حتى ولو كان شخصاً ما لا يعرف».

غير أنها كانت تعرف كل ما تقوله البلدة عن عائلتها لأعوام طويلة، ففي دار مثل دارها تعج بالخدم وأبناء العماد والحراس من كافة الأعمار كان من المستحيل على المرء أن يعتكف في مخدعه دون أن تبلغه شائعات الشوارع هناك، ويبدو أن عروق آل آزيس الهائجين الذين أسسوا البلدة حينما كانوا لا يتجاوزون رعاة خنازير كانت تجري فيها دماء يستعذب المثرثرون الولوغ فيها.

قالت: «كل ما يقولونه ليس صحيحاً حتى وإن كان شخص ما يعلم به».

قال: «الجميع يعلمون أن روزاريو مونتيرو كانت تضاجع باستور، كانت أغنيته الأخيرة مهداة لها».

ردت الأرملة: «قال الجميع ذلك لكن أحداً لم يكن على

يقين مما يقول، من ناحية أخرى فإنه من المعروف الآن أن هذه الأغنية كانت مهداة لمارجو راميريز، كانا سيتزوجان ووحدهما بالإضافة إلى أم باستور كانوا يعلمون بالأمر، كان من الأفضل لو أنهم لم يكتموا بمثل هذا الحرص السر الوحيد الذي بقي طي الكتمان في هذه البلدة».

حدق روبرتو آزيس في أمه بحيوية مفاجئة، وقال: «أتت عليّ لحظة هذا الصباح اعتقدت فيها أني ملاق حتفي» لم يبد التأثر على الأرملة.

قالت: «آل آزيس قوم غيورون، كان ذلك أعظم ما نكبت به هذه الدار».

التزما الصمت وقتاً طويلاً، أوشكت الساعة أن تبلغ الرابعة وشرع الحر في التراجع، حينما أغلق روبرتو آزيس مفتاح المروحة كانت الدار كلها تضج بصوت الاستيقاظ طافحة بالأصوات النسائية وتغريد الطيور.

قالت الأرملة: «ناولني الزجاجة من فوق منضدة الفراش».

التقطت قرصين رماديين مستديرين مثل لؤلؤتين صناعيتين وناولت الزجاجة إلى ولدها قائلة: «خذ الاثنين سيساعدانك على الاغفاء!» ابتلعهما بالماء الذي تركته أمه في الكوب وأراح رأسه فوق الوسادة.

تنهدت الأرملة، التزمت صمتاً مكتئباً، ثم قالت كالمعتاد معممة على البلدة ما تفكر فيه لدى تأملها أوضاع العائلات الست التي تشكل طبقتها:

«أسوأ ما في هذه البلدة أن النساء يتعين عليهن المكوث في الدور وحدهن فيما يمضي الرجال إلى الغابات».

شرع النعاس في التغلب على مقاومة روبرتو آزيس. لاحظت الأرملة لحيته النامية وأنفه الطويل المؤلف من غضروف أقنى، وراحت تفكّر في زوجها الراحل، عرف أوالبرتو آزيس بدوره، كان عملاقاً من مستثمري الغابات وضع حول عنقه لخمس عشرة دقيقة ياقة من السليوليد ليلتقطوا له بالطريقة العتيقة الصورة التي بقيت بعد وفاته معلقة على المنضدة المجاورة للفراش، وقد قيل عنه إنه في ذلك الفراش نفسه قتل رجلاً عثر عليه مضاجعاً امرأته وإنه دفنه سراً في الفناء، وكانت الحقيقة أمراً مختلفاً، فقد صرع أوالبرتو آزيس بطلقة بندقية صيد قرداً وجده يستمني متعلقاً بأحد عروق المخدع الخشبية وهو يحدق في زوجته فيما كانت تبدل ملابسها، ومات بعد أربعين عاماً دون أن يتمكن من تصحيح تلك الأسطورة.

ارتقى الأب أنجيل الدرج بخطوات نشطة، في الطابق الثاني وعند نهاية ممر علقت على جدرانه بنادق وأحزمة ذخائر كان أحد رجال الشرطة مستلقياً على سرير مما يستخدم في معسكرات الجيش وهو يطالع ناظراً باتجاه السقف، استغرق في القراءة حتى أنه لم يلاحظ وجود القس إلاّ بعد أن بادره هذا بالتحية، طوى المجلة ونهض من رقدته.

سأل الأب أنجيل: «ما الذي تطالعه؟»

أراه الشرطي غلاف المجلة.

كانت «تيري والقراصنة».

فحص الأب بنظرة ثابتة الزنزانات الثلاث المشيدة بالأسمنت المسلح دون نوافذ وبأبواب من القضبان الحديدية تطل على الممر، في الزنزانة الوسطى رقد شرطي آخر بسراويله القصيرة ممدداً في أرجوحة، كانت الزنزانتان الأخريان خاويتين فسأل الأب أنجيل عن سيزار مونتيرو.

قال الشرطي مومئاً برأسه ناحية باب موصد: «إنه هناك، تلك غرفة القائد».

- هل أستطيع محادثته؟

قال الشرطي: «محظور مقابلته».

لم يصر الأب أنجيل، سأل عما إذا كان السجين على ما يرام، فقال رجل الشرطة إنه أعطي أفضل غرفة في الثكنات تتمتع بدفق من النور والماء الجاري، لكنه قضى أربعاً وعشرين ساعة دون أن يطعم شيئاً، ورفض تناول الطعام الذي أمر العمدة بجلبه من الفندق.

قال القس: «كان عليهم أن يحضروا الطعام من داره».

- إنه لا يرغب في مضايقة زوجته.

غمغم القس وكأنه يحدث نفسه: «سأحادث العمدة في هذا كله» همّ بالمضي إلى نهاية الممر حيث شيّد العمدة لنفسه مكتباً مصفحاً.

قال الجندي: «إنه ليس هنا، فقد لزم الدار يومين يعاني من أضراسه».

زاره الأب أنجيل، كان ممدداً في أرجوحة إلى جوار مقعد عليه إناء به ماء مملح ولفافة بها أقراص مسكنة وحزام الرصاص الذي يحمل المسدس، كان خده لا يزال متورماً، جذب الأب أنجيل مقعداً وجلس إلى جوار الأرجوحة.

قال: «انزعه!»

بصق العمدة ملء فيه من الماء المالح إلى الحوض وقال ورأسه لا يزال مدلى فوق الحوض: «هذا أمر يسهل قوله» فهم الأب أنجيل ما يعنيه، قال بصوت خفيض:

- إذا خولتني ذلك فإنني سأحادث طبيب الأسنان في الأمر.

تنفس بعمق وغامر بالاستطراد قائلاً: «إنه رجل متفهم».

قال العمدة: «كالبغل تماماً، عليك أن تمزقه إرباً بالطلقات وعندئذ تعود إلى حيث بدأت».

رمقه الأب أنجيل وهو يمضي إلى المغسل. أدار العمدة مقبض الصنبور ووضع خده المتورم تحت سيل الماء البارد وأبقاه كذلك لحظة وقد بدت على محياه إمارات النشوة، ثم وضع قرصاً مسكناً، احتقن الماء وألقى به في فيه.

أصرّ القس على اقتراحه قائلاً: «بإمكاني جدياً أن أحادث طبيب الأسنان».

أومأ العمدة مشيراً إلى نفاد صبره: «اصنع ما بدا لك أيها الأب».

رقد في الأرجوحة، وجهه إلى السقف، عيناه مغمضتان،

يداه خلف رأسه متنفساً بانتظام غاضب، انفثأ الألم، وحينما فتح عينيه مرة أخرى كان الأب أنجيل ينظر إليه صامتاً وقد جلس إلى جوار الأرجوحة.

تساءل العمدة: «ما الذي جاء بك هنا؟»

قال القس دون مقدمات: «سيزار مونتيرو، إن للرجل حق الاعتراف لكاهنه».

قال العمدة: «إنه محتجز، يمكنه الاعتراف لك غداً بعد التحقيق الأولي، وينبغي أن نرسله يوم الاثنين».

قال القس: «إن أمامه ثماني وأربعين ساعة».

قال العمدة: «وضرسي يؤلمني منذ أسبوعين».

شرع البعوض يطن في الغرفة المعتمة، تطلع الأب أنجيل عبر النافذة، رأى سحابة وردية كثيفة تطفو محلقة فوق النهر.

تساءل: «وماذا عن مشكلة الطعام؟»

غادر العمدة الأرجوحة ليغلق باب الشرفة، قال: لقد بذلت ما بوسعي وأديت واجبي، إنه لا يرغب في مضايقة زوجته أو إرسال الطعام للفندق، شرع في نشر رذاذ مبيد الحشرات عبر الغرفة، بحث الأب أنجيل في جيبه عن منديله حت لا ينتابه العطس، لكنه بدلاً منه وجد الرسالة التي كانت حوافها قد تجعدت، آخ، ندت عنه تعبيراً عن الدهشة وهو يحاول أن يسوي أطراف الرسالة بأصابعه، توقف العمدة عن تطهير الغرفة بالمبيد، غطى القس أنفه ولكن دونما جدوى، فقد عطس مرتين، قال

العمدة: «اعطس يا أبت» وأكّد بابتسامة: «إننا نحيا في ظل الديمقراطية».

ابتسم الأب أنجيل بدوره، أبرز الغلاف المختوم وقال: «لقد نسيت أن أبعث بهذه الرسالة» رفع المنديل إلى أنفه وقد ضايقه مبيد الحشرات، كان لا يزال يفكر في سيزار مونتيرو.

قال: «يبدو الأمر وكأنك تتعمد تجويعه».

قال العمدة: «إذا كان ذلك هو ما يريده فليس بوسعنا إجباره على تناول الطعام».

قال القس: «إن ما يعنيني أكثر من أي شيء آخر هو ضميره».

دون أن يبعد منديله عن أنفه راح يتابع العمدة بعينيه إلى أن انتهى من تطهير الغرفة فقال: «لا بد أنه يشعر بضيق بالغ إذا كان يعتقد أن أحداً سيقوم بدس السم له» وضع العمدة علبة المطهر على الأرض.

قال: «إنه يعلم بأن الجميع كانوا يحبون باستور».

رد القس: «كان سيزار مونتيرو يحبه كذلك».

ـ لكن ما حدث أن باستور هو الذي لقي مصرعه.

تأمل القس الرسالة، وغمغم محدثاً نفسه: «باستور! لم يكن لديه وقت للاعتراف» أصبح الضوء شاحباً، فأشعل العمدة الأنوار قبل أن يلوذ بالأرجوحة.

قال: «سأتحسن غداً، بوسعك أن تستمع إلى اعترافه بعد الاجراءات الرسمية، أيناسبك ذلك؟»

وافق الأب أنجيل مكرراً قوله: «ذلك فحسب من أجل راحة ضميره» انبعث واقفاً بحركة وقور، وأوصى العمدة بألا يتناول أكثر مما ينبغي من الأقراص المسكنة، فردَّ عليه العمدة مذكراً بأن عليه ألا ينسى الرسالة.

قال العمدة: «وثمة شيء آخر يا أبت، حاول بأي طريقة تملكها محادثة طبيب الأسنان» وحدّق في الراعي الذي كان قد شرع في هبوط الدرج وأضاف مبتسماً كذي قبل: «إن هذا كله يسهم في دعم صرح السلم».

اقتعد مدير مكتب البريد عتبة مكتبه وراح يرقب الفسق في احتضاره حينما أعطاه الأب أنجيل الرسالة مضى إلى مكتبه، بلل بلسانه طابع بريد فئة خمسة عشر سنتافو لتغطية قيمة البريد الجوي ومعونة التعمير، راح ينقب في درج مكتبه، وحينما أوقدت أنوار الشارع وضع القس بضعة عملات معدنية على المنضدة وغادر المكان دونما تحية.

ظلَّ مدير مكتب البريد على بحثه في درج مكتبه، بعد لحظة وفي غمار الإعياء الذي انتابه من البحث بين الأوراق كتب على ركن المغلف بالحبر: لا توجد طوابع بريد فئة خمسة سنتافو، ووقع تحت هذه الكلمات ووضع ختم المكتب عليها.

في تلك الليلة عثر الأب أنجيل بعد التسبيح على فأر نافق طافياً في الماء المقدس بجرن المعمورية، كانت ترينيداد تضع

المصائد في بيت المعمورية، فأمسك الحيوان من طرف ذيله.

قال لترينيداد ملوحاً بالفأر النافق أمامها: «لسوف تثيرين المتاعب، ألا تعلمين أن بعض المؤمنين يضعون الماء المقدس في زجاجات ليتجرعه مرضاهم؟»

سألت ترينيداد: «وما شأن هذا بذلك؟»

ردَّ القس: «ما شأنه؟ طيب، إنه يعني فحسب أن المرضى سيجرعون ماء مقدساً يحتوي على سم الزرنيخ».

ذكرته ترينيداد بأنه لم يعطها بعد النقود لشراء الزرنيخ، وقالت: «إنه الجير» وكشفت جلية الأمر، كانت قد وضعت بعض الجير في أركان الكنيسة فتناول الفأر جانباً منه وبعد لحظة دفعه الظمأ القاتل للذهاب بفرض الارتواء من جرن المعمورية، فعمل الماء على تصلب الجير داخل معدته.

قال القس: «على كل كان الأفضل لو أنك جئت وأخذت النقود لشراء الزرنيخ، فلست أريد المزيد من الفئران في الماء المقدس».

كان وفد من سيدات الكنيسة في انتظاره بالمكتب وعلى رأسهن ربيكا آزيس، وبعد أن أعطى القس ترينيداد النقود لشراء الزرنيخ عقب على الحر السائد في الحجر وجلس إلى مكتبه مواجهاً السيدات الثلاث اللاتي كن ينتظرن في صمت.

ـ في خدمتكن، سيداتي الجليلات!

تطلعت إحداهن إلى الأخرى، فضت ربيكا آزيس عندئذ

أطراف مروحة يابانية وشتها المناظر الطبيعية وقالت بجلاء: «إنه موضوع نشرات الفضائح يا أبت».

وبصوت متموج كأنها تقص حكاية خرافية شرعت تتحدث عن شعور الناس بالخوف، قالت إنه على الرغم من أن مصرع باستور أمكن تفسيره باعتباره شيئاً شخصياً تماماً فإن العائلات المحترمة شعرت بأنها مضطرة لأن تبدي قلقها إزاء نشرات الفضائح.

كانت أدالجيسا مونتويا كبرى السيدات الثلاث أكثر صراحة فقالت وهي تتكىء على مظلتها الشمسية: لقد قررنا نحن السيدات الكاثوليكيات أن نتدخل في الأمر.

تأمل الأب أنجيل الأمر لثوان معدودات، تنفست ربيكا آزيس بعمق، وتساءل الأب كيف استطاعت تلك المرأة أن تحتمل مثل هذه الرائحة الغليظة.

كانت امرأة بديعة موردة تتمتع ببشرة بيضاء متألقة وصحة مفعمة بالحيوية، تحدث القس ونظرته ثابتة على نقطة غير محددة.

قال: «إحساسي هو أننا لا ينبغي أن نبدي أي اهتمام بصوت الفضيحة، علينا أن نسمو بأنفسنا عن مثل هذه الأمور وأن نمضي مراعين شريعة الرب على نحو ما صنعنا حتى الآن».

أبدت أدالجيسا مونتويا موافقتها بايماءة من رأسها، لكن السيدتين الأخريين لم توافقا، فقد بدا لهما أن «هذه النكبة يمكن أن تجلب عواقب وخيمة في المدى الطويل»، وفي هذه اللحظة أصدر مكبر الصوت في دار السينما صوته الغليظ، لطم الأب

أنجيل جبينه براحته، وقال فيما هو يبحث في الدرج عن قائمة الرقابة الكاثوليكية على الأفلام: «أي فيلم يعرضون؟»

قالت ربيكا آزيس: «قراصنة الفضاء، إنه من أفلام الحروب».

مضى الأب أنجيل يبحث عنه في القائمة الأبجدية مغمغماً بشذرات من عناوين الأفلام فيما هو يمرر أصبعه على قائمة الممنوعات الطويلة، توقف ليقلب الصفحة.

ـ قراصنة الفضاء.

كان يمرر أصبعه أفقياً باحثاً عن الخطر الأخلاقي وهنا سمع صوت المدير بدلاً من التسجيل المتوقع وهو يعلن إلغاء الحفل بسبب الطقس الرديء، وأوضحت إحدى السيدات أن المدير قد اتخذ هذا القرار لأن الجمهور طالب باعادة نقوده إذا حال المطرودون استكمال الفيلم قبل أن ينتهي عرض نصفه.

قال الأب أنجيل: أمر مؤسف للغاية؛ فالفيلم مصرح بعرضه للجميع.

أغلق دفتر الرقابة وواصل الحديث: «تلك كما كنت أقول مدينة لا تغفل شيئاً، قبل تسعة عشر عاماً حينما أسندوا إليّ رعاية الأبرشية كانت هناك إحدى عشرة حالة لاتخاذ الخليلات علناً بين العائلات البارزة، أما اليوم فهناك حالة واحدة وآمل ألا تدوم طويلاً».

قالت ربيكا آزيس: «ليس الأمر من أجلنا وإنما لصالح هؤلاء القوم المساكين».

استطرد القس دون مبالاة بالمقاطعة: «ليس هناك ما يدعو للقلق، على المرء أن يتذكر مدى التغير الذي طرأ على البلدة، ففي الأيام الخوالي قدمت راقصة باليه روسية عرضاً للرجال فقط في ساحة مصارعة الديكة ثم عرضت للبيع في المزاد كافة ما كانت ترتديه».

قاطعته أدالجيسا مونتويا قائلة: «ذلك على وجه الدقة ما كان الحال عليه».

حقاً إنها تتذكر الفضيحة على نحو ما رويت لها، فحينما أصبحت الراقصة عارية تماماً شرع كهل في الصياح عالياً من بين المقاعد ومضى إلى أعلى مقعد ونثر بوله على الجمهور كافة، وقد حدثوها بأن كافة الرجال الباقين قد حذوا حذوه وانتهى بهم الأمر إلى التبول بعضهم عن البعض الآخر وسط صيحات تدفع للجنون.

استطرد القس: «الآن قد ثبت أن تلك هي أكثر المدن قدرة على الملاحظة في العالم البابوي».

ومضى مفصلاً ما طرحه، فأشار إلى بعض الأمثلة العسيرة فمن كفاحه ضد ضروب الوهن والضعف لدى الكائنات البشرية إلى أن كفت السيدات الكاثوليكيات عن إبداء الاهتمام وقد قهرهن الشعور بالحر، وفضت ربيكا آزيس أطراف مروحتها من جديد، وعندئذ اكتشف الأب أنجيل مصدر عطرها، تألق عبق خشب الصندل في فتور الغرفة، فاستل القس منديله من كم ردائه ووضعه على أنفه حتى لا تداهمه موجة عطس.

واصل حديثه قائلاً: «وفي الوقت نفسه فإن كنيستنا هي أفقر الكنائس في العالم البابوي، فالأجراس متصدعة ومحاور الدواليب تحفل بالفئران لأن حياتي قد استنفدت في فرض القيم الأخلاقية والعادات الطيبة».

فكَّ زر ياقته، انبعث واقفاً، وقال: «بوسع أي شاب القيام بالعمل الخشن، لكن المرء من ناحية أخرى يحتاج إلى عناد سنوات طويلة وحنكة الكهولة ليعيد بناء صرح الأخلاق» رفعت ريبكا آزيس يدها المتألقة المحلاة بأسورة زفافها التي يعلوها نطاق من الزمرد.

قالت: «ولهذا السبب عينه فإننا نعتقد أنه مع وجود نشرات الفضائح تلك قد يضيع عملك كله هباء».

انتهزت المرأة الوحيدة التي التزمت الصمت حتى الآن فرصة السكون السائد لتتدخل.

- أضف إلى ذلك أن البلاد تتعافى من أوجاعها القديمة والكارثة الراهنة قد تثير المتاعب.

التقط الأب أنجيل مروحة من الخزانة وشرع في جلب الهواء بها في اعتدال.

قال: «لا شأن لهذا الأمر بذلك، لقد خضنا غمار مرحلة سياسية عسيرة، لكن الأخلاق العائلية ظلت على ما هي عليه».

نهض واقفاً أمام السيدات الثلاث وقال: «خلال سنوات قلائل سأمضي لأخاطب العالم البابوي: إنني أدع لكم هذه البلدة

المثالية، الآن كل ما تحتاجون إليه هو أن ترسلوا زميلاً فتياً نشطاً ليبني أفضل كنيسة في المعمورة».

انحنى ببطء وصاح: «وعندئذ سأمضي لأموت في سلام في فناء أسلافي».

أبدت السيدات اعتراضهن، وأعربت أدالجيسا عن الخاطر الذي جال بفكرهن جميعاً.

- إنها مثل بلدتك يا أبت، وبودنا لو مكثت هنا حتى اللحظة الأخيرة.

قالت ريبكا آزيس: «إذا كان الأمر هو بناء كنيسة جديدة فإن بمقدورنا البدء في حملة التبرع غداً».

ردَّ الأب أنجيل: «كل شيء في الوقت المناسب».

ثم أضاف بنغمة مغايرة: «أما الآن فلست أرغب في أن تدركني الشيخوخة وأنا على رأس أي أبرشية، لا أريد أن يقع لي ما حدث لطيب الذكر أنطونيو إيزابيل ديل سانتيسيمو ساكرامنتو ديل ألتار كاستانيدا إي مونتيرو الذي أبلغ الأسقف أن مطراً من الطيور الميتة يهطل في أبرشيته، وألفاه المحقق الذي أرسله الأسقف في الميدان الرئيسي يلعب «عسكر وحرامية» مع الأطفال.

أعربت السيدات عن حيرتهن.

- مَن كان هذا؟

قال الأب أنجيل: «إنه الخوري الذي خلفني في ماكوندو، كان في المائة من عمره».

الفصل الثالث

في نهاية ذلك الأسبوع فرض الشتاء الذي كانت صرامته أمراً متوقعاً منذ الأيام الأخيرة من سبتمبر عنفوانه، أمضى العمدة يوم الأحد في مضغ الأقراص المسكنة في أرجوحته بينما فاض ماء النهر فأغرق ضفتيه ودمرَّ الأجزاء الدنيا من البلدة.

خلال أولى زخات المطر التي انهمرت في فجر يوم الاثنين اقتضى الأمر من البلدة ساعات طويلة لتلتقط أنفاسها، فتح مكتب المراهنات وحانوت الحلاق بابيهما مبكرين لكن معظم الدور ظلت مرتجة الأبواب حتى الساعة الحادية عشرة، وكان السيد كارمايكل أول من أتيح له أن يعايش ذلك الشعور بالارتجاف إزاء مشهد الرجال الذين حملوا دورهم ومضوا بها إلى منطقة أكثر ارتفاعاً، جماعات صاخبة نزعت ركائز الدور ونقلت المساكن الهشة المؤلفة من الجدران المقامة من الأوتاد وضفائر الأغصان وأسقف السعف دون أن تمسها.

احتمى كارمايكل بطنف حانوت الحلاق وقد فتح مظلته وراح يتأمل هذه الانتقالات المضنية، لكن الحلاق انتزعه من استغراقه في التأمل.

قال الحلاق: «كان عليهم الانتظار إلى أن يتوقف المطر».

قال كارمايكل طاوياً مظلته: «لن يتوقف، هكذا أحسب».

مرّ الرجال حاملين الدور وقد غاصوا حتى كواحلهم في الطين وهم يرتطمون بجدران حانوت الحلاق، عبر النافذة رأى السيد كارمايكل الأجزاء الداخلية المتهالكة، غرفة نوم تجرّدت تماماً من حميميها، اجتاحه شعور بالكارثة.

بدا الوقت وكأنه لم يتجاوز السادسة، لكن معدته حدثته بأن الساعة توشك أن تبلغ الثانية عشرة، دعاه موسى السوري للجلوس في حانوته إلى أن ينقطع المطر، لكن السيد كارمايكل كرّر تنبؤه بأن السماء لن تقلع طوال الساعات الثماني والأربعين المقبلة، تردّد قبل أن يقفز إلى الممشى المواجه للبناية التالية، ألقت مجموعة من الصبية كانوا يلهون بلعبة الحرب كرة من الطين فانتشرت على الحائط على بعد أقدام من سراويله المكوية حديثاً، خرج إلياس السوري من حانوته وفي يده مكنسة مهدداً الصغار في مزيج غامض من اللغتين العربية والقشتالية.

قفز الأطفال مهللين.

ـ أيها التركي الأعجم عد إلى عملك!

تبيّن السيد كارمايكل أن ملابسه لم تمس، فطوى مظلته ودلف إلى حانوت الحلاق مقتعداً الكرسي مباشرة.

قال الحلاق: «كنت أقول دائماً إنك رجل حكيم».

لفّ منشفة حول عنقه، فاشتم السيد كارمايكل رائحة ماء

اللافندر التي تسبب له الضيق ذاته الذي تحدثه الروائح الفاترة المنبعثة من عيادة طبيب الأسنان، شرع الحلاق في تشذيب الشعر المجعد المنتشر على قفاه، تلفت السيد كارمايكل نافد الصبر حوله بحثاً عما يطالعه.

ـ أليس لديك صحف؟

ردّ الحلاق دون توقف عن عمله: «الصحف الوحيدة الباقية في البلاد هي الصحف الرسمية ولن تدخل هذه المؤسسة طالما بقيت على قيد الحياة».

اكتفى السيد كارمايكل بتأمل حذائه المستدق الطرف حتى سأله الحلاق عن الأرملة مونتيل، حيث كان قد جاء من دارها وأشرف على إدارة شؤونها منذ وفاة زوجها دون تشيبي مونتيل الذي عمل محاسباً لديه سنوات طويلة.

قال: «إنّها هناك».

قال الحلاق كما لو كان يحدّث نفسه: «يواصل المرء قتل نفسه كداً وها هي هناك وحيدة مع قطعة أرض لا يمكنك أن تعبرها ممتطياً صهوة جواد في خمسة أيام، من المحقق أنها تمتلك عشر مدن».

ـ ثلاث.

قالها كارمايكل وأضاف باقتناع: «إنها أجمل امرأة في العالم كله».

مضى الحلاق إلى النضد لينظف المشط، شاهد السيد

كارمايكل وجهه الشبيه بوجه الكبش منعكساً في صقال المرآة فأدرك مجدداً سر عدم احترامه له، تحدّث الحلاق محدقاً في الصورة.

ـ عمل بديع، يصل حزبي إلى السلطة، فتهدد الشرطة خصومي السياسيين بالقتل، وابتاع أرضهم وقطعانهم لقاء ثمن أحدده بنفسي.

أحنى السيد كارمايكل رأسه فأكب الحلاق على قص شعره مجدداً، واختتم خواطره قائلاً: «حينما تنتهي الانتخابات أكون قد امتلكت ثلاث مدن، لا منافسة أمامي، وعلى امتداد الطريق أفلحت في أن تكون لي اليد العليا حتى إذا تغيّرت الحكومة، كل ما بوسعي قوله إن ذلك أفضل عمل ممكن، إنه خير حتى من المضاربة».

قال السيد كارمايكل: «كان جوزيه مونتيل ثرياً قبل وقت طويل من بدء الاضطرابات السياسية».

قال الحلاق: «كان جالساً في سراويله الداخلية إلى جوار مخزن أرز وضيع، وتقول الحكاية إنه انتعل حذاءه الأول حين كان في التاسعة من عمره».

أقرّ السيد كارمايكل بصحة الأمر قائلاً: «وحتى إذا كان هذا صحيحاً فليس للأرملة علاقة بعمل مونتيل».

قال الحلاق: «لكنها لعبت دور الدمية».

رفع السيد كارمايكل رأسه، أرخى المنشفة حول عنقه ليوسع

مجالاً لدورته الدموية، قال محتجاً: «ذلك هو السبب في أنني كنت أوثر دائماً أن تقص زوجتي شعري، فهي لا تتقاضاني شيئاً فضلاً عن أنها لا تتحدث في السياسة» مدَّ الحلاق رأسه إلى الأمام وواصل العمل في صمت، وفي بعض الأحيان كان يطرقع بمقصه في الهواء مبدياً براعته، سمع السيد كارمايكل صيحات تتناهى من الشارع، حدّق في المرآة: مرَّ جمع من النسوة والأطفال قرب الباب يحمل الأثاث وأدوات المطبخ من الدور التي كان يجري نقلها، عقب في ضغينة قائلاً:

ـ النكبة تنهش فينا، وأنتم أيُّها الناس لا تزالون تحملون أحقادكم السياسية، انتهى الاضطهاد منذ عام وما زالوا يتحدثون عن الأمر ذاته.

قال الحلاق: «إن حالة التخلي التي نعيشها هي اضطهاد أيضاً».

نفد صبر كارمايكل فقال: «هذا كلام جرائد».

التزم الحلاق الصمت، أعد بعضاً من رغوة الصابون في وعاء خاص ومرّر فرشاة مثقلة بها على قفا السيد مايكل قائلاً: «الأمر لا يعدو أن المرء ينفجر بالحديث». ثم اعتذر مضيفاً: «لا يتاح لنا كل يوم أن تقابل رجلاً محايداً».

قال السيد كارمايكل: «ليس هناك رجل يمكنه مقاومة الحياد وفي عنقه أحد عشر طفلاً يتعين عليه إطعامهم».

قال الحلاق: «أوافقك».

حد الموسى على راحة يده، اجتث شعر القفا في صمت مزيلاً الصابون بأصابعه ومنظفاً هذه الأخيرة في سراويله، أخيراً حك قطعة من الشب بالقفا وانتهى من الحلاقة في صمت.

فيما كان السيد كارمايكل يزر ياقته رأى لافتة معلقة على الحائط وقد ثبتت بالمسامير وكتب عليها: «الكلام في السياسة ممنوع» نفض بقايا الشعر من فوق كتفيه، علّق مظلته بذراعه، وتساءل مشيراً إلى البطاقة.

- لِمَ لا تنزلها؟

قال الحلاق: «إنها لا تنطبق عليك، وقد اتفقنا بالفعل على أنك رجل محايد».

لم يتردد السيد كارمايكل هذه المرة في القفز إلى الممشى، راقبه الحلاق حتى المنعطف، فازداد انفعاله عندئذ إزاء النهر الغاضب والمفعم بالوعيد، كان المطر قد توقف لكن سحابة ثقيلة تدلت دونما حراك فوق البلدة، قبل الساعة الواحدة بوقت قصير دلف موسى السوري إلى الداخل ناعياً تساقط شعر رأسه ونموه مع ذلك على قفاه بسرعة غير عادية.

كان السوري يقص شعره كل يوم من أيام الاثنين، وكان يحني رأسه عادة بضرب من النزعة الجبرية ويمزج غطيطه بأحاديث عربية فيما يحادث الحلاق نفسه بصوت عال، غير أنه في يوم الاثنين ذاك استيقظ مجفلاً عند صدور السؤال الأول:

- أتعلم مَن كان هنا منذ لحظة؟

قال السوري: «كارمايكل».

أكّد الحلاق كما لو كان يقوم بهجاء الجملة: «كارمايكل الأسود العجوز العفن، إني أمقت هذا النوع من الرجال».

هذب السوري لحيته على خده ليعاود الغطيط مجدداً لكن الحلاق غرس نفسه أمامه بذراعين معقودين على صدره قائلاً: «حدّثني بأمر واحد أيُّها التركي: إلى أي جانب تقف في نهاية الأمر؟» فردَّ السوري دون ارتباك:

- إلى جانب نفسي.

قال الحلاق: «أنت مخطىء، ينبغي على الأقل أن تذكر الضلوع الأربعة التي حطموها لابن إلياس مواطنك بأوامر من دون تشيي مونتيل».

قال السوري: «إلياس يشعر بضيق بالغ إذ اتضح أن ابنه سياسي، لكن الفتى يمضي الآن وقتاً بديعاً في الرقص بالبرازيل وتشيي مونتيل بين الهالكين».

قبل أن يغادر العمدة الغرفة التي سادتها الفوضى من جراء ليالي معاناته الطويلة قام بحلاقة الجانب الأيمن من لحيته تاركاً الجانب الأيسر باللحية التي نمت منذ أسبوع، ثم ارتدى حلة رسمية نظيفة وانتعل حذاء الركوب الجلدي الطويل، ومضى ليتناول طعامه في الفندق منتهزاً فرصة توقف المطر لفترة قصيرة.

كانت غرفة الطعام خاوية، فشق العمدة طريقه بين الموائد الصغيرة المعدة لأربعة أشخاص واحتل أكثر بقاع الغرفة انزواء.

رفع عقيرته منادياً: «أنتم أيها المختفون!».

لبّت نداءه فتاة صغيرة للغاية ترتدي ثوباً ضيقاً ذات ثديين كالحجارة، طلب العمدة الغذاء دون أن ينظر إليها، عمدت الفتاة وهي في طريقها عائدة للمطبخ إلى تشغيل المذياع الموضوع على رف في نهاية الغرفة، فانسابت نشرة إخبارية حافلة بمقتطفات من خطاب ألقاه رئيس الجمهورية الليلة الماضية ثم قائمة بالسلع المحظور استيرادها، تفاقم الحر فيما الصوت يملأ الفراغ، حينما عادت الفتاة بالحساء كان العمدة يحاول كبح جماح الحر بجلب الهواء بقبعته.

قالت الفتاة: «المذياع يجعلني أتصبب عرقاً أيضاً».

شرع العمدة في تناول الحساء، كان يعتقد دائماً أن ذلك الفندق المنعزل الذي يرتاده الباعة المتجولون العابرون مكان مختلف عن باقي المدينة، وكان الفندق بالفعل أقدم عهداً من البلدة، ففي شرفته الخشبية المتداعية كان التجار الذين كانوا يقبلون من داخل البلاد لابتياع محصول الأرز قد اعتادوا أن يقضوا الليل في لعب الورق وانتظار برد الفجر ليتمكنوا من الرقاد، بل إن العقيد أوريليانو بويندِيا نفسه قد رقد في تلك الشرفة ذات ليلة في وقت لم تكن هناك مدن في مدى فراسخ عديدة فيما كان في طريقه إلى ماكوندو لوضع شروط الاستسلام في الحرب الأهلية الأخيرة، كان البناء هو ذاته القائم في حينها بالجدران الخشبية والسقف القصديري وغرفة الطعام ذاتها والفواصل الورقية عينها إلاّ أنه لم تكن هناك كهرباء أو تصريف ماء صحي، وقد حكى بائع متجول عجوز أنه حتى نهاية القرن

كانت هناك مجموعة من الأقنعة تتدلى على جدران غرفة الطعام تحت تصرف العملاء وأن النزلاء المقنعين كانوا يقضون حاجتهم في الفناء علناً وأمام الجميع.

اضطر العمدة إلى فك زر ياقته لينهي تناول حسائه، وعقب انتهاء نشرة الأخبار تناهت إعلانات تجارية مغناة ثم أنغام راقصة إسبانية عاطفية، كان هناك رجل مضمخ الصوت بالنعناع يوشك أن يموت عشقاً وقد قرّر أن يجوب العالم سعياً وراء امرأة، راح العمدة يرقب الغرفة فيما هو ينتظر باقي وجبته، شاهد طفلين يحملان مقعداً ومقعداً هزازاً أمام الفندق، وخلفهما أقبلت امرأتان ورجل يحملون الأوعية والأحواض وباقي الأثاث.

مضى إلى الباب صائحاً: من أين سرقتم هذا الأثاث؟ توقفت المرأتان وأوضح الرجل أنهم ينقلون دارهم إلى أرض أكثر ارتفاعاً، فتساءل العمدة عن المكان الذي يحملون إليه متاعهم، أشار الرجل إلى الجنوب بقبعته:

ـ هناك، إلى بقعة من الأرض أجّرها لنا دون ساباس لقاء ثلاثين بيزو.

فحص العمدة الأثاث: مقعد هزاز متهالك المفاصل، أوعية محطمة، حاجيات الفقراء المألوفة، تأمل الأمر للحظة وأخيراً قال:

ـ احملوا هذه الدور وكل متاعكم إلى الأرض الخالية بجوار المقبرة.

لاحت الحيرة على محيا الرجل.

قال العمدة: إنها أرض تابعة للبلدة ولن تكلفكم شيئاً، حكومة البلدة تمنحها لكم.

ثم أضاف ملتفتاً إلى النسوة: وقولوا لدون ساباس إنني أبعث إليه برسالة قوامها أن عليه ألا يكون قاطع طريق.

أنهى غذاءه دون أن يمس الطعام، أشعل سيجارة، أشعل أخرى بعقب الأولى وغرق طويلاً في أفكاره مسنداً كوعيه إلى المنضدة فيما المذياع يبث أنغام رقصات إسبانية مرحة.

سألته الفتاة وهي تحمل الأطباق: «فيمَ تفكر؟»

لم تطرف عينا العمدة.

ـ هؤلاء الناس الفقراء.

وضع قبعته على رأسه وعبر الغرفة، التفت خلفه عند الباب وقال: «علينا أن نجعل هذه البلدة أفضل الأسوأ».

حال عراك دام بين زمرة من الكلاب دون عبوره فيما هو ينعطف جانباً، رأى عقدة من الظهور والأرجل تلف في دوامة من النباح ثم أنياباً بادية وكلباً يجر إحدى قوائمه وذيله مدلى بين قائمتيه الخلفيتين، تنحى العمدة جانباً ومضى عبر الممشى نحو ثكنات الشرطة.

كانت امرأة تصيح في الحجز فيما كان الحارس غارقاً في قيلولته وقد تمدّد ووجهه على الفراش، انتفض واقفاً عند مرور العمدة.

سأل العمدة: «مَن هذه؟»

وقف الحارس في وضع الانتباه.

ـ إنها المرأة التي كانت تعلق نشرات الفضائح.

اندفع العمدة يسب مساعديه، كان يريد أن يعرف مَن الذي أحضر المرأة إلى هناك وبأوامر مَنْ أودعوها الحجز، فأولى رجال الشرطة بإيضاح مسهب.

ـ متى وضعتموها في الحجز؟

كانوا قد سجنوها مساء السبت.

صاح العمدة: «لتخرج وليدخل أحدكم مكانها، هذه المرأة كانت راقدة في الحجز واستيقظت البلدة كلها غارقة تحت ركام أوراق النشرات».

ما إن فتح الباب الحديدي الثقيل حتى اندفعت امرأة ناضجة ناتئة العظام لفت شعرها في شكل كعكة خلف قفاها وثبتتها في مكانها بمشط صائحة وهي تخرج من الزنزانة.

قالت للعمدة: «بوسعك أن تمضي إلى الجحيم».

فكّت شعرها هزّت جدائلها الطويلة الغزيرة عدة مرات وهبطت بالدرج كمَن تفر مذعورة وهي تصرخ: «عاهرة، عاهرة»، انحنى العمدة مطلاً على السياج وصاح بكل ما يملك من قوة كأنما كان يقصد أن تسمعه المدينة بأسرها لا المرأة ورجاله وحدهم.

ـ كفاك احتيالاً عليّ بهذه الأوراق اللعينة.

رغم استمرار الرذاذ خرج الأب أنجيل للقيام بنزهة الأصيل، كان الوقت لا يزال مبكراً بالنسبة لموعده مع العمدة، ومن ثم يمم شطر الجانب الذي أغرقه النهر من البلدة، كان كل ما وجده هو جثة قطة طافية وسط الزهور.

خلال عودته شرع الجفاف يهيمن على الأصيل، تفاقم الحر وتألق الضوء، كان زورق مغطى بورق مقطرن يدنو في النهر الغليظ الساكن بلا حراك، أقبل طفل مندفعاً من دار نصف منهارة صائحاً بأنه وجد البحر داخل قوقعة، وضع الأب أنجيل القوقعة قريباً من أذنه وقال بأن البحر حقاً هناك.

اقتعدت زوجة القاضي أركاديو عتبة دارهما وكأنها تعيش لحظة حالمة، كان ذراعاها معقودين حول بطنها، كانت الحوانيت تترامى بعد ثلاث دور بواجهاتها الحافلة بالحلي الرخيصة والسوريين الجامدين القابعين في مداخلها، كان الأصيل يحتضر غارقاً في سحب حمراء وردية وسط ضجيج الببغاوات والقردة على الشاطىء المقابل.

بدأت الدور تفتح أبوابها، تجمع الرجال ليتبادلوا الحديث تحت أشجار اللوز المتسخة في الميدان وحول عربات المرطبات أو فوق المقاعد الجرانيتية وسط أحواض الزهور، كان الأب أنجيل يعتقد أن البلدة تتعرض في هذه اللحظة من كل أصيل لمعجزة تبديل مظهرها على نحو عجائبي.

- أبت، هل تتذكر أسرى معسكرات التعذيب؟

لم يرَ الأب أنجيل دكتور جيرالدو لكنه تصوره مبتسماً خلف

النافذة المسدلة الستار، وبصراحة بالغة لم يكن يتذكر الأشكال لكنه كان على يقين من أنه رآهم في وقت أو آخر.

قال الطبيب: «إمض إلى غرفة الانتظار!»

نحى الأب أنجيل الستار المسدل على الباب، تمدّد على حشية طفل لا تشي ملامحه بجنسه، لم يكن إلا عظاماً يكسوها جلد أصفر، كان في الانتظار رجلان وامرأة وقد جلسوا إلى جوار الحائط الفاصل، لم يشم القس رائحة كريهة لكنه اعتقد أن ذلك المخلوق كان بالتأكيد يبعث رائحة كريهة قوية.

تساءل: «مَن هذا؟»

أجابت المرأة: «ولدي» وأضافت كما لو كانت تلتمس لنفسها عذراً: طوال عامين كان يفرز قليلاً من الدم من مؤخرته.

تحوّل المريض بعينيه إلى الباب دون أن يحرك رأسه، أحسَّ القس بإشفاق رهيب يجتاحه.

تساءل: «وماذا صنعت له؟»

قالت المرأة: «كنا نعطيه الموز الأخضر لوقت طويل لكنه لم يكن يريد تناوله على الرغم من أنه طيب ومقو».

قال القس: «عليك بإحضاره للاعتراف!»

لكنه قالها دون اقتناع، أحكم إغلاق الباب، حكَّ ستار النافذة بأظفره مقرباً وجهه ليرى الطبيب في الداخل، كان الدكتور جيرالدو يسحق شيئاً في هاون.

سأل القس: «ما علته؟»

ردَّ الطبيب: «لم أفحصه بعد» وعقب مفكراً: «ثمة أمور تقع للناس بارادة الله يا أبت!»

لم يرد الأب على هذا التعليق.

قال: «لم يبد أي من الهالكين الذين رأيتهم في حياتي أكثر مواتاً من هذا الصبي المسكين».

غادر الطبيب، لم تكن هناك سفن بالمرفأ، بدأ الظلام يخيم أدرك الأب أنجيل أن حالته الذهنية قد تغيّرت مع مرأى الصبي المريض، هرع متجهاً إلى ثكنات الشرطة وقد لاحظ أنه تأخر عن موعده.

كان العمدة متهالكاً في مقعد وثير وقد وضع رأسه بين يديه.

قال القس متمهلاً: «عم مساء».

رفع العمدة رأسه، فأخذت الرعدة القس لمرأى العينين اللتين احمرتا يأساً، كان أحد جانبي لحيته رطباً حديث الحلاقة فيما كان الجانب الآخر خليطاً مستنقعياً من المرهم والشعر في لون الرماد، صاح في أنين كئيب:

ـ أبت، سأطلق النار على نفسي.

شعر الأب أنجيل بالفزع يتنابه داهماً.

قال: «إن وعيك يختل لكثرة ما تناولته من المسكنات».

جرَّ العمدة قدميه حتى الحائط وقبض على رأسه بيديه ثم لطم الألواح الخشبية برأسه في عنف، لم ير القس قط مثل هذا الألم.

قال مقترحاً عن قصد العلاج المناسب لاضطرابه هو: «تناول قرصين إضافيين، قرصين زيادة لن يصرعاك».

لم يكن ذلك صحيحاً فحسب، لكنه كان كذلك يدرك تمام الإدراك أنه كان يواجه بارتباك ألماً إنسانياً، يبحث عن الأقراص المسكنة في الفراغ العادي للغرفة، في مواجهة الجدران، كانت هناك ستة مقاعد جلدية مرتفعة، وصندوق زجاجي متخم بالأوراق المتربة وصورة لرئيس الجمهورية تتدلى من مسمار، كان الأثر الوحيد للمسكنات هو الأغلفة الورقية الشفافة المتناثرة على الأرض.

قال يائساً: «أين هي؟»

قال العمدة: «لم يعد لها تأثير بالنسبة لي».

اتجه الخوري نحوه مكرراً: «أخبرني أين هي؟»

انتفض العمدة انتفاضة قوية، فرأى الأب أنجيل سحنة هائلة مفزعة على بعد بوصات قلائل من مقلتيه.

صاح العمدة: «اللعنة، قلت لك إنها لم تعد تجديني نفعاً».

رفع مقعداً عالياً بكل القوة المستمدة من يأسه وطوح به إلى الصندوق الزجاجي، فلم يدرك الأب أنجيل ما وقع إلا بعد التناثر الفوري للزجاج حينما شرع العمدة في النهوض مثل شبح جليل

وسط سحابة الغبار، وفي هذه اللحظة ساد صمت مطبق.

غمغم القس: «أيها الملازم!»

عند الباب المؤدي إلى الحجز وقف رجال الشرطة وقد صوبوا بنادقهم، نظر إليهم العمدة دون أن يراهم متنفساً مثل هرة فخفضوا بنادقهم لكنهم ظلوا جامدين بلا حراك إلى جوار الباب، قاد الأب أنجيل العمدة من يده إلى المقعد الوثير.

قال مصراً: «أين الأقراص المسكنة؟»

أغمض العمدة عينيه وتراجع برأسه إلى الخلف، وقال: «لن أتناول المزيد من ذلك السقط، فأذناي تطنان وعظام جمجمتي توشك على التهالك رغبة في النوم» وخلال فترة انقطاع قصيرة في الألم التفت إلى القس وسأله:

- هل حادثت طبيب الأسنان؟

أومأ القس بالايجاب صامتاً ومن التعبير الذي أعقب تلك الإجابة علم العمدة بنتائج المقابلة.

اقترح القس: «لِمَ لا تحادث دكتور جيرالدو، هناك أطباء يخلعون الأسنان».

تمهل العمدة في الرد، قال: «محتمل أنه سيقول بأنه ليس لديه ما ينزعها به» ثم أضاف:

- إنها مؤامرة!

انتهز فرصة انقطاع الألم ليستريح من عناء ذلك الأصيل

العصي الاحتمال، حينما فتح عينيه ألفى الغرفة غارقة في الظلال، فقال دون أن يرى الأب أنجيل:

- جئت تحادثني عن سيزار مونتيرو.

لم يسمع رداً، فواصل حديثه: «مع وجود هذا الألم لم أستطع أن أصنع شيئاً» نهض ليشعل الضوء فأقبلت الموجة الأولى من البعوض عبر الشرفة، دهش الأب أنجيل لتأخر الوقت.

قال: «الوقت يمضي سريعاً».

قال العمدة: «على أي حال ينبغي إرساله يوم الأربعاء، عليك غداً بإعداد ما ينبغي إعداده ودعه يعترف بعد الظهر»

- أي ساعة؟

- الرابعة.

- حتى وإن كان المطر يهطل؟

في نظرة واحدة أفصح العمدة عن نفاد الصبر الذي قدمه طوال أسبوعين من المعاناة.

- حتى ولو كان العالم يوشك على أن يبلغ نهايته يا أبت!

أصبح الألم حصيناً في مواجهة المسكنات، فعلّق العمدة أرجوحته على شرفة غرفته محاولاً الإغفاء في برودة صدر المساء، لكنه هوى عند الساعة الثامنة في هاوية اليأس مرة أخرى وهبط إلى الميدان الذي كان يغط في سبات تحت وطأة موجة الحر.

بعد الطواف حول المنطقة دون العثور على مصدر الإلهام الذي يحتاجه للسمو فوق الألم مضى إلى دار السينما، وكانت تلك غلطة، فقد زاد أزيز الطائرات العسكرية من تفاقم الألم، غادر دار السينما قبل الاستراحة وبلغ الصيدلية فيما كان دون لالو موسكوته يتأهب لإغلاق الأبواب.

ـ أعطني أقوى ما عندك لتهدئة ألم الأسنان.

فحص الصيدلي الخد المتورم بنظرة مذهولة، ثم مضى إلى خلفية الصيدلية باتجاه صف مزدوج من الصناديق ذوات الأبواب الزجاجية التي كانت متخمة بالقوارير الخزفية التي يحمل كل منها اسم منتج خاص بحروف زرقاء، أدرك العمدة حينما نظر إليه من الخلف أن ذلك الرجل اللاحم ذي العنق الأحمر الوردي ربما يعايش لحظة من السعادة، كان يعرفه، فهو يقطن في غرفتين خلف الصيدلية وكانت زوجته وهي امرأة مفرطة البدانة قد أصيبت بالشلل منذ عامين.

عاد دون لالو موسكوته إلى النضد بقارورة لا تحمل بطاقة اسم ضاعت عند فتحها بالعبق الطيب للأعشاب الطبية.

ـ ما هذا؟

دس الصيدلي أصابعه في البذور المجففة بالقارورة وقال: «قرة عين الفلفل، امضغها جيداً ثم ابتلع العصير على مهل، ليس هناك ما هو أفضل منها للروماتزم». ألقى بعدة حبات في راحة يده وقال ناظراً إلى العمدة من خلال عويناته:

ـ افتح فمك!

تراجع العمدة، أدار القارورة ليتأكد أنه لم يكتب عليها شيء ثم ارتد بنظرته إلى الصيدلي.

قال: «أعطني شيئاً أجنبياً!»

قال دون لالو موسكوته: «هذا أفضل من أي شيء أجنبي، تضمنه ثلاثة آلاف عام من الطب الشعبي».

شرع في لف البذور في قطعة من ورق الجرائد، لم يبد عليه أنه رب عائلة، وإنما لاح مثل عمة لطيفة وهو يلف عين قرة الفلفل بالعناية الودود التي يبديها المرء في صنع طيور ورقية صغيرة للأطفال، حينما رفع رأسه كان قد شرع في الابتسام.

ـ لِمَ لا تنزعه؟

لم يحر العمدة جواباً، نقده ورقة مالية وغادر الصيدلية دون انتظار باقي الحساب المستحق له.

حينما تجاوز الليل منتصفه كان لا يزال يتقلب مسهداً في أرجوحته دون أن تواتيه الجرأة على مضغ البذور، وفي حوالى الحادية عشرة حينما بلغ الحر سمته انهالت شآبيب المطر ثم استحالت رذاذاً خفيفاً، شرع العمدة في ترتيل صلاة صامتة وقد أضنته الحمى وأخذته الرعدة فأغرقته في عرق ثلجي غليظ ودسّ وجهه في الأرجوحة فاتحاً فمه، راح يصلي بعمق وقد توترت عضلاته في النوبة الأخيرة، لكنه كان يدرك أنه كلما جالد ليحقق التواصل مع الله ازدادت قوة الألم التي تدفعه في الاتجاه المضاد، ثم انتعل حذاءه وارتدى معطفه فوق منامته ومضى إلى ثكنات الشرطة.

انفجر صائحاً وقد غرق في متاهة من الواقع والكابوس، تعثّر رجال الشرطة في الممشى باحثين عن أسلحتهم في الظلمة، حينما أوقدت الأضواء كانوا قد ارتدوا نصف ملابسهم وجمدوا في انتظار الأوامر.

صاح العمدة: جونزاليز، روڤيرا، بيرالتا!

انفصل الثلاثة الذين تردّدت أسماؤهم عن المجموعة والتفوا حول الملازم، لم يكن هناك سبب جلي يبرر هذا الاختيار، فقد كانوا ثلاثة جنود عاديين لم تكتمل خبرتهم، كان أحدهم وله ملامح طفولية حليق الرأس مرتدياً قميصاً قطنياً داخلياً، كان الآخران يرتديان القميص عينه تحت ستراتهم التي لم تغلق أزرارها.

لم يتلقوا أوامر محددة، تناهبوا السلم قفزاً، كل أربع درجات في قفزة واحدة خلف العمدة، غادروا الثكنات في تشكيل طابور هندي، عبروا الشارع دون اكتراث بالرذاذ المتساقط وتوقفوا أمام عيادة طبيب الأسنان، بلطمتين من كعوب البنادق حطموا الباب سريعاً، كانوا قد دخلوا الدار بالفعل حينما أضيئت الأنوار في البهو، عند الباب الخلفي ظهر رجل ربعة أصلع تبدو العروق نافرة من خلال جلده وقد ارتدى سراويل قصيرة وهو يحاول ارتداء ثوب الحمام، في اللحظة الأولى ظلّ بلا حراك وقد ارتفعت إحدى يديه وفغر فاه كما لو كان في لحظة التقاط صورة، ثم قفز متراجعاً وصاح بزوجته مرتطماً بها أن تتراجع فيما كانت قد أقبلت من المخدع في منامتها.

صرخ الملازم: «لا تتحرك!»

قالت المرأة: «أوه!» وقد وضعت يدها على فمها وارتدت إلى المخدع، مضى طبيب الأسنان إلى البهو محكماً ربط حزام رداء الحمام، وعندئذ فحسب تبيّن رجال الشرطة الثلاثة الذين كانوا يشهرون بنادقهم نحوه والعمدة الذي كانت قطرات المطر تنساب من فوق جسمه كله التزم الهدوء واضعاً يديه في جيبي معطفه الواقي من المطر.

قال الملازم: «إذا غادرت السيدة حجرتها فإن لديهم أوامر بإطلاق النار عليها».

أمسك طبيب الأسنان بمقبض الباب موجهاً حديثه إلى داخل المخدع: «ها قد سمعت يا فتاتي» وأحكم إغلاق باب المخدع، ثم مضى إلى غرفة العيادة وقد رصدته عبر الأثاث الشاحب المصنوع من الخيزران فوهات البنادق المعتمة، سبقه شرطيان إلى باب العيادة، أضاء أحدهما النور، مضى الآخر إلى منضدة العمل مباشرة والتقط مسدساً من الدرج.

قال العمدة: «لا بد أن هناك مسدساً آخر».

ولج الغرفة أخيراً خلف طبيب الأسنان، أجرى الشرطيان تفتيشاً سريعاً ودقيقاً فيما كان الثالث يحرس الباب، وضعا صندوق الأدوات على منضدة العمل، نثروا لفات الأربطة والأسنان الصناعية التي لم ينته العمل بها والأسنان المخلوعة والتيجان الذهبية على الأرض أفرغوا القوارير الخزفية التي كانت بالخزانة وبطعنات سريعة من حراب البنادق بقروا الحشية

الموضوعة على كرسي خلع الأسنان والحشية الموضوعة على كرسي الطبيب.

قال العمدة مدققاً: «إنه مسدس طويل الماسورة عيار ثمانية وثلاثين ملليمتراً».

خاطبه قائلاً: «من الأفضل أن تقول صراحة أين هو، إننا لم نجيء متأهبين لتمزيق الدار إرباً»، لم تشِ عينا الطبيب الضيقتين الكئيبتين خلف عويناته بشيء.

رد على نحو متراخ: «ليس هناك ما يدعو للعجلة من جانبي، فإذا ما وددت ذلك فإن بوسعك أن تواصل تمزيق الدار شر ممزق».

فكّر العمدة قليلاً، وبعد أن فحص الغرفة الصغيرة المقامة من ألواح خشبية غير مصقولة مجدداً مضى إلى المقعد مصدراً أوامر مشددة إلى رجاله، وجّه أحدهم ليقف إلى جانب الباب المطل على الشارع والآخر عند مدخل العيادة والثالث إلى جوار النافذة، وعندما استقر به المقام في المقعد، فكّ عند ذاك فحسب أزرار معطفه المشبع بماء المطر، استاف الهواء بعمق بعد أن شعر بأن الصلب البارد يحيط به ذلك الهواء الذي نقاه الكريبوسوت وأراح جمجمته على مسند الرأس محاولاً التحكم في تنفسه، التقط طبيب الأسنان بعض الأدوات من الأرض ووضعها في وعاء لتطهيرها.

ظلّ مديراً ظهره إلى العمدة وهو يتأمل اللهب الأزرق المنبعث من المصباح الكحولي وقد ارتسم على وجهه التعبير ذاته

الذي لا بد أنه كان يعلو ملامحه حينما يخلو إلى نفسه في العيادة، حينما أخذ الماء يغلي لفّ يد الاناء بقطعة من الورق وحمله إلى المقعد، كان الشرطي يقف في طريقه، فخفض الوعاء لينظر إلى العمدة عبر البخار المتصاعد، وقال:

ـ مرْ هذا السفاح بأن يمضي إلى مكان لا يقف فيه معترضاً الطريق!

بإشارة من العمدة تنحى الشرطي عن النافذة ليتيح لطبيب الأسنان حرية الوصول إلى المقعد، جذب مقعداً إلى جوار الحائط واقتعده والبندقية بين فخذيه دون تراخ في يقظته، أوقد طبيب الأسنان المصباح، فأغمض العمدة عينيه وقد بهره الضوء وفتح فاه، كان الألم قد توقف.

حدّد الطبيب الضرس المصاب مستخدماً أصبعه السبابة لدفع الخد الملتهب وضبط المصباح المتحرك بيده الأخرى غير مكترث بالمرة لتنفس المريض القلق، ثم شمر أكمامه حتى المرفق واستعد لنزع الضرس.

قبض العمدة على معصمه.

قال: «المخدر».

التقت عيناهما للمرة الأولى.

قال طبيب الأسنان برفق: «إنكم أيُّها القوم تقتلعون دون مخدر».

لم يلاحظ العمدة جهداً في اليد التي كانت تمسك بالكلاب

لتحرير نفسها، قال: «إجلب القوارير» حرّك الشرطي المتمركز في الركن فوهة بندقيته باتجاههما وسمعا معاً صوت البندقية وهي ترفع من المقعد.

قال طبيب الأسنان: «افترض إنه ليس هناك مخدر».

أطلق العمدة الرسغ وقال متفحصاً الأشياء المبعثرة على الأرض باهتمام مفعم بالغم: «ينبغي أن يوجد» راقبه طبيب الأسنان باهتمام متعاطف ثم دفعه مجدداً نحو المسند، وقال مبدياً إمارات نفاد الصبر للمرة الأولى.

ـ لا تكن أحمق أيُّها الملازم، لا جدوى للمخدر مع خراج كهذا.

بعد قليل وإثر ما عانى العمدة أكثر لحظات حياته إثارة للفزع خفف توتر عضلاته وظلَّ في المقعد منهمكاً فيما التهاويل المعتمة التي رسمتها الرطوبة على السقف الكرتوني تغرس ذاتها في ذاكرته لتمكث هناك حتى يوم مماته، سمع طبيب الأسنان منهمكاً عند المغسل، أصغى إليه وهو يعيد ترتيب أدراج المكتب ويلتقط بعض الأشياء من الأرض.

نادى العمدة: «روفيرا أبلغ جونزاليز أن يحضر والتقطا أنتما الاثنان الأشياء من الأرض إلى أن يعود المكان كما وجدتماه!»

قام الشرطيان بذلك، التقط طبيب الأسنان قطعة من القطن وأغرقها في سائل قاتم اللون وغطى بها الفجوة، أحس العمدة باحتراق على السطح، وبعد أن أغلق الطبيب فمه واصل التحديق في السقف مصغياً إلى صوت الشرطيين وهما يحاولان أن يعيدا

من ذاكرتهما النظام الدقيق للعيادة، دقت الساعة معلنة الثانية في برج الكنيسة، كرّر كروان بعد لحظة دقات الساعة وسط صوت الرذاذ المنهمر، وإثر لحظة أشار العمدة للشرطيين اللذين عرف أنهما أنهيا عملهما بأن عليهما العودة مع زميلهما إلى الثكنات.

مكث طبيب الأسنان إلى جوار المقعد طوال الوقت، وحينما انصرف رجال الشرطة التقط قطعة القطن من اللثة، ثم فحص داخلية الفم بالمصباح معيداً الفك إلى موضعه مجدداً وأطفأ النور، انتهى كل شيء، وكل ما بقي في الغرفة الصغيرة الحارة عندئذ كان ذلك الشعور الغريب بعدم الارتياح الذي يعرفه القائمون على النظافة في المسرح بعد خروج الممثل الأخير.

قال العمدة: «أيها العاق!»

وضع طبيب الأسنان يديه في جيبي ردائه وتراجع خطوة للخلف ليفسح الطريق له للمرور، فاستطرد العمدة قائلاً وهو يبحث بعينيه عن الطبيب خلف دائرة الضوء: «كانت هناك تعليمات محددة بالعثور على أسلحة وذخائر ووثائق تضم تفاصيل مؤامرة على مستوى البلاد» ثبت عينيه اللتين لا تزال الدموع تنديهما على الطبيب وأضاف: «كنت أعتقد أن الصواب يحالفني بعصيان هذا الأمر لكني كنت مخطئاً، لقد تغيّرت الأمور الآن، حصلت المعارضة على ضمانات والجميع يعيشون في سلام ولا زلت أواصل التفكير كمتآمر» جفف الطبيب حشية المقعد بكم ردائه وأداره بالاتجاه الذي لم يتم تدميره.

استأنف العمدة حديثه مشيراً إلى الحشية دون أن يبدي

اهتماماً بالنظرة الشاردة التي كان الطبيب يرمق بها خده: «إن موقفك يلحق الضرر بالبلدة، والأمر الآن متعلق بحكومة البلدة فيما إذا كانت ستدفع لك تعويضاً عن هذه الفوضى إضافة إلى الباب المطل على الشارع، الكثير من النقود، وكل هذا بسبب عنادك».

قال الطبيب: «نظف فمك بماء الحلبة!»

الفصل الرابع

راجع القاضي أركاديو القاموس في مكتب البرق لأن قاموسه كانت تنقصه مواد عدة حروف، ازداد الأمر استغلاقاً وهو يراجع كلمة «باسكين» وهي اللفظة التي تقابل في اللغة الإسبانية نشرة الفضائح، جاء في المادة: اسم صانع أحذية في روما القديمة، عرف بهجائياته الساخرة التي كتبها ضد الجميع، ثم وردت حقائق أخرى لا أهمية لها، راح يحدّث نفسه قائلاً إنه بالمعيار ذاته فإن أي إهانة مجهولة المصدر توضع على باب دار يمكن أن تسمى كذلك «مارفوريو»، ولم تصبه خيبة الأمل تماماً، فخلال الدقيقتين اللتين أمضاهما في تلك المراجعة شعر لأول مرة منذ سنين طويلة براحة مَن أدّى واجبه.

رآه موظف البرق يعيد القاموس إلى الرف وسط أكوام التعميمات والقرارات المنسية المتعلقة بخدمات البريد والبرق، فأنهى إرسال برقية بإشارة نشطة، ثم أقبل متلاعباً بأوراق اللعب متأهباً لتكرار أحدث الحيل الذائعة: الثلاث ورقات، لكن القاضي أركاديو لم يبد اهتماماً به، وقال معتذراً: «إنني مشغول للغاية الآن»، ومضى إلى الشارع المتقد بصاحبه يقين مشوش بأن الساعة

لا تزال الحادية عشرة فحسب وأن يوم الثلاثاء لا زال يحمل له العديد من الساعات عليه أن يستغلها.

كان العمدة ينتظره في مكتبه بمشكلة أخلاقية، فكنتيجة للانتخابات الأخيرة قامت الشرطة بمصادرة واتلاف البطاقات الانتخابية للحزب المعارض، والآن لم يعد لدى أغلبية سكان البلدة أي وسيلة لإثبات هويتهم.

اختتم العمدة حديثه بذراعين مفتوحتين: أولئك الذين ينقلون دورهم لا يعرفون حتى أسماءهم.

كان بوسع القاضي أركاديو أن يدرك أن هناك انفعالاً مخلصاً يكمن وراء هاتين الذراعين المفتوحتين، لكن المشكلة التي طرحها العمدة كانت مشكلة بسيطة، فكل ما عليه القيام به هو أن يطلب تعيين مسجل مدني، ومضى السكرتير شوطاً أبعد في تبسيط الحل.

قال: كل ما تمس الحاجة إليه هو أن تبعث في طلبه، فقد عُيّن بالفعل منذ ما يزيد على عام.

تذكّر العمدة الأمر، فقبل شهور حينما أبلغوه عن تعيين مسجل مدني أجرى مكالمة تليفونية خارجية ليسأل: كيف ينبغي أن يستقبله فأجابوه: «بالرصاص»، أما الآن فالأوامر التي وصلت مختلفة، التفت نحو السكرتير وقد دسّ يديه في جيوبه، وحدّثه:

ـ اكتب الخطاب!

خلق ضجيج الآلة الطابعة مناخاً نشطاً في المكتب تردد

صداه في وعي القاضي أركاديو، ألفى نفسه خاوياً، التقط سيجارة مجعدة من جيب قميصه ولفها بين راحتي يديه قبل أن يشعلها، ثم ارتد بمقعده إلى أقصى ما تتيح له نوابضه وأفزعه في وضعه ذاك اليقين القاطع بأنه يستنفد لحظة من حياته.

لملم هذه العبارة قبل أن يقولها: «لو أني كنت في موضعك لعينت كذلك نائباً عن وزارة الأمن العام».

على عكس ما أمله لم يرد العمدة من فوره، تطلع إلى ساعته لكنه لم يلحظ الوقت، استقر على القناعة بأن الوقت لا يزال مبكراً بالنسبة لموعد الغداء، وحينما تحدّث صدر حديثه مجرداً من الحماسة لم يكن إجراء تعيين نائب أمراً مألوفاً له.

قال القاضي أركاديو مفسراً: «جرت العادة على أن يعيّن مجلس البلدة النائب، وحيث انه ليس هناك مجلس في الوقت الحاضر فإن حكومة الطوارىء تخولك أن تعيّن نائباً».

أصغى العمدة لحديثه فيما كان يوقع الخطاب دون أن يقرأه، ثم أولى بتعقيب حماسي، لكن السكرتير كانت لديه ملاحظة ذات طبيعة أخلاقية يود طرحها حول الإجراء الذي أوصى به رئيسه، ومصراً قال القاضي أركاديو: «إنه إجراء من إجراءات الطوارىء يتخذ في ظل نظام طوارىء».

قال العمدة: «يروقني سماع ذلك».

انتزع قبعته ليجلب الهواء بها ولاحظ أركاديو الأثر الدائري الذي خلفته على جبينه، ومن الطريقة التي كان يجلب بها الهواء

أدرك أن العمدة لم ينته من تفكيره، نفض رماد سيجارته بطرف خنصره الطويل المهذب الحوافي وانتظر.

تساءل العمدة: «هل يمكنك التفكير في مرشح لمنصب النائب؟»

كان من الواضح أنه يخاطب السكرتير.

كرّر العمدة مغمضاً عينيه: «مرشح!»

قال السكرتير: «لو كنت في مكانك لعيّنت رجلاً شريفاً».

التقط القاضي طرف هذه الملاحظة غير المرتبطة بالموضوع وقال: هذا أكثر من واضح، ومضى يراوح في النظر بين الرجلين.

قال العمدة: «مثلاً».

قال القاضي مكرّراً: «ليس بوسعي أن أفكّر في أحد الآن».

مضى العمدة إلى الباب، وقال: «فكّر في الأمر، وحينما نخرج من مشكلة الفيضانات سنعالج مشكلة النائب» جلس السكرتير إلى آلة الطابعة حتى لم يعد يسمع صوت عقبي العمدة.

عندئذ قال: «إنه معتوه، منذ عام ونصف حطموا رأس النائب بأعقاب البنادق والآن يبحث عن مرشح يقدّم له هذه الوظيفة».

انتفض القاضي أركاديو واقفاً على قدميه.

قال: «لا أريد أن تفسد عليّ غذائي بقصص رعبك».

انطلق خارجاً من المكتب، كان ثمة نذير يوحي بالشؤم في

مناخ الظهيرة، وقد لاحظه السكرتير بحساسيته إزاء الخرافات، وحينما أغلق القفل شعر بأنه يأتي عملاً محرماً، فلاذ بالهرب، وعند باب مكتب البرقيات لحق القاضي أركاديو الذي كان حريصاً على تبيّن ما إذا كانت حيلة أوراق اللعب قابلة للتطبيق في لعبة البوكر، رفض موظف البرق أن يكشف السر واقتصر على تكرار الحيلة مرات عديدة ليدع للقاضي أركاديو فرصة اكتشاف مفتاح الحيلة، لاحظ السكرتير كذلك المناورة وأخيراً استنتج أن القاضي أركاديو من ناحية أخرى لم يكن ينظر إلى الورقات الثلاث، كان يعرف أنها هي الورقات ذاتها التي التقطها بصورة عشوائية وأن موظف البرقيات كان يعيدها إليه دون أن يراها.

قال موظف البرق: «إنها مسألة سحر».

لم يكن القاضي أركاديو حينذاك يفكّر إلاّ في مهمة عبور الشارع، وحينما قرّر السير أمسك بذراع السكرتير وأجبره على الغوص معه في الجو المشابه للزجاج المنصهر، فاندفعا نحو الممشى الظليل، عند ذلك أوضح السكرتير مفتاح حيلة ورق اللعب، وكان بسيطاً إلى حد شعر معه القاضي أركاديو بالضيق.

سارا صامتين لبعض الوقت.

فجأة قال القاضي بسخيمة لا يبدو لها مبرر: «بالطبع لم تدقق في بحث المعلومات».

تردّد السكرتير للحظة منقباً عن معنى هذه العبارة.

أخيراً قال: «إنه أمر شاق، فقد مزّقت نشرات الفضائح في معظمها قبل الفجر».

قال القاضي أركاديو: «تلك حيلة أخرى لا أفهمها، ما كنت لأترك أبداً نشرة فضائح لا يطالعها أحد تقض مضجعي».

قال السكرتير متوقفاً حيث بلغ داره: «هذا بالضبط ما حدث، فليست نشرات الفضائح هي التي تقض مضجعهم وإنما الخوف منها».

كان القاضي يرغب في معرفة المعلومات التي جمعها السكرتير رغم عدم اكتمالها، فراح هذا الأخير يعدد الحالات ذاكراً الأسماء والتواريخ، إحدى عشرة حالة خلال أسبوع، لم يكن هناك رابط بين الأسماء الأحد عشر، وقد أجمع مَن رأوا نشرات الفضائح على أنها كتبت بالفرشاة بحبر أزرق بحروف طباعية تختلط فيها الكبيرة بالصغيرة كما لو كان كاتبها صبياً، وكان التهجي مضطرباً إلى حد أن الأخطاء بدت كما لو كانت مقصودة، ولم تكشف النشرات عما يعد سراً، فلم يرد بها شيء لم يكن موضع تداول سواد الناس منذ وقت طويل، كان قد حدس كل ما يحتمل حينما ناداه موسى السوري من حانوته.

ـ هل لديك بيزو؟

لم يفهم القاضي أركاديو ما يقصده لكنه راح ينقب في جيوبه، فوجد خمسة وعشرين سنتافو وعملة أمريكية كان يحتفظ بها لتجلب له الحظ الحسن منذ كان طالباً في الجامعة، تناول موسى السوري الخمسة وعشرين سنتافو.

قال: «خذ ما تشاء وادفع لي قيمته حينما تريد، فلست أريد أن تدوي في أذني دقات الساعة الثانية عشرة دون أن «أستفتح»

وجعل النقود المعدنية تصلصل في درج النقود الخاوي.

هكذا فإنه حينما دقّت الساعة معلنة الثانية عشرة ولج القاضي أركاديو داره مثقلاً بالهدايا لزوجته، اقتعد الفراش ليخلع حذاءه فيما كانت زوجته تلف حول جسمها شقّة من الحرير المطبوع، راحت تتخيل مظهرها في الثوب الجديد بعد الولادة، منحت زوجها قبلة على أنفه، حاول أن يتجنبها لكنها سقطت فوقه على الفراش، لبث دونما حراك، جرى القاضي أركاديو بيده على ظهرها متلمساً دفء البطن المتنم حتى وهو يستشعر وجيب كليتيها.

رفعت رأسها مغمغمة من بين أسنانها المطبقة:

ـ انتظر، سأغلق الباب.

ظلّ العمدة منتظراً إلى أن شيّدت الدار الأخيرة، في أربع وعشرين ساعة أقاموا شارعاً كاملاً متسعاً وخاوياً ينتهي فجأة عند سور المقبرة، وبعد أن ساعد العمدة في وضع الأثاث في مكانه مشتعلاً كتفاً إلى كتف مع أصحاب الدور راح يهندم ثيابه وولج أقرب مطبخ، كان الحساء يغلي فوق فرن مقام على عجل باستخدام الأحجار، رفع الغطاء عن الوعاء الفخاري واستنشق العرف المتصاعد للخطة، عبر الفرن راحت امرأة ناحلة ذات عينين نجلاوين مسالمتين تراقبه صامتة.

قال العمدة: «حان وقت الغداء».

لم ترد المرأة، فغرف العمدة دون أن توجه له دعوة طبقاً من الحساء لنفسه، وعندئذ مضت المرأة إلى غرفة النوم لتجلب

مقعداً، وضعته إلى جوار المائدة ليجلس عليه العمدة، وفيما كان يتناول حساءه مضى يفحص الفناء برهبة يمازجها الإجلال، بالأمس كانت هذه الأرض بقعة جرداء خاوية، أما الآن فقد كانت هناك ملابس منشورة لتجف وخنزيران يدسان خطميهما في الوحل.

قال: «بوسعكم أن تزرعوا بعض الخضر».

ردت المرأة دون أن ترفع رأسها: «ستلتهمها الخنازير» عندئذ وضعت في الطبق نفسه قطعة من اللحم المسلوق وشريحتين من المنيهوت ونصف لسان حمل وحملته إلى المائدة، وأضافت إلى هذا الكرم بوضوح كل ما بمقدورها إظهاره من عدم اكتراث، حاول العمدة مبتسماً أن يجعل عينيه تلتقي بعيني المرأة.

قال: «يبدو أنه هناك ما يكفي الجميع».

قالت المرأة دون أن تنظر إليه: «لعل الرب يسلط عليك عسر الهضم!»

لم يرد على هذه الأمنية الشريرة وتصدى كلية لطعام غدائه غير عابىء بسيل العرق المنهمر من رقبته، وحينما فرغ حملت المرأة الطبق الخاوي دون أن تنظر إليه أيضاً.

تساءل العمدة: «إلامَ تمضون أيها القوم في التصرف على هذا النحو؟»

تحدّثت المرأة دون تغيير لتعبيرها الفاتر.

- إلى أن تعيدوا أيها القوم الموتى الذين صرعتموهم إلى الحياة.

راح العمدة يفسّر الأمر: «الحال مختلف الآن، فالحكومة الجديدة تهتم بأحوال مواطنيها، وأنتم أيها الناس من ناحية أخرى...»

قاطعته المرأة.

- أنتم لم تتغيروا بـ...

قال العمدة مصراً: «ضاحية كهذه شيّدت خلال أربع وعشرين ساعة أمر لم تروه من قبل إننا نحاول إقامة صرح مدينة طيبة».

لملمت المرأة الملابس المغسولة من فوق الحبل وحملتها إلى غرفة النوم، رمقها العمدة متابعاً حتى سمع الرد.

- كانت تلك مدينة طيبة قبل قدومكم.

لم ينتظر تناول القهوة، قال: «أيتها العاقة، إننا نمنحكم الأرض وأنتم تواصلون التذمر»، لم تحر المرأة جواباً لكنها حين عبر العمدة المطبخ في طريقه إلى الشارع غمغمت منحنية فوق الفرن: «ستكون الحال أسوأ هنا، لكننا سنتذكركم أيها القوم من خلال الموتى الراقدين هناك».

حاول العمدة الاغفاء خلال القيلولة فيما كانت الزوارق البخارية تتوافد، لكنه لم يستطع مجالدة الحر، كان ورم خده قد بدأ ينفثىء، ورغم ذلك لم يكن يشعر بأنه على ما يرام، راح يتتبع بذهنه مجرى النهر الذي لا يدرك طوال ساعتين مصغياً إلى طنين ذبابة الحصاد داخل الغرفة، دون أن يفكر في شيء.

انبعث واقفاً متجرداً حين تناهى إلى سمعه صوت محركات الزوارق البخارية، جفّف عرقه بمنشفة وارتدى حلة رسمية جديدة، ثم طارد ذبابة الحصاد حتى أمسك بها بين ابهامه وسبابته وانطلق إلى الشارع، ومن قلب الحشد الذي كان في انتظار الزوارق أقبل صبي نظيف مهندم اعترض طريق العمدة برشاش مصنوع من المطاط، فمنحه العمدة ذبابة الحصاد.

جلس بعد قليل في حانوت موسى السوري ومضى يراقب تحركات الزوارق وهي تقترب من الرصيف، كان الميناء يفور بالغليان منذ عشر دقائق، فشعر العمدة بثقل في معدته وبقليل من الصداع وتذكر أمنيات المرأة السيئة، ثم هدأ وراقب الركاب وهم يهبطون عبر المعبر الخشبي محاولين إعادة اللين إلى عضلاتهم بعد جمود دام ثماني ساعات.

قال: «الفوضى ذاتها».

لفت موسى السوري نظره إلى شيء جديد: فقد أقبل على البلدة سيرك، أدرك العمدة أن هذا صحيح وإن لم يكن بوسعه أن يفسره، ربما لأن الأوتاد والخيام الملونة كانت جميعها مكوّمة فوق سقف الزورق ولأن امرأتين متشابهتين تماماً كانتا تلتفان في ثوبين متماثلين مثل شخص واحد تكرّر.

غمغم: «ها قد أقبل سيرك على الأقل».

تحدّث موسى السوري عن الحيوانات الشرسة والمشعوذين، لكن العمدة كان يفكّر في السيرك بطريقة مختلفة، مدّ ساقيه وحدّق في أطراف حذائه.

قال: «البلدة تحرز الآن تقدماً».

كف موسى السوري عن استجلاب الهواء وقال: «أتعرف بكم بعت اليوم؟» لم يحاول العمدة التخمين وانتظر الإجابة.

قال السوري: «خمسة وعشرون سنتافو».

في هذه اللحظة رأى العمدة موظف البرق يفتح حقيبة البريد ليعطي الدكتور جيرالدو رسائله، فاستدعاه، كان البريد الرسمي يجيء في مغلف مميز، ففض الأختام وأدرك أنها مكاتبات روتينية ومطبوعات تحفل بالدعاية للنظام، وحينما انتهى من مطالعتها كان الرصيف قد انقلب رأساً على عقب: صناديق بضائع، أقفاص دجاج ولوازم السيرك العجائبية، كان الفسق يقبل فوقف العمدة متنهداً.

ـ خمسة وعشرون سنتافو.

كرّر السوري بصوت حازم لا تشوبه لكنة على وجه التقريب: «خمسة وعشرون سنتافو».

راقب الدكتور جيرالدو تفريغ الزوارق حتى النهاية، كان هو الذي لفت انتباه العمدة إلى امرأة قوية وقور تضع أساور عديدة في كل من ذراعيها، بدت كما لو كانت تنتظر المسيح تحت المظلة الخفيفة، فلم يتوقف العمدة ليفكر في أمر هذه الوافدة.

قال: «لا بد أنها مروضة الوحوش».

قال دكتور جيرالدو قاضماً الكلمات بطاقم أسنانه المزدوج: «أنت محق بشكل ما فهي حماة سيزار مونتيرو».

واصل العمدة مسيرته على مهل، تطلع إلى ساعته: كانت الساعة الرابعة إلا خمساً وعشرين دقيقة، وعند باب الثكنات أعلمه الحارس أن الأب أنجيل قد انتظره نصف ساعة وأنه سيعود في الرابعة.

عاد إلى الشارع مرة أخرى، دون أن يدري ما يفعل، رأى طبيب الأسنان في نافذة عيادته، فاتجه نحوه ليسأله عود ثقاب، قدّمه له الطبيب ناظراً إلى خده المتورم.

قال العمدة: «إني على ما يرام».

فتح فمه، فقال طبيب الأسنان ملاحظاً: «هناك فجوات عديدة ينبغي أن تحشوها».

عدل العمدة وضع مسدسه في خصره وقال مقرراً: «سأكون على مقربة» فلم يغيّر الطبيب التعبير الذي تحمله ملامحه.

ـ تعال في الوقت الذي تشاء لترى ما إذا كانت رغبتي في أن تلقى حتفك بداري ستتحقق.

ربت العمدة على كتفه وقال معقباً بمزاج رائق: «إنها لن تتحقق» واختتم حديثه بذراعين مفتوحتين:

ـ أسناني فوق السياسات الحزبية.

ـ وهكذا فلن تتزوجا؟

باعدت زوجة القاضي أركاديو بين قدميها وأجابت: «لا أمل على الاطلاق يا أبت، والأمل متضائل الآن حتى وأنا على وشك الوضع» حوّل الأب أنجيل نظرته المحدقة باتجاه النهر، كانت

بقرة غارقة ضخمة الحجم تقبل قادمة مع اندفاعات التيار وقد علتها صقور عديدة.

قال: «لكنه سيكون طفلاً غير شرعي ذاك الذي تضعينه».

قالت: «لا أهمية لذلك، فأركاديو يعاملني معاملة حسنة الآن، وإذا جعلته يتزوجني سيشعر بأنه مقيد ويجعلني أدفع ثمن ذلك غالياً».

كانت قد نزعت قبقابيها وراحت تتحدث وقد تباعدت ركبتاها وأطراف أصابع قدميها تعتلي الأخشاب العرضية للكرسي المرتفع، رقدت مروحتها في حجرها والتفت ذراعاها حول بطنها، كرّرت ما قالته إذ التزم الأب أنجيل الصمت: «لا أمل على الاطلاق يا أبت، اشتراني دون ساباس مقابل مائتي بيزو وامتص رحيقي في ثلاثة شهور ثم ألقى بي إلى الشارع دون شروى نقير، ولو أن أركاديو لم يأوني لهلكت جوعاً» وللمرة الأولى تطلعت إلى القس.

ـ أو لأرغمت على أن أصبح عاهرة.

كان الأب أنجيل قد أصرّ على موقفه طوال ستة شهور.

قال: «عليك أن تجعليه يتزوجك ويقيم داراً، أما هذه الطريقة، الطريقة التي تعيشان بها الآن فإنها لا تدعك في موقف مهتز فحسب وإنما هي مثال سيىء للبلدة».

قالت: «من الأفضل إتيان الأمور بصراحة، هناك آخرون يفعلون الشيء نفسه ولكن مع إطفاء الأنوار، ألم تقرأ نشرات الفضائح؟».

قال القس: «ذلك لا يعدو أن يكون ثرثرة فارغة، عليك إضفاء الشرعية على موقفك وأن تضعي نفسك بعيداً عن نطاق الألسنة المتقولة».

قالت: «أنا؟ ليس عليّ أن أضع نفسي خارج نطاق أي شيء لأنني أقوم بكل شيء في وضح النهار، ودليل ذلك أن أحداً لم يضع وقته في وضع أي نشرة فضائح على بابي، ومن ناحية أخرى فإن كافة المحترمين الذين تطل دورهم على الميدان يجدون أبوابهم جميعاً وقد حفلت بأوراق النشرات».

قال القس: «أنت بلهاء، لكن الرب وهبك الحظ الطيب المتمثل في رجل يحترمك، ولهذا السبب عينه عليك بالزواج وإضفاء الشرعية على دارك».

قالت: «إنني لا أفهم هذه الأمور، ولكن على أية حال فإنني على ما أنا عليه، لدي مكان آوي إليه وعندي طعام وفير».

ـ وماذا إن تخلى عنك؟

عضت شفتها، ابتسمت في غموض وهي تجيب: «لن يتخلى عني يا أبت، أنا أعرف ليس بمقدوري أن أخبرك بذلك».

وفي هذه المرة لم يعتبر الأب أنجيل أن الهزيمة قد لحقت به، فأوصى بأن تقبل على الأقل لشهود القداس، فردّت بأنها ستحضر «في يوم من الأيام»، وواصل القس مسيرته منتظراً وقت مقابلته للعمدة، لفت أحد السوريين نظره إلى الطقس الذي كان طيباً لكنه لم يبد اكتراثاً، كان مهتماً بتفاصيل السيرك الذي راح ينزل حيواناته المفترسة القلقة إلى البر في الأصيل الوضاء، فمكث هناك حتى الرابعة.

كان العمدة يوشك على مغادرة طبيب الأسنان حينما رأى الأب أنجيل مقترباً، فقال: «في الموعد المناسب تماماً حتى وإن لم تمطر السماء»، وصافح الأب أنجيل الذي ردّ وهو يتأهب لصعود الثكنات المنحدر: «في الموعد المناسب حتى وإن كان العالم يوشك على الاقتراب من نهايته».

بعد دقيقتين سمح له بولوج غرفة سيزار مونتيرو.

فيما كانت طقوس الاعتراف تؤدى جلس العمدة في القاعة، راح يفكّر في السيرك، في امرأة تتدلى من أرجوحة تقبض عليها بأسنانها على ارتفاع عشرين قدماً في الهواء ورجل في رداء أزرق رسمي محلى بالشرائط الذهبية يقرع طبلة مطوقة، وبعد نصف ساعة غادر الأب أنجيل غرفة سيزار مونتيرو.

تساءل العمدة: «أكل شيء على ما يرام؟»

قال القس: «إنكم أيها القوم ترتكبون جريمة، فهذا الرجل لم يطعم شيئاً منذ خمسة أيام، وقوة بنيته هي وحدها التي مكّنته من البقاء على قيد الحياة.

قال العمدة بهدوء: «هذا هو ما يريده».

قال القس مضفياً طاقة جليلة على نغمة صوته: «ليس هذا صحيحاً، فقد أصدرت أوامر بألا يقدم له طعام».

أشار إليه العمدة بإصبعه.

ـ حذار يا أبت فأنت تنتهك أسرار الاعتراف.

قال القس: «ليس هذا جزءاً من اعترافه».

انتفض العمدة واقفاً وقال ضاحكاً على حين غرة: خفف من غلوائك، إذا كان الأمر يثير قلقك كثيراً فسنعالجه على التو، استدعى أحد رجال الشرطة وأصدر له أمراً بأن يرسلوا في طلب الطعام من الفندق لسيزار مونتيرو وقال: «دعهم يرسلوا دجاجة بكاملها ولتكن بديعة وسمينة مع طبق من البطاطس وآخر من السلطة!» وأضاف مخاطباً القس:

- كل شيء على نفقة حكومة البلدة يا أبت لترى كم تغيّرت الأمور.

- متى ترسلونه؟

قال العمدة: «ستقلع الزوارق غداً فإن أصغى لصوت العقل الليلة فسيذهب غداً، عليه فحسب أن يدرك أني أحاول أن أسدي إليه جميلاً».

قال القس: «جميل باهظ الكلفة بعض الشيء».

قال العمدة: «ليس هناك جميل لا يكلف مَن يتلقاه بعض المال» ثبت عينيه على الأب أنجيل الصافيتي الزرقة وأضاف:

- آمل أنك جعلته يتفهم تلك الأمور.

لم يرد الأب أنجيل، هبط الدرج وغمغم بالتحية من عند بدايته بصيحة غاضبة، ثم عبر العمدة القاعة ومضى إلى غرفة سيزار مونتيرو فولجها دون أن يطرق الباب.

كانت غرفة بسيطة بها حوض اغتسال و، رير حديدي. كان سيزار مونتيرو وقد طالت لحيته وظلّ مرتدياً الملابس ذاتها التي

كان يلبسها حينما غادر داره يوم الثلاثاء من الأسبوع الماضي راقداً على الفراش، لم يحرك حتى عينيه حينما سمع العمدة يلج الغرفة، قال هذا: «الآن وقد سويت حساباتك مع الرب فليس هناك ما هو أكثر عدلاً من قيامك بالشيء عينه معي» جذب مقعداً فأدناه من الفراش وعكس اتجاهه بحيث واجه صدره ظهر المقعد، ركز سيزار مونتيرو انتباهه على عروق السقف، لم يبد قلقاً على الرغم من حقيقة أن التأثير المدمر لحواره الطويل مع نفسه كان جلياً عند حافتي فمه، سمع العمدة يقول: «ليس عليّ أنا وأنت أن نتضارب حول ذنب الثعلب، فستغادر البلدة غداً، وإذا كنت محظوظاً سيصل محقق خاص خلال شهرين أو ثلاثة، ويتوقف علينا أمر تزويده بمعلومات معينة، وعلى ظهر الزورق البخاري الذي يصل البلدة بعد ذلك بأسبوع ستعود مقتنعاً بأنك قد أتيت عملاً غبياً».

توقف عن الحديث لكن سيزار مونتيرو ظلّ هادئاً.

- فيما بعد بين القضاة والمحامين سيعتصرون منك عشرين ألف بيزو على الأقل أو ما يفوق ذلك إذا ما حرص المحقق الخاص على إبلاغهم بأنك مليونير.

حوّل سيزار مونتيرو رأسه ناحيته، كانت حركة لا تكاد تلحظ لكنها جعلت نوابض السرير تئن.

استطرد العمدة بصوت مستشار روحي: «وإجمالاً سيقلمون أظافرك بين السفر جيئة وذهاباً والأعمال المكتبية لمدة عامين إذا كل شيء سار على ما يرام بالنسبة لك».

شعر بأنه يفحص من رأسه حتى أخمص قدميه، حينما بلغت نظرة سيزار مونتيرو الفاحصة عينيه لم يكن قد كفَّ عن الحديث لكنه غير نغمة.

- إن كل ما تملك أنت مدين به لي، فقد صدرت أوامر بتحطيمك، كانت هناك أوامر بقتلك في كمين ومصادرة قطعانك لتمكن الحكومة من دفع النفقات الطائلة للانتخابات في المقاطعة بأسرها، وأنت تعلم أن هناك عمداً قاموا بذلك في بلدان أخرى. أما هنا فقد عصينا الأمر.

في هذه اللحظة لمح الامارة الأولى الدالة على أن سيزار مونتيرو يمعن التفكير، استجاب للبادرة الصامتة وقد تدلت ذراعاه على ظهر المقعد.

قال: «لم يصلني سنت واحد مما دفعته انقاذاً لحياتك، فكل شيء أنفق على تنظيم الانتخابات، أما الآن فقد قررت الحكومة الجديدة أن السلام ينبغي أن يسود وأن الجميع يجب أن يحظوا بالضمانات، وأمضي أنا مفلساً أعتمد على راتبي فيما تتخم أنت حتى القيء بالمال، لقد حصلت على صفقة طية لنفسك».

شرع سيزار مونتيرو في القيام بعملية النهوض المجهدة، وحينما وقف رأى العمدة نفسه وجهاً لوجه أمام حيوان هائل هضيم وحزين، كان هناك ضرب من التوهج في النظرة التي تابعه بها حتى النافذة.

غمغم: «أفضل صفقة في حياتك».

كانت النافذة تطل على النهر، لم يتعرفه سيزار مونتيرو،

رأى نفسه في بلدة أخرى يواجه نهراً هائلاً، سمع صوتاً خلفه يقول: «إنني أحاول معاونتك، ونحن جميعاً نعرف أن الأمر كان موضوع شرف، لكن ذلك سيتعذر اتباعه، فقد أتيت شيئاً غبياً بتمزيق نشرة الفضائح» في هذه اللحظة غزت الغرفة رائحة كريهة قوية.

قال العمدة: «البقرة، لا بد أنها رست في مكان ما».

مكث سيزار مونتيرو عند النافذة غير مبال برائحة العفن، لم يكن هناك أحد في الشارع، وعند المرفأ كانت هناك ثلاثة زوارق راسية راح بحارتها يعلقون أرجوحاتهم تأهباً للرقاد، في اليوم التالي، في الساعة السابعة صباحاً ستكون الصورة مختلفة: فلمدة نصف ساعة سيموج الميناء بالحركة انتظاراً لرحيل السجين، تنهد سيزار مونتيرو، وضع يديه في جيوبه، وبحسم وإن كان في غير عجلة اختزل أفكاره في كلمة واحدة:

- كم؟

كانت الإجابة فورية.

- خمسة آلاف بيزو تدفع في شكل حملان.

قال سيزار مونتيرو: «أضف خمسة عجول أخرى وأرسلني هذه الليلة عينها بعد انقضاء عرض الأفلام في زورق سريع!»

الفصل الخامس

أطلق الزورق صفيره، والتف في مجرى التيار، فتحلق الجمع حول الرصيف ورأت النسوة المطلات من النوافذ روزاريو مونتيرو للمرة الأخيرة إلى جوار أمها مقتعدة الحقيبة الصندوقية المقواة بالقصدير ذاتها التي هبطت بها إلى البر في البلدة قبل سبعة أعوام، وكان انطباع دكتور أوكتافيو جيرالدو وهو يحلق لحيته إلى جوار نافذة عيادته أن تلك كانت على نحو ما رحلة عودة إلى الواقع.

كان دكتور جيرالدو قد رآها في الأصيل الذي وصلت فيه البلدة مرتدية زي مدرسة الأطفال المهلهل ومنتعلة حذاءً رجالياً ومدققة عند الرصيف في التحقق ممن سيتقاضى أقل مبلغ ممكن لقاء حمل حقيبتها إلى المدرسة، بدت على استعداد لأن تصبح عانساً دون طموح في تلك البلدة التي رأت اسمها كما قالت بنفسها مكتوباً لأول مرة على رقعة من الورق التقطتها من قبعة في عملية سحب أجريت بين المرشحات الإحدى عشرة لشغل ست وظائف متوافرة، واستقرت في غرفة صغيرة بالمدرسة ذات سرير حديدي ومغسل منفقة وقت فراغها في تطريز مفارش للمائدة فيما

القدر يغلي لصنع الحساء فوق موقد صغير، وفي عيد ميلاد رأس السنة من ذلك العام نفسه التقت سيزار مونتيرو في سوق خيري أقامته المدرسة، كان عزباً جلفاً مجهول المنبت اكتسب ثروة في تجارة الأخشاب يقطن دغلة عذراء وسط كلاب شبه مفترسة ولا يظهر في البلدة إلا في مناسبات نادرة غير حليق اللحية دائماً متنعلاً حذاء حديدي العقب ومزوداً بمسدس مزدوج بدا الأمر كما لو كانت قد سحبت الورقة الرابحة مرة أخرى، وكانت الأفكار قد استغرقت دكتور جيرالدو والرغوة تعلو ذقنه حينما أخرجته من ذكرياته هبة من الهواء محملة برائحة كريهة.

تبدد سرب من الصقور منتشراً على الشاطىء المقابل وقد أخافته الأمواج التي أثارها الزورق البخاري، حومت رائحة النتن فوق الرصيف للحظة مختلطة بنسيم الصباح ومتوغلة داخل أعماق الدور.

صاح العمدة مندهشاً في شرفة مخدعه وهو يراقب الصقور تنتشر: «لا تزال هناك، عليها اللعنة، تلك البقرة المقيتة».

غطى أنفه بمنديل ودلف إلى الغرفة وأغلق باب الشرفة، جثمت الرائحة ملحة في الداخل، ودون أن يخلع قبعته علق المرآة بمسمار على الحائط وشرع في محاولة حذرة لحلاقة خده الذي كان ما زال ملتهباً للغاية، وبعد لحظة طرق مدير السيرك الباب.

جعله العمدة يجلس على أحد المقاعد وراح يراقبه في المرآة فيما يحلق لحيته، كان يرتدي قميصاً حفل بمربعات بيضاء وسوداء وسراويل ركوب ويحمل سوطاً كان يربت به على ركبتيه بانتظام.

قال العمدة فيما هو ينهي تمرير الموسى على الشعر الغزيز الذي نما خلال أسبوعين من اليأس: «لقد تلقينا بالفعل الشكوى الأولى منهم أيُها القوم ليلة أمس فحسب».

ـ وما عساها تكون؟

ـ إنكم ترسلون الصبية لسرقة القطط.

قال المدير: «ليس هذا صحيحاً، فكل قطة تجلب لنا نشتريها بالرطل دون تساؤل عن مصدرها لتغذية الحيوانات المفترسة».

ـ أتلقونها إلى تلك الحيوانات حية؟

قال المدير: «أوه، لا، سيثير ذلك غريزة القسوة لدى الحيوانات».

بعد أن اغتسل العمدة التفت إلى المدير وهو يجفف وجهه بالمنشفة، لم يكن قد لاحظ حتى ذلك الوقت أنه كان يضع خواتم ذوات أحجار ملونة في أصابعه جميعاً على وجه التقدير.

قال: «حسناً سيتعين عليكم التفكير في طريقة أخرى، قوموا بصيد التماسيح إذ أردتم أو انتهزوا فرصة وجود السمك الذي سيتبدد هباء في هذا الطقس، أما القطط الحية فلا شأن لكم بها».

هزَّ المدير كتفيه وتبع العمدة إلى الشارع، كانت جماعات من الرجال تثرثر قرب الرصيف رغم الرائحة الكريهة المنبعثة من البقرة المشتبكة بالعليق على الضفة المقابلة.

صاح العمدة: «أيُها المخنثون، كان ينبغي بدلاً من التحلق

مثرثرين كالنساء أن تنهمكوا منذ الأمس في تنظيم فرقة لإبعاد تلك البقرة مع التيار».

التف حوله بعض الرجال.

قال العمدة مقترحاً: «خمسون بيزو لمَن يحضر لي قرني البقرة خلال ساعة».

انفجرت جوقة مشتبكة من الأصوات عند نهاية الرصيف، كان بعض الرجال قد سمعوا العرض الذي تقدّم به العمدة فقفزوا إلى زوارقهم المحفورة من جذوع الأشجار وهم يتصايحون متحدين بعضهم البعض الآخر فيما هم ينطلقون، وبحماسة بالغة ضاعف العمدة المبلغ صائحاً: «مائة بيزو، خمسون لقاء كل قرن» ومضى بالمدير إلى نهاية الرصيف، وظلا معاً ينتظران حتى بلغ أول قارب الكثبان على الشاطىء الآخر، وعندئذ التفت العمدة إلى المدير مبتسماً.

قال: «هذه بلدة سعيدة».

أومأ المدير موافقاً فاستطرد العمدة: «العيب الوحيد هو شيء من هذا القبيل، فالناس يفكرون كثيراً في الحماقة لأنه ليس هناك ما يفعلونه» كانت جماعة صغيرة من الأطفال قد بدأت تلتف حولهما ببطء.

قال المدير: «هناك السيرك».

كان العمدة يجره من يده وهو يمضي به نحو الميدان.

تساءل العمدة: «أي الأرقام يؤدون؟»

قال المدير: «كل شيء، لدينا عرض كامل للأطفال وللكبار».

ردّ العمدة: «لا يكفي هذا، ينبغي أن يكون في متناول الجميع».

قال المدير: «وضعنا هذا في أذهاننا كذلك».

انطلقا معاً إلى بقعة جرداء خلف دار السينما حيث كانوا قد شرعوا لتوهم في نصب الخيمة، وراح رجال ونساء ذوو ملامح جامدة يخرجون الأقمشة والألوان الفاقعة من شاحنات ضخمة ذات جوانب من القصدير المزخرف، وفيما هو يتبع المدير وسط مزيج البشر والحيوانات والأغراض مصافحاً الجميع شعر بالاحساس ذاته الذي كان يمكن أن يخامره وسط حطام سفينة غارقة، تمعنت إمرأة نشطة ذات حركات بائرة وأسنان كلّل الذهب تيجانها كلية على وجه التقريب في كفه بعد مصافحته.

قالت: «هناك أمر غريب في مستقبلك».

سحب العمدة كفه وقد عجز عن قهر إحساس عابر بالاكتئاب، فربت المدير على ذراع المرأة بسوطه وقال دون توقف مصاحباً العمدة إلى خلف الأرض الفضاء حيث الحيوانات: «دعي الملازم وشأنه».

تساءل المدير: «أتؤمن بكل هذه الأمور؟»

قال العمدة: «الأمر يختلف من حالة إلى أخرى».

قال المدير: «لم يتمكنوا قط من إقناعي، فحينما يغرق

شخص في التعامل مع أمور كهذه فإنَّه ينتهي إلى الإيمان بالإرادة الإنسانية وحدها».

تأمل العمدة الحيوانات التي كان الحر قد نال من وعيها، فاحت رائحة كريهة ودافئة من الأقفاص الحديدية وبدا ضرب من الغضب اليائس في التنفس الحذر للكائنات المفترسة، داعب المدير أنف فهد بسوطه فيما هو يتلوى كمهرج ويزمجر.

تساءل العمدة: «ما الاسم؟»

ـ أرسطو.

أوضح العمدة قصده: «أعني اسم المرأة».

قال المدير: «أوه، إننا نناديها بكاساندرا مرآة المستقبل».

بدا تعبير بائس على ملامح العمدة.

قال: «أريد أن أضاجعها».

قال المدير: «كل شيء ممكن».

فتحت الأرملة مونتيل نوافذ مخدعها وهي تغمغم: «يا للمساكين!» رتبت المائدة المجاورة لفراشها، ردت مسبحتها وكتاب الصلاة إلى الدرج وجففت نعل خفيها الأخضرين من جلد النمر الأرقط الموضوع أمام الفراش ثم جالت بالغرفة لغلق أدراج المنضدة ذات المرآة وأبواب الخزانة الثلاثة وخزانة الأطباق والكؤوس التي وضع فوقها تمثال من الجص للقديس رافائيل وأخيراً أغلقت الغرفة.

فيما كانت تهبط الدرج المقام من الأحجار المزخرفة

بمتاهات عديدة راحت تفكر في مصير روزاريو مونتيرو الغريب، فحينما رأتها تعبر ركن الرصيف بهدوء تلميذة علموها ألا تدير رأسها شعرت وهي تطل عبر فتحة شرفتها أن شيئاً بدا منذ وقت طويل قد انتهى أخيراً.

وعند أسفل الدرج طالعها الصخب الريفي لفناء دارها وعلى أحد جانبي السياج كانت هناك سقالات تعلوها قطع من الجبن غلفت في أوراق حديثة العهد بالقطع يليها في حشد خارجي أجولة من الملح ودنان مكوّمة ملأى بالشهد، وفي نهاية الفناء قام اسطبل احتشد بالبغال والجياد والسروج المعلقة على العروق الخشبية، وامتلأت الدار برائحة دواب الحمل العالقة المختلطة برائحة أخرى هي رائحة تقشير وعصر قصب السكر.

حيّت الأرملة في المكتب بتحية الصباح السيد كارمايكل الذي كان يضع رزماً من أوراق النقد على المكتب فيما يدوّن المبالغ في سجل خاص، وحينما فتحت النافذة المطلة على النهر ولجت أنوار الصخب غرفة المعيشة التي كانت مثقلة بزخارف رخيصة وحافلة بالمقاعد وغارقة في اللون الرمادي وعلى جدرانها علقت صورة مكبرة لجوزيه مونتيل وقد وضعت باقة جنائزية حول الإطار، ولاحظت الأرملة هبة النتن قبل أن ترى الزوارق راسية على كثبان الشاطىء البعيد.

سألت: «ما الذي يحدث على الضفة الأخرى؟»

ردَّ السيد كارمايكل: «إنهم يحاولون إيعاد بقرة نافقة مع التيار».

قالت الأرملة: «هكذا الأمر، كنت طوال الليل أحلم بتلك الرائحة طوال الليل» تطلعت إلى السيد كارمايكل الغارق في عمله وأضافت: «الآن كل ما نحتاج إليه هو طوفان».

قال كارمايكل دون أن يرفع رأسه.

ـ لقد بدأ منذ أسبوعين.

أقرت الأرملة قوله: «هذا صحيح، الآن بلغنا النهاية، وكل ما بقي هو أن نرقد في مقبرة تحت الشمس والمطر حتى يلم الموت بنا».

أصغى السيد كارمايكل لها دون أن يقطع حساباته، فواصلت الأرملة حديثها: «كنا نشكو طوال سنوات من أن شيئاً لا يحدث في هذه البلدة، وفجأة بدأت المأساة كما لو كان الرب قد أعد كل شيء بحيث ان ما كف عن الحدوث طوال سنوات طويلة يبدأ في الوقوع.

التفت السيد كارمايكل لينظر إليها من موقفه بالخزانة ورآها مستندة بكوعيها على النافذة وقد جمدت عيناها على الشاطىء المقابل، كانت ترتدي ثوباً أسود بأكمام طويلة وتقرض أظافرها.

قال السيد كارمايكل: «حين ينقطع المطر ستحسن الأمور».

تنبأت الأرملة: «لن ينقطع، فالمصائب لا تأتي فرادى، ألم ترَ روزاريو مونتيرو؟»

كان السيد كارمايكل قد رآها فقال: «هذا كل فضيحة لا معنى لها، وإذا ما أبدى شخص اهتماماً بنشرات الفضائح فسينتهي به الأمر إلى الجنون».

تنهدت الأرملة قائلة: «نشرات الفضائح!»

قال السيد كارمايكل: «لقد علقوا نشرتي بالفعل».

ـ نشرتك؟

أكّد السيد كارمايكل: «نعم نشرتي، علقوها، كبيرة تماماً وكاملة تماماً، يوم السبت من الأسبوع الماضي، بدت مثل ملصق للإعلان عن فيلم».

جذبت الأرملة مقعداً وأدنته من المكتب، وصاحت متعجبة: «هذا فظيع، فليس هناك ما يمكن قوله عن عائلة مثالية كعائلتك» لم يثر الأمر انزعاج السيد كارمايكل.

أوضح قائلاً: «بما أن زوجتي بيضاء فقد جاء الأطفال ملونين جميعاً، تخيلي، أحد عشر طفلاً».

قالت الأرملة: «بالطبع».

ـ طيب، قالت نشرات الفضائح إنني والد السود منهم فحسب وأوردت قائمة بأسماء آباء الباقين، بل إنهم أدرجوا دون تشيبي مونتيل، ليرقد في سلام بقبره».

ـ زوجي!

قال السيد كارمايكل: «زوجك وأزواج أربع سيدات أخريات».

بدأت الأرملة تنتحب، قالت: «إن بناتي بعيدات لحسن الحظ، يقلن إنهن لا يرغبن في العودة إلى هذه البلاد البربرية التي

يقتل فيها الطلاب في الشوارع وأحدثهن بأنهن على صواب وأن عليهن البقاء في باريس إلى الأبد» تحوّل السيد كارمايكل قليلاً بمقعده وقد أدرك أن الفترة اليومية المحرجة قد بدأت مرة أخرى.

قال: «ليس هناك ما يدعوك إلى القلق».

انتحبت الأرملة قائلة: «على العكس تماماً، فأنا أول شخص ينبغي أن يحزم أمتعته ويرحل عن هذه المدينة حتى وإن ضاعت هذه الأرض والعمل الذي يرتبط على هذا النحو بمأساتنا، لا يا كارمايكل لست أريد أحواضاً من ذهب لأبصق فيها دماً».

حاول السيد كارمايكل تهدئتها.

قال: «عليك بالارتفاع إلى مستوى مسؤولياتك، ليس بوسعك أن تلقي ثروة من النافذة».

قالت الأرملة: «المال روث الشيطان».

- لكنه في هذه الحالة كذلك نتاج العمل الشاق الذي قام به دون تشيبي مونتيل.

ردت قائلة: «أنت تعلم أن هذا ليس صحيحاً، فهي ثروة أسيء تحصيلها وكان جوزيه مونتيل هو أول مَن كفر عن ذلك بالموت دون اعتراف».

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي تقول فيها هذا.

قالت مشيرة إلى العمدة الذي كان يمر عبر الممشى المقابل متأبطاً ذراع مدير السيرك: «طبيعي أن اللوم يقع على عاتق ذلك

المجرم لكنني أنا التي أغالي من جراء التفكير عن الجرم».

أشاح عنها السيد كارمايكل، وضع رزم النقود مضمومة بأحزمة مطاطية رفيعة في صندوق من الورق المقوى ونادى من الباب المطل على الفناء الفلاحين بالترتيب الأبجدي لأسمائهم.

فيما كان الرجال يقبضون الأجر الذي يدفع يوم الأربعاء كانت الأرملة تسمعهم يمرون بها دون أن ترد تحياتهم، كانت تعيش وحيدة في الدار الجهمة ذات الغرف التسع التي لفظت فيها الأم الكبرى أنفاسها الأخيرة والتي كان جوزيه مونتيل قد ابتاعها دون أن يخطر بباله أن أرملته سيتعين عليها احتمال عزلتها فيما حتى الموت، وفي الليل تمضي عبر الغرف الخاوية بأنبوبة المبيد الحشري تجد الأم الكبرى وهي تسحق القمل في الأبهاء فتسائلها: متى ألقى حتفي؟ لكن هذا التواصل البهيج بالعالم الآخر لا يفلح إلاّ في زيادة حيرتها لأن الردود شأن ردود الموتى كافة كانت سخيفة ومتضاربة.

شاهدت الأرملة من خلال دموعها بعد الحادية عشرة بقليل الأب أنجيل وهو يعبر الميدان نادته شاعرة بأنها تتخذ خطوة نهائية بهذا النداء: «أبت، يا أبت!» لكن الأب أنجيل لم يسمعها، كان قد طرق باب الأرملة آزيس بإزاء الممشى المقابل فانفتح الباب قليلاً بطريقة مختلفة لإدخاله.

كانت الأرملة آزيس تقتعد كرسياً من قماش القنب في الرواق السابح في فيض من تغريد الطيور وقد غطّت وجهها بمنديل غمس في ماء الفلوريدا، تعرفته من الطريقة التي طرق بها

الباب لكنها أطالت راحتها القصيرة إلى أن سمعته يحيها، فأسفرت عن وجهها الذي عبث به الأرق.

قالت: «عفواً يا أبت فلم أتوقع حضورك مبكراً هكذا!»

تجاهل الأب أنجيلو حقيقة أنه دعي لتناول طعام الغداء والتمس لنفسه العذر وقد داخله قليل من الاضطراب قائلاً إنه بدوره قضى الصباح معانياً من الصداع وأثر عبور الميدان قبل أن يبدأ الحر.

قالت الأرملة: «لا يهم، إنما قصدت أني لا أرغب في أن تجدني مثل حطام غارق».

أخرج القس من جيبه كتاباً للصلوات آخذ في التداعي وقال: «تستطيعين نيل قسط من الراحة فيما أصلي» بادرت الأرملة إلى الاعتراض.

قالت: «إنني أشعر بتحسن».

مضت إلى نهاية الرواق، وعيناها مغمضتان، وفي طريق عودتها وضعت منديلها بنظام محكم على ذراع المقعد وحينما جلست في مواجهة الأب أنجيل بدت أصغر عمراً بسنوات عديدة.

عندئذ قالت دون افتعال: «أنا بحاجة لمساعدتك يا أبت!»

دس الأب أنجيل كتاب الصلوات في جيبه.

ـ رهن أمرك.

ـ إنه روبرتو آزيس مرة أخرى.

كان روبرتو آزيس قد رحل في اليوم السابق وحتى يوم السبت مخلفاً وعده بأن ينسى أمر نشرة الفضائح ثم عاد على غير توقع في الليلة ذاتها، ومنذ وصوله وحتى الفجر حينما غلبه الارهاق ظلّ جاثماً في الظلام بالغرفة منتظراً عاشق زوجته المزعوم.

أصغى إليها الأب أنجيل وقد استولت عليه الحيرة.

قال: «لا أساس لهذا».

ردت الأرملة: «إنك لا تعرف آل آزيس يا أبت، فهم يحملون الجحيم في تصوراتهم».

قال: «ربيكان تعرف وجهة نظري في نشرات الفضائح ولكن إذا أردت فيمكنني أن أحادث روبرتو آزيس كذلك».

قالت الأرملة: «كلا بالطبع، فذلك من شأنه إضرام النار في الفحم، ومن ناحية أخرى فإنك لو استطعت الحديث عن نشرات الفضائح في عظة الأحد فأنا واثقة من أن روبرتو آزيس سيشعر بأن ذلك نداء موجه له للتفكير في الأمر».

لوّح الأب أنجيل بذراعيه.

صاح: «مستحيل، سيكون ذلك بمثابة إضفاء أهمية على الأمر لا يستحقها».

ـ ليس هناك ما هو أكثر أهمية من الحيلولة دون وقوع جريمة.

- أتعتقدين أن الأمر يمكن أن يبلغ هذه الحدود؟

قالت الأرملة: «أنا لا أعتقد هذا فقط لكني واثقة من أني لا أملك السبل للحيلولة دون وقوعه».

بعد لحظة جلسا إلى المائدة، جلبت خادمة حافية القدمين الأرز والفاصوليا والخضر المسلوقة وطبقاً كبيراً حافلاً بكرات اللحم المغطاة بصلصة بنية اللون غليظة القوام، في صمت وضع الأب أنجيل الطعام في طبقه، أعاده الفلفل اللاذع الطعم والصمت العميق المخيم على الدار والشعور بعدم الاتياح الذي أفعم قلبه في هذه اللحظة إلى الغرفة الصغيرة التي كانت له وهو راهب حديث السياحة في ضحى ماكوندو المتوهج ناراً، في يوم حار ومترب كهذا كان قد رفض القيام بطقوس الدفن المسيحية لجثمان رجل مشنوق أبى سكان ماكوندو المتعنتون دفنه، فكَّ أزرار مسوحه ليخفف وطأة العرق.

قال للأرملة: «ليكن، فاحرصي إذن على جعل روبرتو آزيس يشهد قداس الأحد!».

وعدته الأرملة بذلك.

أمضى دكتور جيرالدو وزوجته اللذان لم يرقدا وقت القيلولة قط فترة الأصيل في قراءة إحدى قصص ديكنز، جلسا في الجزء الداخلي من الدار، تراخى في أرجوحة مصغياً وقد عقد كفيه خلف قفاه بينما وضعت الكتاب في حجرها وجعلت ظهرها إلى معينات الضوء حيث يأتلق الغرنوقي، كانت تقرأ دون انفعال وبتركيز مَن يحترف القراءة دون أن تغير وضعها في المقعد، لم

ترفع رأسها حتى انتهت من القراءة لكنها أبقت عند ذاك الكتاب مفتوحاً على ركبتيها فيما كان زوجها يغتسل، أوحى الحر بمقدم عاصفة.

تساءلت بعد أن فكّرت في الأمر: «أهي قصة قصيرة على شيء من الاستطالة؟»

بحركات دقيقة تعلمها الطبيب في غرفة العمليات سحب رأسه من حوض المغسل وقال واقفاً أمام المرآة وهو يضع مستحضر زيتي للتلميع على شعره: إنهم يقولون إنها رواية قصيرة غير أني أوثر القول بأنها قصة قصيرة على شيء من الطول، وبأصبعه راح يدلك فروة رأسه بالمستحضر وقال مختتماً حديثه:

- قد يقول النّقاد إنها قصة قصيرة لكنها طويلة بعض الشيء.

ارتدى حلة كتانية بيضاء بمساعدة زوجته، كان يمكن الخلط بينهما وبين شقيقة كبرى له لا بسبب الاخلاص المسالم الذي كانت ترعاه به وإنما كذلك من خلال البرود المطل من مقلتيها والذي جعلها تبدو أكبر سناً مما هي عليه، وقبل أن يرحل أطلعها على قائمة زياراته وترتيب قيامه بها تحسباً لحدوث حالة طوارئ، ومرّر يديه على بيان الساعة حتى جعل اللافتة المعلقة في غرفة الانتظار كالتالي: سيعود الطبيب في الساعة الخامسة.

كان الشارع يتقد لفرط الحر، سار الدكتور جيرالدو على امتداد الممشى الظليل يطارده هاجس يقول بأنه على الرغم من ضراوة الهواء فإن السماء لم تمطر هذا الأصيل، وعمق طنين ذباب الحصاد عزلة الميناء لكن البقرة أزيحت بعيداً ومضى بها

التيار فتركت رائحة التن هوة هائلة في الطقس.

ناداه موظف البرق من الفندق:

ـ هل وصلتك برقية؟

لم يكن دكتور جيرالدو قد تسلّم برقية.

قال موظف البرق مقتطفاً من ذاكرته جانباً من محتويات البرقية: الاستشارة تحسن أوضاع العيادة.

انطلقا إلى مكتب البرق معاً، فيما كان الطبيب يكتب الرد بدأ الموظف في الغطيط.

أوضح الطبيب سر ذلك باقتناع علمي عظيم: «إنه حمض الموريانيك» وعلى الرغم من هاجسه أضاف معزياً حينما انتهى من الكتابة: «ربما تمطر الليلة».

أحصى موظف البرق الكلمات، فلم يبد الطبيب اكتراثاً به، كان يمسك بكتاب سميك وضع مفتوحاً إلى جوار مفتاح رموز البرقيات، تساءل عما إذا كان الكتاب رواية.

قال الموظف بأسلوب خاطف: «البؤساء، فيكتور هيجو» ختم البرقية وأقبل ناحية الحاجز حاملاً الكتاب قائلاً: «أعتقد أن هذا سيكفينا حتى ديسمبر المقبل».

طوال سنوات عديدة كان الدكتور جيرالدو يعلم أن موظف البرق ينفق وقت فراغه في الإبراق بالقصائد إلى موظفة البرق في سان برناردو ديل ڤينتو، غير أنه لم يكن يعلم كذلك أنه كان يقرأ لها الروايات.

قال متصفحاً المجلد الذي كان بحالة طيبة والذي أيقظ فيه ذكريات المراهقة المتضاربة: «كان من الأفضل أن تلجأ إلى ألكسندر ديماس».

أوضح موظف البرق الأمر بقوله: «إنها تحب هذا المجلد».

ـ هل تقابلتما يوماً؟

هزَّ الموظف رأسه نافياً.

قال: «لكن ذلك لا أهمية له، سأتعرفها في أي بقعة من العالم عن طريق القفزات الصغيرة التي تقوم بها وهي تبرق بحرف الراء».

في ذلك الأصيل خصص الدكتور جيرالدو ساعة من وقته لدون ساباس، فألفاه مجهداً في فراشه وقد لفَّ منشفة حول ما دون خصره.

سأل الطبيب: «أكانت الحلوى طيبة؟»

ناح دون ساباس ملتفتاً بجسمه الضخم العتيق ناحية الباب قائلاً: «إنه الحر، لقد أخذت الحقنة بعد الغداء».

فتح الدكتور جيرالدو حقيبته الطبية على مائدة إلى جوار النافذة، كان ذباب الحصاد يطن في الفناء والدار تموج بحرارة لها رائحة النبات، جلس دون ساباس في الفناء وتبوّل كمسيل ماء فاتر، حينما وضع الطبيب السائل الكهرماني في أنبوب اختبار، شعر المريض بالارتياح فقال مراقباً تحليل البول:

ـ حذار يا دكتور فلست أريد أن ألقى حتفي دون أن أعرف كيف ستنتهي هذه الرواية.

ألقى دكتور جيرالدو بقرص أزرق إلى عينة البول.

ـ أي رواية؟

ـ نشرات الفضائح.

تابعه دون ساباس بنظرة وادعة حتى انتهى من تسخين أنبوب الاختبار على المصباح الكحولي، راح يتشمم الأنبوب فانتظرته عينا المريض الشاحبتان بسؤال.

قال الطبيب ملقياً بالعينة إلى الفناء: «عظيم» رمق دون ساباس بنظرة فاحصة وقال: أيعنيك هذا الأمر أنت أيضاً؟

قال المريض: لا يعنيني لكني مثل ياباني يتمتع برؤية الناس وهم يتشاجرون.

أعدَّ الدكتور جيرالدو محقنة الزرق تحت الجلد.

مضى دون ساباس قائلاً: أضف إلى هذا أنهم قد علقوا نشرة فضائحي منذ يومين، الهراء ذاته: مسألة أبنائي والقصة ذاتها التي تدور حول الحمير.

أحكم الطبيب إظهار شريان دون ساباس بخرطوم جلدي، فأصرَّ المريض على تذكر قصة الحمير واضطر إلى إيرادها مجدداً لأن الطبيب قال إنه لا يعتقد أنه سمعها.

قال: «كانت صفقة حمير عقدتها قبل حوالى عشرين عاماً، وحدث أن الحمير التي بعتها وجدت نافقة في الصباح بعد يومين دون أن تبدو عليها إمارات استخدام العنف ضدها».

مدَّ ذراعه للطبيب بلحمها المترهل ليتمكن من أخذ عينة دم، وحينما غطى مكان الوخزة بالقطن ثنى ذراعه.

ـ طيب، أتعلم ما الذي استنتجه الناس؟

هزَّ الطبيب رأسه نافياً.

ـ انتشرت شائعة تقول إنني قد مضيت بنفسي إلى الفناء ليلاً وأطلقت النار على الحمير واضعاً فوهة المسدس في فتحات مؤخراتها.

دسَّ الدكتور جيرالدو الأنبوب الزجاجي المعلق على العينة الزجاجية في جيبه.

قال: «هذه القصة تحمل الدلائل كافة على أنها حقيقية».

قال دون ساباس مقتعداً فراشه كصنم شرقي: «كانت الأفاعي هي التي لدغتها، ولكن في حالتي ينبغي أن تكون أحمق لتكتب نشرة فضائح عن شيء يعرفه الكافة».

قال الطبيب: «تلك إحدى المميزات الدائمة لنشرات الفضائح، فهي تقول ما يعرفه الجميع وهو ما يوشك على وجه اليقين أن يكون الحقيقة».

عانى دون ساباس من نكسة مؤقتة فغمغم مجففاً حاجبيه اللذين حفهما الدوار لكنه أفاق لتوه.

ـ الحاصل هو أنه ليست هناك ثروة واحدة في هذه البلاد لا تكتنفها بعض الحمير النافقة.

تلقى الطبيب هذه العبارة منحنياً فوق المغسل، فرأى انعكاسها عليه مرتسماً على سطح الماء، بريق طاقم أسنان يبلغ من الكمال حداً لا يبدو معه طبيعياً، قال ملتفتاً إلى المريض: «لقد اعتقدت دائماً يا عزيزي دون ساباس أن فقدان الحياء هو فضيلتك الوحيدة.

أخذت الحماسة المريض، فقد أثارت لطمات طبيبه فيه ضرباً مفاجئاً من حيوية الشباب، قال وهو يثني ذراعه على نحو قد ينشط الدورة الدموية لكن الطبيب اعتقد أنه تعبير عن الفسق الداعر: «إنه فضيلتي الوحيدة بالاضافة إلى فحولتي الجنسية» وطعن الهواء بما دون خاصرته.

استطرد قائلاً: «هذا هو السر في أني سألقى حتفي ضاحكاً من تلك النشرات، إنها تقول إن أبنائي تخلب لبهم الفتيات اللاتي يشرعن في التفتح كالبراعم في هذه الغابات جميعاً وردّي على ذلك أنهم من صلب أبيهم».

اضطر الطبيب قبل الانصراف إلى الإصغاء لموجز تصويري لمغامرات دون ساباس الجنسية.

أخيراً صاح المريض: «شباب سعيد، أوقات هانئة حين لم تكن الفتاة الشابة التي لا تتجاوز السادسة عشرة تكلف إلاّ أقل من قيمة عجلة».

قال الطبيب: «ستزيد هذه الذكريات من تركز السكر في دمك».

فغر دون ساباس فاه.

رد قائلاً: «على العكس، فهي أفضل من جرعات أنسولينك اللعينة».

حينما بلغ الطبيب الشارع كان انطباعه أن هذه الذكريات مثل حساء شهي تدفقت حرارته إلى شرايين دون ساباس، لكن شيئاً آخر أثار قلقه حينذاك: نشرات الفضائح، فمنذ أيام ترامت الاشاعات إلى عيادته، وفي هذا الأصيل وعقب زيارة دون ساباس أدرك أنه لم يسمع حقاً شيئاً عن أي موضوع آخر طوال هذا الأسبوع.

قام بزيارات عديدة خلال الساعات التالية وفي كل زيارة دار الحديث حول نشرات الفضائح، راح يصغي للأقاصيص دون تعقيب وبابتسامة خفيفة تحمل اللامبالاة لكنه في الحقيقة كان يحاول الوصول إلى خلاصة للموقف وحينما شقَّ طريق العودة إلى عيادته أنقذه الأب أنجيل الذي كان مقبلاً من دار الأرملة مونتيل من أفكاره.

سأله الأب أنجيل: «كيف حال أولئك المرضى يا دكتور؟»

ردَّ الطبيب: «مرضاي على ما يرام يا أبت، ماذا عن مرضاك؟»

عضَّ الأب أنجيل شفتيه، تأبط ذراع الطبيب وشرعا في عبور الميدان.

ـ لم تسأل؟

قال الطبيب: «لا أعرف، لكني سمعت أن هناك وباءً خطيراً بين مرضاك».

عرج الأب أنجيل بالحديث على موضوع آخر على نحو بدا للطبيب متعمداً.

قال: «أقبلت لتوي من دار الأرملة مونتيل، لقد جعلت أعصاب هذه المرأة المسكينة الارهاق ينال منها».

قال الطبيب مشخصاً الحالة: «قد يكمن السبب في ضميرها».

ـ لقد تملكها الشعور بمقدم الموت.

وعلى الرغم من أنهما يقطنان في ناحيتين مختلفتين من البلدة إلا أن الأب أنجيل صحبه حتى عيادته.

التقط الطبيب خيط الحديث: «ما الذي تعتقده جاداً يا أبت فيما يتعلق بنشرات الفضائح».

قال القس: «أنا لا أفكر فيها لكنك إذا دفعتني لهذا فإني أقول بأنها نتاج للحسد الذي تتعرض له بلدة مثالية».

ردَّ الطبيب: «إننا معشر الأطباء لم نكن نشخص الحالات على هذا النحو حتى في القرون الوسطى».

توقفا أمام العيادة، راح الأب أنجيل يستجلب الهواء وهو يؤكد للمرة الثانية خلال هذا اليوم أن على المرء ألا يضفي على الأمور أهمية ليست لها، فاعتقد بأس خفي الدكتور جيرالدو.

ـ كيف تعرف يا أبت أن نشرات الفضائح لا تتضمن أموراً حقيقية فيما تقوله؟

ـ أعرف ذلك من الاعترافات.

حدّق الطبيب في مقلتيه ببرودة.

ـ الأمر يغدو أكثر خطورة إذا لم تعرف إلاّ من خلال الاعتراف.

في ذلك الأصيل لاحظ الأب أنجيل أنه في دور الفقراء كذلك كان الناس يتحدثون عن نشرات الفضائح ولكن بطريقة أخرى بل وبمرح صحي، تناول طعامه بغير شهية بعد ترتيل الصلاة بقلب تخزه شوكة ألم عزاها إلى اللحم الذي تناوله في الغداء، ثم ألقى نظرة على دفتر الرقابة على الأفلام وللمرة الأولى في حياته راوده شعور غامض بالفخار فيما هو يقرع الدقات الاثنتي عشرة التي تعني الخطر المطلق على الفيلم، وأخيراً اقتعد كرسياً عالياً إلى جوار الباب المطل على الشارع شاعراً بأن رأسه يكاد ينفجر ألماً وتأهب كي يحدد علناً هوية أولئك الذين سيرتادون الفيلم مخالفين الخطر الذي فرضه.

دلف العمدة إلى صالة العرض، جلس في الركن المخصص لفرقة العزف ودخن سيجارتين قبل أن يبدأ عرض الفيلم، كانت لثته قد أصبحت عادية تماماً لكن جسمه كان لا يزال يعاني ذكرى البارحة وجعله تأثير المسكنات والسجائر المجهد يشعر بالغثيان.

كانت دار السينما فناء يحيطه جدار من الملاط المغطى بشرائح وألواح الزنك التي بلغت في ركن فرقة العزف نصف ارتفاع الجدار ونما في أرضها نجيل بدا أنه يكتسب حياة جديدة كل صباح حيث تخصبه قطع العلك وأعقاب السجائر، وللحظة

خيل للعمدة أنه يرى المقاعد المصنوعة من الخشب غير المصقول السطح وهي تحلق طافية في الهواء فوق الحاجز الحديدي الذي يفصل مقاعد الفرقة الموسيقية عن الشرفة، ولاحظ تموجاً مدوخاً في الفراغ على الحائط الخلفي الذي كان مطلياً باللون الأبيض والفيلم يعرض أمامه.

شعر بتحسن حينما أطفئت الأنوار ثم توقفت الموسيقى السريعة التي كان مكبر الصوت يبثها لكن تذبذب المولد الكهربائي الموضوع في كوخ خشبي قريب من جهاز العرض غدا أكثر توتراً وحدة.

كانت هناك ثلاث شرائح دعائية قبل الفيلم، للحظة قصيرة حركت العتمة همسات مكتومة متدافعة وخطوات مضطربة وضحك مكتوم، فأخذت الدهشة العمدة للحظة وظنَّ أن لدخول دار السينما سراً سمة العمل التخريبي ضد أعراف الأب أنجيل المتصلبة.

تعرّف مدير دار السينما حينما مرَّ قريباً منه رغم أن ذلك قد يكون راجعاً إلى هبة رائحة ماء العطر التي ترافقه دوماً.

همس ممسكاً بيده بشدة: «أنت يا قاطع الطريق، سيتعين عليك أن تدفع ضريبة خاصة».

اغتصب المدير ضحكة من بين أسنانه وهو يقتعد الكرسي المجاور.

قال: «إنه فيلم جيد».

قال العمدة: «أتمنى أن تكون الأفلام جميعاً رديئة فليس هناك ما هو أكثر إملالاً من فيلم أخلاقي».

قبل سنوات لم يكن أحد يحمل الرقابة المفروضة من خلال أجراس الكنيسة محمل الجد، لكن الأب أنجيل درج كل أحد لدى إقامة القداس الرئيسي على الإشارة باصبعه من فوق المنبر إلى النسوة اللاتي خالفن تحذيره من الأفلام الممنوعة خلال الأسبوع ثم يقوم بطردهن من الكنيسة.

قال المدير: «كان الباب الخلفي بمثابة انقاذ لي».

بدأ العمدة في متابعة الشريط الإخباري العتيق، وراح يتحدث ملتزماً الصمت في كل مرة يظهر فيها موضوع هام على الشاشة.

قال: «هكذا الحال مع كافة الأمور، فالقس لا يقوم بمناولة النسوة اللاتي يرتدين أثواباً ذات أكمام قصيرة، وهن يواصلن ارتداء هذه الأثواب، لكنهن حين يمضين إلى القداس يضفن إلى الأثواب أكماماً طويلة مصطنعة».

بعد انتهاء الشريط الإخباري عرضت إشعارات بالأفلام التي ستعرض في الأسبوع المقبل، فشاهداها في صمت، وفي النهاية مال المدير ناحية العمدة.

همس: «أيها الملازم: اشتر هذه الدار المزعجة مني».

لم يحوّل العمدة عينيه عن الشاشة.

ـ ليس ذلك عملاً طيباً.

ـ لن يكون كذلك بالنسبة لي ولكن من الوجهة الأخرى ستكون الدار منجماً ذهبياً لك، ذلك أمر واضح، فالقس لن يواجهك بأفاعيل أجراسه الصغيرة.

فكّر العمدة قبل أن يرد.

قال: «يبدو الأمر طيباً لي».

لكنه لم يفه بشيء محدد، مدّ قدميه على الكرسي المقابل له وغرق في متابعة مأساة متشابكة الأطراف لم تكن فيما حدّث نفسه في ختامها تستحق أربعة من دقات الأجراس الاثنتي عشرة التي قرعها الأب أنجيل.

حينما غادر دار السينما راح يتسكع في مكتب المراهنات حيث كانوا يلعبون بالورق لعبة اللوتو، كان الجو حاراً والراديو يمج موسيقى حجرية، بعد تجرع زجاجة من ماء الصودا انطلق عائداً إلى غرفته.

سار بلا مبالاة على ضفة النهر متشمخاً النهر المتدفق بالمياه في الظلام متشرباً بحواسه صوت أحشائه ورائحته التي تحاكي رائحة حيوان هائل، في مواجهة المخدع توقف عن السير فجأة، قفز مرتداً واستل مسدسه.

قال بصوت متوتر: «اخرج إلى حيث أستطيع رؤيتك وإلاّ ألهبت رأسك».

من الظلمة تناهى صوت بالغ العذوبة.

ـ لا تكن عصبياً يا سيدي الملازم!

وقف شاهراً مسدسه حتى سقط الضوء على الشخص المختبىء، كانت كاساندرا.

قال العمدة: «لقد أفلت بجلدك».

أدخلها المخدع، راحت تتحدث طويلاً متبعة مساراً غير منتظم في حديثها، اقتعدت الأرجوحة وفيما كانت تتحدث نزعت حذاءها، وفيما هي تواصل الحديث راحت تنظر بوضوح إلى أظافر قدميها التي طليت بلون أحمر متوهج.

جلس العمدة إزاءها مستجلباً الهواء بقبعته وراح يتابع حديثها باستقامة تقليدية، كان قد عاد إلى التدخين وحينما دقت الساعة الثانية عشرة اضطجعت على وجهها في الأرجوحة، مدّت يدها المحلاة بأساور صخابة وأمسكت بطرف أنفه.

قالت: تأخر الوقت يا فتى، أطفىء النور.

ابتسم العمدة.

قال: «لم أبعث إليك لهذا».

لم تدرك ما يعنيه.

تساءل العمدة: «أتعرفين كيف تتنبأين بالطالع؟»

نهضت كاساندرا من الأرجوحة مرة أخرى، وقالت: «بالطبع» وبعد أن فهمت غرضه انتعلت حذاءها.

قالت: «لكني لم أجلب أوراق اللعب معي».

ابتسم العمدة: «كل مَن يأكل القذر يحمل معه ترابه».

التقط مجموعة ورق لعب بالية من أعماق حافظته، ففحصت كل ورقة على حدة من جانبيها بانتباه جاد، ثم قالت: الأوراق الأخرى أفضل، ولكن على أية حال فالمهم الرسالة التي تنقلها، قرب العمدة منضدة صغيرة ووضعها بينهما وجلس إزاءها، ووضعت كاساندرا الأوراق عليه.

تساءلت: «الحب أم العمل؟»

جفف العمدة العرق المتحدر على كفيه.

قال: «العمل».

الفصل السادس

لاذ حمار شارد بعطنف الأبرشية من المطر ومكث هناك طوال الليل رافساً جدار مخدع القس بقائمتيه الخلفيتين فانقضت الليلة حافلة بالأرق، واستيقظ الأب أنجيل بعد اقتناص غفوة مفاجئة عند السحر شاعراً بأن التراب يغطيه، بدت سنابل الطيب الراقدة تحت المطر ورائحة المرحاض وداخل الكنيسة الكئيب بعد انذياح دقات أجراس الساعة الخامسة وكأنها جميعاً تتآمر لتشكل ذلك الفجر العصي الاحتمال.

من الموهف حيث كان يرتدي ملابسه لترتيل القداس سمع ترينيداد وهي تلملم حصادها من الفئران النافقة فيما كانت النسوة المتسللات التي اعتدن التردد على الكنيسة يلجنها، وخلال القداس لاحظ بنفاد صبر متفاقم أخطاء القندلفت ونعته اللاتينية المتخلفة وراوده في اللحظة الأخيرة ذلك الشعور بالاحباط الذي كان يعذبه في ساعات النحس طوال عمره.

حينما شقَّ طريقه لتناول طعام الإفطار اعترضته ترينيداد بملامح مشرقة، وقالت وهي تهز الفئران النافقة في الصندوق:

«ستة فئران إضافية اليوم» فحاول الأب أنجيل أن يتجاوز اضطرابه.

قال: «رائع، بهذا المعدل سنعثر على جحورها وننهي مهمة القضاء عليها كلية».

كانت ترينيداد قد عثرت على جحور الفئران، فأوضحت كيف أنها رصدت فتحات هذه الجحور في أرجاء شتى من الكنيسة وخاصة في البرج وبيت المعمودية وكيف أنها سدتها بالقطران، وفي ذلك الصباح ألفت الفئران تقرض الجدران في اضطراب بعد أن أمضت الليلة تبحث عن أبواب دارها.

خرجا إلى الباحة الممهدة الصغيرة حيث كانت سنابل الطيب الأولى قد شرعت في النمو مستقيمة الأطراف، وعلى مهل ألقت ترينيداد بالفئران في المرحاض، وحينما مضى الأب أنجيل إلى مكتبه تأهب لالتهام طعام الإفطار بعد إزالة المفرش الصغير الذي كان يجد تحته كل صباح وكأنما بسحر ساحر الإفطار الذي ترسله الأرملة آزيس كل صباح وقد احتل مكانه المعتاد.

قالت ترينيداد وهي تدلف إلى الغرفة: «نسيت القول بأني لم أستطع ابتياع الزرنيخ، ويقول دون لالو موسكوته إنه لا يباع إلاّ بأمر الطبيب».

قال الأب أنجيل: «لن يكون الزرنيخ ضرورياً، فالفئران ستختنق جميعاً حتى الموت في جحورها».

قرّب المقعد من المائدة، شرع في ملء قدحه وتكديس شرائح اللحم المفروم مع دقيق الذرة والفلفل الأحمر المعروف

باسم الكامال كوب القهوة الذي حفرت عليه صورة تنين ياباني، فيما كانت ترينيداد تفتح النافذة قالت: «من الأفضل دائماً أن تكون على استعداد حينما تعود الفئران». صب الأب أنجيل قهوته، فجأة توقف ونظر إلى ترينيداد بردائها الذي لا قوام له وحذائها العالي فيما هي تقترب من المنضدة.

قال: «هذا يثير قلقك كثيراً».

لم يكن الأب أنجيل قد لاحظ في ذلك الوقت أو من قبل أي إشارة للقلق في انعقاد حاجبي ترينيداد المحكم، ودون أن يتمكن من السيطرة على رعشة اجتاحت أصابعه أنهى صب القهوة لنفسه وأضاف إليها ملء ملعقتين من السكر وشرع في تقليب محتويات الكوب وقد سلط نظرة نافذة على صورة المسيح المصلوب المعلقة على الحائط.

- متى اعترفت للمرة الأخيرة؟

ردت ترينيداد: «يوم الجمعة الماضي».

قال الأب أنجيل: «خبريني، هل أخفيت شيئاً عني؟»

هزت رأسها نافية.

أغمض الأب أنجيل عينيه، فجأة كف عن تقليب القهوة، وضع الملعقة على الصحفة وقبض بشدة على ذراع ترينيداد.

قال: «اركعي!»

دون قلق وضعت ترينيداد الصندوق الكرتوني على الأرض وركعت أمامه، قال لها الأب أنجيل وقد نجح في اكساب صوته

نغمة الاعتراف الأبوية: «رتلي صلاة الندم» فضمت ترينيداد قبضتيها أمام صدرها وراحت تصلي في غمغمة غير مفهومة إلى أن وضع القس كفه على كتفها وقال:

ـ طيب.

قالت ترينيداد: «كذبت كثيراً».

ـ وماذا أيضاً؟

ـ تراودني خواطر سيئة.

كان هذا ترتيب اعترافها، تعدد دائماً الخطايا ذاتها بشكل عام وبالترتيب ذاته دائماً، غير أنه في هذه المرة لم يستطع الأب أنجيل أن يقاوم دافعاً دفعه إلى أن يضرب في الأعماق.

قال: «مثلاً».

ترددت ترينيداد وقالت: «لست أدري، أحياناً تراود الناس خواطر سيئة».

نهض الأب أنجيل واقفاً.

ـ هل فكّرت يوماً في الانتحار؟

صاحت ترينيداد مندهشة دون أن ترفع رأسها وقد ارتطمت أشاجعها برجل المائدة في الوقت نفسه: «تقدست يا مريم، يا أم الرب!» ثم ردت: «لا، يا أبت!»

جعلها الأب أنجيل ترفع رأسها، فلاحظ بمزيد من الأسى أن عيني الفتاة قد شرعتا في الامتلاء بالدموع.

ـ أتعنين أن الزرنيخ حقاً للفئران؟

ـ نعم، يا أبت!

ـ فعلام تبكين إذن؟

حاولت إحناء رأسها لكنه أمسك ذقنها بإحكام فانفجرت باكية، وشعر بالدموع تنساب بين أصابعه كالنحل الدافىء.

قال: «حاولي تهدئة نفسك، فلم تكملي بعد اعترافك».

تركها تنخرط في بكاء صامت، وحينما أحسَّ بأنها قد كفّت عن البكاء قال بصوت لين:

ـ طيب، الآن خبريني!

أفرغت ترينيداد أنفها بطرف ردائها، وابتلعت لعاباً غليظاً ملحته الدموع، وحينما استأنفت الحديث كانت قد استردت صوتها الجهير الغريب.

قالت: عمي أمبروزيو يطاردني.

ـ كيف؟

ـ يريدني أن أدعه يمضي ليلة في فراشي.

ـ استمري!

نهرها القس: «لا تقسمي!» ثم سأل بصوت قس الاعتراف الهادىء: «مع مَن ترقدين؟»

قالت ترينيداد: «مع أمي والآخرين، سبعة في الغرفة ذاتها».

- ماذا عنه؟

قالت ترينيداد: «في الغرفة الأخرى مع الرجال».

- هل حدث أن ولج غرفتك؟

هزت رأسها نافية.

أصر الأب أنجيل: «حدثيني بالحقيقة، هيا، لا تخافي، ألم يحاول الرقاد في فراشك قط؟»

- ذات مرة.

- كيف حدث ذلك؟

قالت: «لست أدري، فحينما استيقظت أحسست به تحت الكلة صامتاً تماماً، قال لي إنه لا يريد أن يفعل بي شيئاً ولكنه أراد أن يرقد معي لأنه يخاف الديكة.

- أي ديكة؟

قالت: «لا أدري، هذا ما حدثني به».

- وماذا قلت له؟

- إنني سأصرخ وأوقظ الجميع إذا لم يرحل.

وماذا فعل؟

- استيقظت كاستولا وسألتني عما يجري فقلت لا شيء ولا بد أنني كنت أحلم وعندئذ لزم الهدوء البالغ كأنه ميت ولم أكد ألحظ الأمر حينما انسل من تحت الكلة.

قال القس مؤكداً: «كان مرتدياً ثيابه؟»

قالت: «كان على النحو الذي يرقد به، مرتدياً سراويله فحسب».

- لم يحاول أن يمسك؟

- لا، يا أبت!

- حدثيني بالحقيقة.

أصرت ترينيداد على قولها: «إنها الحقيقة يا أبت واقسم بالله».

رفع الأب أنجيل رأسها مجدداً وحدّق في عينيها المغرورقتين بالدمع وبريقهما الحزين.

- لِمَ أخفيت الأمر عني؟

- كنت خائفة.

- خائفة ممَّ؟

- لا أدري، يا أبت!

وضع كفه على كتفها ومحضها النصح طويلاً فأومأت برأسها موافقة، وحينما أنهيا الاعتراف بدأ في الصلاة معها بصوت خفيض للغاية: «أبانا يسوع المسيح الرب الحق والإنسان الحق. . .» كان يرتل الصلاة بعمق وبرهبة محققة مستعيداً في غمار صلواته ذهنية لحياته بقدر ما يمكن للذاكرة أن تتيحه، وفي لحظة منح الغفران حزم شعور بالكارثة حول روحه.

فتح العمدة الباب صائحاً: «أيُها القاضي» فبدت زوجة القاضي عند باب المخدع وهي تجفف يديها على أطراف ثوبها.

قالت: لم يأت إلى الدار منذ يومين.

قال العمدة: «أوه، يا للجحيم، بالأمس لم يظهر في مكتبه، بحثت عنه في كل مكان لأمر عاجل فلم يستطع أحد أن يخبرني أين هو: ألا تعرفين أين يمكن أن يكون؟»

ـ لا بد أنه في صحبة العاهرات.

غادر العمدة الدار دون أن يغلق الباب خلفه، انطلق إلى مكتب المراهنات حيث كان الحاكي الآلي يمج أغنيات عاطفية بأعلى طبقات صوته، فدلف إلى الغرفة الخلفية مباشرة صائحاً: «أيُها القاضي!» توقف دون روكه صاحب المكتب عن صب زجاجات الروم في قدحه وصاح: «ليس هنا أيُها الملازم!» عبر العمدة الحاجز، كانت جماعات من الرجال عاكفة على لعب الورق، لم يكن أحدهم قد رأى القاضي.

قال العمدة: «اللعنة، الجميع في هذه البلدة يعرفون ما يفعله الآخرون، أما الآن وقد احتجت القاضي فما من أحد يعرف أين مضى».

قال دون روكه: «سل معلق نشرات الفضائح».

قال العمدة: «لا تهزل معي حول هذه الوريقات».

لم يكن القاضي أركاديو بالمكتب أيضاً، كانت الساعة التاسعة لكن السكرتير كان يغط بالفعل في الرواق، فمضى العمدة

إلى ثكنات الشرطة وجعل ثلاثة من الرجال يرتدون ملابسهم وأرسلهم للبحث عن القاضي في المرقص وفي غرف النسوة الثلاث التي يعرف الجميع أنهن يمارسن الفجور سراً، ثم مضى إلى الشارع دون هدف محدد، كان القاضي أركاديو في حانوت الحلاق مقتعداً الكرسي مباعداً قدميه إحداهما عن الأخرى وقد وضعت منشفة ساخنة حول وجهه.

صاح العمدة: «اللعنة أيُها القاضي، بحثت عنك يومين كاملين».

نزع الحلاق المنشفة فرأى العمدة عينين عائمتين وذقناً لم تمسها الموسى منذ ثلاثة أيام.

قال: «ها أنت تمارس الضياع فيما زوجتك تلد».

قفز القاضي من مقعده: «هراء!»

قهقه العمدة ودفعه إلى المقعد مجدداً وقال: «لا تكن أحمق، كنت أبحث عنك لسبب آخر» فتراخى القاضي من جديد مغمضاً عينيه، قال العمدة: «انته من هذا وهيّا إلى المكتب، سأنتظرك».

اقتعد إحدى الدرجات.

ـ أين كنت بحق الجحيم؟

قال العمدة: «في الجوار».

لم يكن العمدة عميلاً مستديماً للحلاق، وكان قد رأى ذات مرة اللافتة المعلقة على الحائط: ممنوع الحديث في السياسة،

لكنها بدت له طبيعية، أما في هذه المرة فقد لفتت نظره.

ناداه: «جارديولا!»

نظف الحلاق الموسى في سراويله وظلّ منتظراً.

- ما الأمر أيّها الملازم؟

تساءل العمدة مشيراً إلى اللافتة: «مَن الذي خوّلك تعليق هذه؟»

قال الحلاق: «التجربة».

قرّب العمدة مقعداً عالياً من خلفية الحانوت واعتلاه ليزيل اللافتة.

قال: «الحكومة هنا هي الوحيدة المخوّلة صنع أي شيء، إننا نحيا في ظلّ الديمقراطية».

عاد الحلاق إلى عمله فاستأنف العمدة حديثه: «لا أحد يمكنه أن يحول دون تعبير الناس عن أفكارهم» وراح يمزّق اللافتة الورقية وألقى بالوريقات إلى سلة المهملات ومضى إلى المغسل ليغسل يديه.

قال: «كما ترى يا جارديولا فما وقع لك جرى لأنك تجعل نفسك بمثل هذه التفاهة».

حدج الحلاق بنظرته في المرآة فوجده منهمكاً في عمله ولم يرخ عينيه عنه فيما كان يجفف يديه.

قال: «الفارق بين ما سبق والوقت الحاضر أنه في الماضي

كان الساسيون هم الذين يصدرون الأوامر أما الآن فالحكومة هي التي تصدرها.

قال القاضي وذقنه غارقة في رغوة الصابون: «أسمعته يا جارديولا؟»

قال الحلاق: «بالطبع».

لدى مغادرته الحانوت دفع العمدة القاضي أركاديو باتجاه المكتب، بدت الشوارع تحت المطر ممهدة بصابون حديث الصنع.

قال العمدة: «كنت أعتقد دائماً أن هذا المكان وكر للمتآمرين».

قال القاضي أركاديو: «إنهم يثرثرون، لكن الأمر لا يتجاوز ذلك».

ردّ العمدة: «ذلك على وجه الدقة ما يثير شكوكي، إنهم يتحركون بدماثة بالغة».

قال القاضي: «لم يكن في تاريخ البشرية بأسره حلاق واحد تآمر وعلى العكس لم يكن هناك حائك واحد بعيد عن المؤامرات».

لم يفلت العمدة ذراع القاضي أركاديو إلاّ بعد أن أجلسه على المقعد الدوار، أقبل السكرتير متثائباً إلى المكتب وهو يحمل ورقة من أوراق الآلة الطابعة فقال العمدة: «هكذا، دعنا نعكف على العمل» أزاح قبعته للخلف وأمسك بالورقة.

- ما هذا؟

قال السكرتير: «إنها للقاضي، قائمة بأولئك الذين لم تعلق نشرات فضائح على أبوابهم».

رمق العمدة القاضي وقد بدت الحيرة على ملامحه.

صاح: «أوه، يا للهراء، وهكذا فإنك غارق في الاهتمام بهذا الأمر كذلك».

قال القاضي بلهجة تحمل الاعتذار: «الأمر يحاكي قراءة رواية بوليسية».

قرأ العمدة القائمة.

أوضح السكرتير الأمر: إنها معلومات طيبة، فالقائم بتدبيج النشرات لا بد أن يكون أحد هؤلاء، أليس هذا منطقياً؟»

انتزع القاضي أركاديو الورقة من العمدة: «هذا السكرتير بالغ الحماقة» قالها محدثاً العمدة، ثم التفت إلى السكرتير: «لو أنني كنت أعلق نشرات الفضائح لكان أول باب أعلق عليه نشرة هو بابي، لأتخلص من أي شك يدور حولي» ثم سأل العمدة:

- ألا تعتقد أن الأمر كذلك أيها الملازم؟

قال العمدة: «تلك مشكلة الناس، وهم وحدهم يعرفون كيف يسير الأمر وليس من شأننا أن نتصبب عرقاً بسببها».

مزّق القاضي أركاديو الورقة وصنع منها كرة قذف بها إلى الفناء وهو يقول: «بالطبع».

قبل أن يرد العمدة كان قد نسي الواقعة بالفعل، فوضع راحتيه على المكتب وقال:

- طيب، المشكلة التي أريدك أن تراجع حولها دفاترك هي الآتي: لقد قام سكان الجزء الأدنى من البلدة بسبب الفياضانات بجلب دورهم إلى الأرض الواقعة خلف المقبرة وهي أرض تقع في ملكيتي، فماذا عليّ أن أفعل في هذه الحالة؟

ابتسم القاضي أركاديو.

قال: «لم يكن يتعين علينا المجيء إلى المكتب من أجل هذا الأمر، إنه أبسط الأمور في العالم، فحكومة المدينة تمنح الأرض للمستقرين عليها وتدفع التعويض المناسب للشخص الذي يثبت ملكيته لها».

قال العمدة: «لدي الوثائق التي تثبت ذلك».

قال القاضي: «إذن فليس هناك ما يتعين القيام به إلاّ تعيين بعض الخبراء لتقدير ثمن الأرض ثم تدفع الحكومة قيمتها».

- مَن يعينهم؟

- يمكنك تعيينهم بنفسك.

مضى العمدة إلى الباب وهو يثبت قراب مسدسه، راح القاضي أركاديو وهو يراقبه يحدث نفسه بأن الحياة ليست إلاّ تتابعاً مستمراً لفرص البقاء على قيدها.

ابتسم قائلاً: «ليس هناك ما يدعو إلى العصبية حول مثل هذا الأمر البسيط».

قال العمدة جاداً: «إنني لست عصبياً، لكن ذلك لا يحول دون أن تكون مشكلة».

تدخل السكرتير في الحديث: «بالطبع فعليك أولاً أن تعيّن وكيلاً قضائياً لبحث الأمر».

التفت العمدة إلى القاضي.

أهذا صحيح؟

قال القاضي: «في حالة الطوارىء ليس هذا الإجراء أمراً لا يمكن الاستغناء عنه، لكن موقفك بالطبع سيكون أكثر وضوحاً إذا ما قام وكيل قضائي بمعالجة الأمر وذلك في ضوء ما تصادف من أنك مالك الأراضي موضوع التداول».

نقل السيد بنيامين قدمه على صندوق تلميع الأحذية دون أن يبعد ناظريه عن الصقور التي كانت تتعارك حول بعض الامعاء في الشارع، راح يراقب الحركات العسيرة لتلك المخلوقات المطوقة والطقوسية كما لو كانت تؤدي رقصة عتيقة، وأبدى اعجابه بدقة التقليد التي يبدعها أولئك الذين يتنكرون في هيئة الصقور في أحد الخمسين، غطى الصبي الجالس عند قدميه فردة الحذاء الأخرى بأكسيد الزنك وطرق الصندوق طالباً تغيير القدم الموضوعة على الصندوق.

لم يحدث قط أن كان السيد بنيامين الذي عاش في الأيام الخوالي من كتابة المقالات القصيرة في عجلة من أمره للوصول إلى أي شيء، وكانت سرعة الزمن شيئاً لا يمكن إدراكه في ذلك المتجر الذي اقتات بمحتوياته دانقاً فدانق إلى أن أصبح خاوياً إلاّ

من غالون من الزيت وحزمة من الشموع المصنوعة من شحم الحيوانات.

قال الصبي: «الجو يظل حاراً ولو أن السماء تمطر».

لم يوافقه السيد بنيامين، كان يرتدي حلة كتانية نظيفة، وبالمقابل كان ظهر الفتى غارقاً في العرق.

قال بنيامين: «الحر مسألة ذهنية، يتوقف الأمر كله على عدم اكتراثك به».

لم يعقب الصبي، طرق الصندوق مرة أخرى وبعد لحظة أنهى مهمته، داخل المتجر الكئيب الخاوي الرفوف ارتدى السيد بنيامين سترته ثم وضع على رأسه قبعة مصنوعة من القش وعبر الشارع متقياً المطر بمظلة وطرق نافذة المنزل المقابل، لاحت لدى الباب فتاة ذات شعر فاحم ووجه بالغ الشحوب.

قال السيد بنيامين: «أسعدت صباحاً يا مينا، ألم تتناولوا طعام الغذاء بعد؟».

ردت بالنفي وفتحت النافذة على مصراعيها، كانت تجلس أمام سلة ضخمة بها قطع من السلك والورق الملون، كانت في حجرها كرة من الخيط وبعض القصاصات وباقة لم تكتمل من الزهور الصناعية، كان الحاكي يصدح بإحدى أغانيه.

سأل السيد بنيامين: أتسدين إليّ جميلاً بمراقبة المتجر حتى عودتي؟

ـ هل ستغيب طويلاً؟

كان السيد بنيامين يتابع الموسيقى.

قال: «أنا ذاهب إلى طبيب الأسنان وسأعود خلال نصف ساعة».

قالت مينا: «أوه، جميل فالمرأة الضريرة لا تريدني أن أمكث إلى جوار النافذة».

وقف السيد بنيامين مصغياً للموسيقى وعقب قائلاً: «كل الأغنيات اليوم متشابهة» التقطت مينا زهرة لم تكتمل في نهاية قطعة طويلة من السلك ملفوفة بورق أخضر، لفتها بين أصابعها مبهورة بالتماثل بين الأغنية والزهرة.

قالت: «أنت واحد ممن يمقتون الموسيقى».

لكن السيد بنيامين كان قد رحل ماشياً على أطراف أصابعه حتى لا تجفل الصقور، فلم تلتقط مينا عملها إلاّ بعد أن رأته يطرق باب طبيب الأسنان.

أقر السيد بنيامين قائلاً: «هذا محتمل ولكن ما أهميته؟»

قال طبيب الأسنان وهو يفتح الباب: «في اعتقادي أن حساسية الحرباء تكمن في عينيها».

بعد أن وضع السيد بنيامين مظلته المفتوحة في أحد الأركان علق سترته وقبعته على المسمار نفسه وجلس على مقعد الطبيب، الذي كان يخلط عجينة حمراء وردية في هاونه.

قال السيد بنيامين: «إنهم يقولون أشياء كثيرة».

تحدّث بتغير غامض في درجة الصوت لا في هذه الحالة فحسب وإنما في الظروف الأخرى كافة.

ـ عن الحرباء؟

ـ عن الجميع.

اقترب طبيب الأسنان من المقعد بالعجينة الجاهزة لقياس الأسنان، فنزع السيد بنيامين طاقم أسنانه المكسور ولفه بمنديل ووضعه على الرف الزجاجي خلف المقعد، كان هناك ما يجعله يشبه القديس وهو يجلس دون أسنان بكتفيه الهزيلين وأطرافه المعروفة، وبعد تثبيت العجينة بالحنك جعله طبيب الأسنان يغلق فمه.

قال الطبيب محدقاً في عينيه: «هكذا الأمر، إنني جبان».

حاول السيد بنيامين العثور على مصدر عميق للإلهام، لكن طبيب الأسنان أمسك بفمه مغلقاً إياه، فأجاب مغمغماً: لا، ليس الأمر كذلك، كان يعلم شأن الجميع أن طبيب الأسنان كان الوحيد ممن صدرت ضدهم أحكام الإعدام الذي لم يهجر داره، رشقوا الجدران بالطلقات ومنحوه أربعاً وعشرين ساعة ليغادر البلدة لكنهم لم يفلحوا في تحطيمه، نقل عيادته إلى غرفة داخلية ودون أن يفقد سيطرته على نفسه راح يعمل ومسدسه في متناول يده إلى أن مرت شهور الارهاب الطويلة.

وفيما استمر العمل رأى طبيب الأسنان الاستجابة ذاتها وقد عبّرت عنها درجة مختلفة من الغضب تتجلى في عيني السيد بنيامين، لكنه أمسك بفمه وأبقاه مغلقاً منتظراً جفاف العجينة، ثم نزعها وقد حملت تركيب الحنك.

قال السيد بنيامين متحففاً مما يثقله: «لم أكن أشير إلى هذا وإنما إلى النشرات».

قال طبيب الأسنان: «أوه، أتهتم بهذا الأمر أنت أيضاً؟»

قال السيد بنيامين: «إنها أحد أعراض التحلل الاجتماعي».

أعاد وضع طاقم أسنانه في فمه وشرع في المهمة الشاقة المتمثلة في ارتداء سترته.

قال طبيب الأسنان بلا مبالاة: «إنها عرض لانكشاف كل شيء إن آجلاً أو عاجلاً» تطلع إلى السماء الغائمة من خلال النافذة وقال مقترحاً: «بوسعك الانتظار إلى أن يتوقف المطر».

قال السيد بنيامين وهو يعلق المظلة بذراعه ويلاحظ بدوره السماء المثقلة بالمطر الهاطل: «الحانوت وحده» ولوّح بقبعته مودعاً.

وقال لدى الباب: «وانزع من رأسك يا أوريليو هذه الفكرة، فليس لأحد الحق في أن يظن أنك جبان لأنك نزعت ضرس العمدة».

قال طبيب الأسنان: «في هذه الحالة انتظر ثانية!»

مضى إلى الباب وأعطى السيد بنيامين ورقة مطوية.

ـ اقرأها ومرّرها إلى الآخرين.

لم يكن السيد بنيامين بحاجة إلى تصفح الورقة ليعلم ما تتحدث عنه، تطلع إليها فاغراً فاه.

ـ من جديد؟

أومأ طبيب الأسنان برأسه وظلّ بالباب حتى رحل السيد بنيامين.

في الساعة الثانية عشرة نادته زوجته لتناول طعام الغداء، كانت ابنته أنجيلا البالغة العشرين من عمرها ترتق الجوارب في غرفة الطعام المؤثثة على نحو بسيط ومتقشف بأشياء بدت عتيقة حتى جذورها، وعلى الحاجز الخشبي المواجه للفناء كان هناك صف من الأصص الحمراء الحافلة بالنباتات الطبية.

قال طبيب الأسنان لحظة جلوسه إلى المائدة المستديرة: «مسكين بنيامين البائس، إنه يبدي اهتماماً كبيراً بنشرات الفضائح».

قالت زوجته: «الجميع يهتمون بها».

تدخلت أنجيلا في الحديث قائلة: «نسوة التوفار يغادرن المدينة».

جمعت الأم الأطباق لتقديم الحساء، وقالت: «إنهن يبعن كل شيء باندفاع محموم» وحينما اشتم طبيب الأسنان عرف الحساء الدافىء شعر بأنه بعيد عن مخاوف زوجته.

قال: «سيرجعن، فالحياء ذاكرته ضعيفة» ونفخ في ملعقته قبل تناول حسائه، وانتظر تعقيب ابنته، كانت فتاة جانحة المظهر شأن أبيها لكن نظرتها كانت رغم ذلك توحي بحيوية غريبة، لكنها خيبت توقعه فتحدثت عن السيرك وقالت إن هناك رجلاً يبتر

زوجته إلى نصفين بمنشاره ولاعب ماهر في القفز يؤدي قفزة ثلاثية وتحته فراش من السكاكين ومروض وحوش يغني ورأسه في فم أسد، أصغى إليها الطبيب وهو يتناول طعامه صامتاً، وفي النهاية وعد بأنه إن لم تمطر السماء سيذهبون جميعاً إلى السيرك.

في المخدع كان بوسع الطبيب أن يرى وهو ينصب أرجوحته ليغفو خلال القيلولة أن هذا الوغد لم يغير حالة زوجته المزاجية، فقد كانت بدورها على استعداد لمغادرة البلدة إذا ما علقوا نشرة فضائح عنهم.

أصغى إليها دون شعور بالدهشة وقال: «سيكون أمراً ضاحكاً إذ لم يفلحوا في التخلص منا بالرصاص أن يتخلصوا منا بقطعة من الورق تلصق على بابنا» نزع حذاءه وصعد إلى أرجوحته بجوربيه وهو يحاول تهدئتها».

ـ لكن لا تقلقي فليس هناك أدنى احتمال لتحقق خطر قيامهم بتعليق نشرة فضائح على جدارنا.

قالت المرأة: «إنهم لا يحترمون أحداً».

قال الطبيب: «الأمر يختلف من حالة لأخرى، وهم يعرفون أن هذا الشيء سيكون له في حالتي ثمن آخر مختلف».

تمددت المرأة على الفراش وقد بدا عليها إعياء بالغ.

ـ ذلك إذا ما كان مَن يعلقها يعرف.

قال طبيب الأسنان: «مَن يعلقها يعرف هذا».

اعتاد العمدة أن يقضي أياماً بطولها دون أن يطعم شيئاً، كان ببساطة ينسى ذلك، وكان نشاطه الذي يغدو محموماً في

بعض الأحيان على نحو غير منتظم شأن فترات الكسل والضجر الممتدة التي يضرب خلالها في المدينة ضائعاً دون هدف محدد أو يعتكف في مكتبه المحصن دون إحساس بمرور الزمن، وحيداً دوماً، شارداً قليلاً دائماً دونما اهتمامات خاصة ودون أن يستطيع تذكر وقت كانت تحكمه فيه عادات منتظمة، كان يظهر في أي ساعة بالفندق تحكمه سرعة لا تقاوم فحسب ويتناول أي طعام يقدمونه له.

تناول طعام الغداء في هذا اليوم مع القاضي أركاديو، وقضيا الأصيل كله معاً حتى تمَّ اتخاذ الاجراءات القانونية الخاصة بصفقة الأرض، قام الخبراء بواجبهم وشغل الوكيل القضائي الذي عُيِّن على أساس مؤقت منصبه لمدة ساعتين، وبعد الساعة الرابعة بقليل مضيا معاً إلى مكتب المراهنات وقد لاح عليهما كلاهما أنهما عادا من غزو مؤلم قام به المستقبل.

قال العمدة وهو يفرك يديه سروراً: «هكذا انتهينا من الأمر».

لم يبد القاضي أركاديو أي اهتمام به، ورآه العمدة يتحسس ما فوق المنضدة فأعطاه قرصاً مهدئاً.

أصدر أمراً لدون روكه: «هات كوباً من الماء!»

صحح القاضي أركاديو الأمر محنياً جبينه على المنضدة: «جعة باردة».

فاستجاب العمدة واضعاً النقود: «جعة باردة، لقد استحققتها بعملك كالرجال».

بعد تجرع الجعة حكّ القاضي أركاديو فروة رأسه بأصابعه، كان المشرب يموج بجو احتفالي في انتظار مثير لاستعراض السيرك.

راقب العمدة الاستعراض من مكتب المراهنات وقد هزته آلات الفرقة النحاسية وأرديتها المزركشة، مرّت أولاً فتاة صغيرة على فيل صغير له أذنان عريضتان ثم مرَّ المهرجون وفنانو الأرجوحة الهوائية، كانت السماء صافية تماماً وشرعت أشعة الشمس الأخيرة في تدفئة الأصيل الذي غسله المطر، وحينما توقفت الموسيقى حتى يتمكن الرجل الذي اعتلى الطوالة من قراءة الإعلان بدت البلدة بأسرها وكأنها تنهض من الأرض في صمت عجائبي.

تابع الأب أنجيل الذي راقب العرض من مكتبه الموسيقي بهزات إيقاعية من رأسه، وصاحبه هذا الشعور بالارتياح خلال تناول وجبته في أول المساء حتى كفّ عن رصده لعملية دخول دار السينما وألقى نفسه وحيداً في غرفة نومه، بعد الصلاة مكث في غبطة مهمهمة في مقعده الهزاز دون شعور بدقات الساعة التاسعة أو توقف مكبر الصوت في دار السينما وحلول نقيق الضفادع محله، ومن مقعده نهض إلى مكتبه ليكتب خطاب استدعاء للعمدة.

في أحد مقاعد الشرف بالسيرك وبناء على إصرار المدير شاهد العمدة الجلسة الافتتاحية التي قدمها لاعبو الأرجوحات الهوائية وفاصلاً مضحكاً قدّمه المهرجون، ثم ظهرت كاساندرا في رداء من القطيفة السوداء وقد عصبت عينيها وهي تعرض على

الحاضرين تخمين أفكار الجمهور فلاذ العمدة بالهرب، وقام بجولته المعتادة عبر أنحاء المدينة وفي العاشرة مضى إلى ثكنات الشرطة، وهناك كان في انتظاره على ورقة كتبت بخط مجهد استدعاء من الأب أنجيل، فأثار الطابع الرسمي للطلب إحساسه بالخطر.

كان الأب أنجيل قد شرع في نزع ثيابه حينما طرق العمدة الباب، قال القس: «جوللي! لم أكن أتوقع وصولك بمثل هذه السرعة» فنزع العمدة قبعته قبل الدخول.

قال مبتسماً: «أحب أن أرد على بريدي».

ألقى بقبعته على المقعد الخيزراني الهزاز بعد أن جعلها تدق كالقرص، كانت هناك زجاجات صودا عديدة في جرار فخارية وضعت لتبرد في الماء المجلوب من الحوض، التقط الأب أنجيل إحداها.

ـ أتحب شراب الليمون؟

قَبِلَ العمدة الشراب.

قال القس مقتحماً لب الموضوع مباشرة: «لقد سببت لك ضيقاً لأحدثك عن مخاوفي فيما يتعلق بعدم اكتراث بنشرات الفضائح».

قال ذلك على نحو قد يفسر بأنه طرفة لكن العمدة أخذ الكلام بظاهره، وتعجّب متحيراً كيف جعل القلق الأب أنجيل يصل إلى هذا الحد.

- غريب يا أبت أنك مهتم بهذا الموضوع على هذا النحو.

قال الأب أنجيل فيما هو يبحث عن فتاحة للزجاجات في أدراج مكتبه: «ليست نشرات الفضائح في ذاتها هي التي تقلقني» قالها متحيراً قليلاً وهو لا يدري ما يصنع بالزجاجة وأضاف: «إن ما يقلقني ولنعبر عن الأمر على هذا النحو هو حالة الظلم المتضمنة في هذا كله».

أخذ العمدة الزجاجة منه وفتحها بإبزيم حذائه بمهارة من يده اليسرى جذبت انتباه الأب أنجيل، ولعق الزبد المتدفق على عنق الزجاجة.

شرع في الحديث دون أن يفلح في الوصول إلى خلاصة للحديث: «هناك حياة سرية، أقول جاداً يا أبت إنني لا أدري ما يمكن عمله».

جلس القس إلى مكتبه وقال: «كان عليك أن تعرف، فالأمر في النهاية لا يتضمن جديداً بالنسبة لك» شمل الغرفة بنظرة غامضة ثم قال بنغمة مختلفة:

- سيتعين القيام بشيء قبل يوم الأحد المقبل.

كان العمدة دقيقاً في رده: «اليوم هو الخميس».

ردَّ القس: «إنني أدرك المدى الزمني» وأضاف بدافع خفي: «ولكن لعل الوقت ليس متأخراً لقيامك بأداء واجباتك».

حاول العمدة ثني عنق الزجاجة، راقبه الأب أنجيل وهو يمضي من أحد جانبي الغرفة إلى الجانب الآخر جاداً وممشوق

القوام دون أن تلوح عليه إمارة بدنية واحدة على التقدم في السن فراوده شعور قاطع بالدونية.

قال بلهجة تقريرية: «كما ترى فليس الأمر استثنائياً».

أعلن برج الأجراس الساعة الحادية عشرة، انتظر العمدة حتى انداح في الصمت رنين الدقة الأخيرة ثم مال على العمدة وكفاه على المكتب وعلى وجهه القلق المكبوح الجماح الذي سيشي به صوته.

شرع في الحديث قائلاً: «تأمل أمراً واحداً، البلدة هادئة وقد بدأ الناس يمحضون السلطات ثقتهم وأي إظهار للقوة في هذا الوقت سيكون مغامرة هائلة بالنسبة لشيء على مثل هذه الأهمية المحدودة».

أومأ الأب أنجيل برأسه موافقاً، وحاول شرح موقفه: - إنني أشير بصفة عامة إلى وسائط معينة للسلطة، استطرد العمدة دون تغيير لموقفه: «على أية حال فالظروف موضع اعتبار، وكما تعلم فلدي ستة جنود مسجونون في الثكنات يقبضون رواتبهم دون القيام بشيء ولم أستطع الحصول على مَن يحل محلهم».

قال الأب أنجيل: «أعرف هذا ولست ألومك على أي شيء».

واصل العمدة حديثه متشدداً دون مبالاة بالمقاطعة: «لم يعد سراً أن ثلاثة منهم هم مجرمون عاديون أطلق سراحهم من السجن وتنكروا كرجال شرطة، وعلى النحو القائم حالياً لن أخاطر بحشدهم في الشوارع لمطاردة أشباح.

لوَّح الأب أنجيل بذراعيه.

أقر بلهجة حاسمة: «بالطبع، بالطبع، هذا بالطبع غير مطروح، ولكن لِمَ لا تلجأ على سبيل المثال إلى المواطنين الصالحين».

تمطى العمدة، ارتشف من الزجاجة رشفات طويلة، كان العرق يغلل ظهره وصدره، قال:

ـ المواطنون الصالحون كما تدعوهم يهلكون من فرط الضحك على نشرات الفضائح.

ـ ليسوا كلهم كذلك.

أنهى العمدة حديثه بروح مرحة: «أضف إلى ذلك وبصراحة يا أبت أنه ليس أمراً طيباً إثارة مخاوف الناس بشأن أمر ليست له أهمية كبيرة في المدى الطويل، فحتى الليلة لم يخطر ببالي أنا وأنت سيكون لنا شأن بهذه المشكلة».

اتخذ الأب أنجيل موقفاً أمومياً وردَّ قائلاً: «نعم، هذا صحيح حتى مدى معين» ثم شرع في تسويغ مجهد مستخدماً الفقرات التي أتمها من العظة التي كان يعدها في ذهنه منذ اليوم السابق على مائدة الغداء مع الأرملة آزيس.

وأخيراً وصل إلى ما ينشده: «إنها مسألة حالة من حالات الارهاب بالمعنى الأخلاقي إذا ما كان للمرء أن يقول ذلك».

أبدى العمدة ابتسامة صريحة فقاطع القس تقريباً بقوله: «جميل، جميل وهي ليست حالة توضع فيها الفلسفة على رقاع من

ورق يا أبت»، وقال مسايراً بأرق طرق الحديث:

ـ إذا طرحت الأمور على هذا النحو فسوف نرى ما يمكن عمله، شكره الأب أنجيل، وأفصح عن اعتقاده بأنه لن يكون أمراً ساراً أن يرقى المنبر يوم الأحد بمخاوف كهذه، حاول العمدة أن يفهم ما يعنيه لكنه أدرك أن الوقت قد تأخر وأنه أبقى الأب أنجيل مستيقظاً كالبومة الليلية.

الفصل السابع

دنا صوت قرع الطبول كأنه شبح ينبعث من الماضي، انبعث في العاشرة صباحاً أمام مكتب المراهنات فجعل المدينة تتأرجح على حافة الخروج عن وقارها حتى قرعت دقات الانذار الثلاثة النشطة في النهاية وأناخ القلق على البلدة من جديد.

صاحت الأرملة مونتيل وهي ترقب الأبواب والنوافذ تفتح والناس يتقاطرون من كل مكان إلى الميدان: الموت! ها قد أقبل الموت!

بعد أن التقطت أنفاسها اللاهثة من جراء الانطباع الأول نحت ستائر الشرفة جانباً وراقبت الزحام حول رجل الشرطة الذي كان يتأهب لقراءة المرسوم، ساد صمت لا يتناسب عمقه مع صوت المنادي، وعلى الرغم من الانتباه الذي حاولت أن تصغي به إلاّ أنها لم تستطع أن تفهم إلاّ كلمتين فحسب.

لم يستطع أحد أن يخبرها بما يجري، كان المرسوم قد تلي بالصوت الطقوسي الآمر ذاته كما هو العهد دائماً، كان نظام جديد قد ساد العالم ولم يستطع العثور على أحد أفلح في فهمه، شعرت الطاهية بالفزع إزاء شحوبها.

ـ عم دار المرسوم؟

وأضافت الأرملة: «هذا هو ما أحاول اكتشافه، لكن أحداً لا يعرف أي شيء بالطبع، لم يجلب مرسوم قط منذ كان العالم على ما هو عليه خيراً».

عندئذ مضت الطاهية إلى الشارع وعادت بالتفاصيل، فاعتباراً من تلك الليلة وإلى أن تنقضي الأسباب الموجبة لذلك سيفرض حظر التجول، ولن يستطيع أحد الخروج إلى الشوارع بعد الساعة الثامنة ليلاً وحتى الخامسة صباحاً دون تصريح مرور يحمل توقيع العمدة وخاتمه، وتلقى رجال الشرطة أمراً بالهتاف: قف. ثلاث مرات في مواجهة مَن يجدونه في الشارع فإذا لم يصدع بأمرهم فإن الأوامر الصادرة لهم تقضي باطلاق النار عليه، وسيقوم العمدة بتنظيم دورات من المدنيين يقوم بتعيينهم للتعاون مع الشرطة في المراقبة الليلية.

تساءلت الأرملة مونتيل وهي تقضم أظافرها عن أسباب هذا الإجراء.

ردت الطاهية: «لم يوضحوا السبب في المرسوم لكن الجميع يقولون إن السبب هو نشرات الفضائح».

قالت الأرملة المذعورة: «كان قلبي يحدثني بهذا، فالموت ينهش هذه البلدة».

أرسلت في طلب السيد كارمايكل، وأمرت مذعنة لقوة أكثر قدماً وأعمق جذوراً من الدوافع بجلب الحقيبة الجلدية ذات البرشام النحاسي التي ابتاعها جوزيه مونتيل للقيام برحلته اليتيمة

قبل عام من وفاته من المخزن وإحضارها إلى المخدع، أخرجت من الخزانة بعض الأردية والملابس الداخلية والأحذية ووضعت كل شيء على نحو مرتب في قاع الحقيبة، وفيما هي تقوم بهذا أخذ ينتابها شعور بالسكينة المطلقة، كانت قد حلمت به مراراً متصورة نفسها بعيدة عن تلك البلدة وهذه الدار في غرفة ذات موقد وشرفة صغيرة حافلة بأصص تغرس فيها الأوريجانو حيث يحق لها فحسب أن تتذكر جوزيه مونتيل وحيث يتجسد مصدر قلقها الوحيد في انتظار أصائل أيام الاثنين لتقرأ الرسائل القادمة من بناتها.

لم تضع في الحقيبة إلاّ الملابس التي لا غنى عنها والحقيبة الجلدية الصغيرة التي تحتوي مقصاً وشريطاً لاصقاً وزجاجة يود صغيرة وأدوات الحياكة ثم صندوق الأحذية الذي وضعت فيه مسبحتها وكتاب الصلوات وعذبتها بالفعل فكرة أنها تأخذ معها أشياء تفوق ما يمكن أن يغتفره الرب لها، ثم وضعت تمثال القديس رافائيل الجصي داخل جورب ودسته بعناية بين أرديتها وأغلقت الحقيبة.

حينما وصل السيد كارمايكل ألفاها ترتدي أكثر ثيابها تواضعاً، ومثل بشارة واعدة لم يكن يحمل مظلته، لكن الأرملة لم تلحظ ذلك، أخرجت من جيبها مفاتيح الدار كافة وقد طبع على قطعة مقواة من الورق تحديداً لمكان استخدام كل منها وقدمتها له قائلة:

ـ أضع بين يديك عالم جوزيه مونتيل الخاطىء، فاصنع به ما تشاء!

كان السيد كارمايكل يخشى هذه اللحظة منذ وقت طويل.

تجلد ليقول: «أتعنين أنك تريدين الرحيل بعيداً فيما تقع كل هذه الأمور؟»

أجابته الأرملة بصوت هادىء وبحسم بالغ: «سأرحل للأبد».

لخص لها السيد كارمايكل الموقف دون أن يبدي انزعاجه، فتركة جوزيه مونتيل لم تسوّ بعد والعديد من الممتلكات التي تمّ احتيازها بأي من الطرق القديمة ودون أن يتاح الوقت لمراعاة الشكليات القانونية لا تزال في وضع قانوني معلق وإلى أن يتم اضفاء النظام على هذه الثروة الغارقة في الفوضى والتي لم يكن لدى جوزيه مونتيل نفسه خلال أعوامه الأخيرة أدنى فكرة عن حالتها سيكون من المستحيل تسوية الميراث، وسيتعين على أكبر الأبناء في منصبه القنصلي بألمانيا وابنتيها اللتين فتنتا بأضواء باريس المدوخة الرجوع إلى البلدة أو تخويل أحدهم سلطة الوكيل لتقويم مستحقاتهم وإلى أن يحدث ذلك فلا يمكن أن يباع شيء.

لم تؤثر الإثارة المؤقتة للمتاهة التي ضلت عبرها الأرملة مونتيل فيها عامين هذه المرة.

قالت مصرة: «لا يهم، فأطفالي سعداء في أوروبا ولا أريد أن يكون لي شأن ببلاد المتوحشين هذه كما يدعونها، وإذا ما أردت يا كارمايكل فاجعل من كل شيء تجده في هذه الدار حزمة والق بها للخنازير».

لم يعارضها السيد كارمايكل غير أنه على أية حال وبدعوى

ضرورة تدبير بعض الأمور للقيام بالرحلة مضى للقاء الطبيب.

ـ الآن يا جارديولا سنرى حقيقة نزعتك الوطنية.

تعرّف الحلاق وحلقة الرجال الذين كانوا يثرثرون في حانوته إلى صوت العمدة قبل أن يروه بالباب، أضاف العمدة مشيراً إلى الشابين الأصغر سناً: «وأنتم أيضاً أيها القوم، الليلة ستحصلون على البنادق التي رغبتم في امتلاكها طويلاً، دعونا نرى إن كنتم قد اشتد بكم العفن بحيث توجهونها إلينا» كان من المستحيل أن يخطىء المرء النغمة الودية التي وشت الكلمات.

ردّ الحلاق: «ستكون المقشة أفضل فليس هناك بندقية أفضل من المقشة لاصطياد السامرات».

لم ينظر إليه، كان يحلق الشعر في قفا زبون الصباح الأول، ولم يكن يحمل ما قاله العمدة محمل الجد، عندما شاهد العمدة يفرز جنود الاحتياط من أعضاء المجموعة وبالتالي القادرين على استخدام البنادق فَهِمَ أنه حقاً واحد ممن وقع عليهم الاختيار.

تساءل: «أحقاً أيها الملازم ستشركنا في معالجة هذه المشكلة؟»

ردّ العمدة: «أوه، يا للهراء، إنكم تمضون حياتكم في التهامس للحصول على بندقية والآن وقد حصلتم عليها لا يمكنكم تصديق ذلك».

توقف أمام الحلاق كان بإمكانه أن يرقب المجموعة بأسرها في المرآة وقال منتقلاً للحديث بصوت آمر: «جاداً أقول إنه في

السادسة من مساء اليوم سيتوجه جنود الاحتياط من الدرجة الأولى إلى الثكنات» واجهه الحلاق عبر المرآة.

تساءل: «وماذا إذا أقبلت مصاباً بذات الرئة؟»

أجاب العمدة: «ستعالجك في السجن».

كان الحاكي يمج رقصة إسبانية عاطفية بمكتب المراهنات بدا المكان خاوياً لكن بعض المناضد كانت تعلوها زجاجات وأكواب لم تفرغ مما بها.

قال دون روكه وهو يشاهد العمدة يلج المكان: «الآن غدا الأمر فوضى بالتأكيد، سيتعين علينا أن نغلق أبوابنا في السابعة».

مضى العمدة مباشرة إلى خلفية القاعة حيث كانت أوراق اللعب مهجورة بدورها، فتح باب المرحاض وألقى نظرة على الكراسي ثم عاد مرة أخرى إلى المشرب، مرّ بمنضدة المراهنات وانقض فجأة رافعاً الغطاء المسدل على أطراف المنضدة قائلاً:

ـ حسناً، كفى غباء!

خرج شابان من أسفل المنضدة وهما ينفضان الغبار عن سراويلهما، كان أحدهما شاحباً أما الآخر الأصغر سناً فقد خضبت الحمرة أذنيه، دفعهما العمدة برقة ناحية المناضد عند المدخل.

قال لهما: «هكذا فأنتما تعرفان بالفعل، سنلتقي في السادسة عند الثكنات».

مكث دون روكه في موضعه خلف المنضدة.

قال: «مع وجود هذه الفوضى سيتعين على المرء الاتجاه إلى التهريب».

قال العمدة: «لن يدوم الأمر سوى يومين أو ثلاثة فحسب».

لحق به مدير دار السينما عند المنعطف صائحاً: «هذا ما كان ينقصني! بعد دقات الجرس الاثنتي عشرة يأتي النفير» ربت العمدة على كتفيه وحاول مواصلة السير.

قال: «سوف أصادر دار السينما».

قال المدير: «لا يمكنك، فهي ليست مرفقاً عاماً».

قال العمدة: «في حالة الطوارىء يمكن حتى لدور السينما أن تعلن مرفقاً عاماً».

عندئذ فحسب توقف باسماً، اندفع يرقى درج الثكنات متهيأً كل درجتين بقفزة واحدة، وحينما بلغ الطابق الثاني لوّح بذراعيه ضاحكاً من جديد.

صاح: «اللعنة! وأنت أيضاً؟»

ألفى مدير السيرك جالساً باسترخاء في المقعد الوثير بلا مبالاة عاهل شرقي، كان يدخن غليوناً من عظام كلاب البحر باستمتاع وكأنه يجلس في داره أومأ مشيراً للعمدة بالجلوس.

ـ لنتحدث في العمل يا سيدي الملازم!

جذب العمدة مقعداً وجلس بإزائه، أومأ المدير إيماءة

غامضة وهو يمسك بالغليون في يده المحلاة الأصابع بالأحجار الملونة.

ـ أنستطيع الحديث بصراحة مطلقة؟

أومأ العمدة برأسه موافقاً.

قال المدير: «عرفت ذلك أمس حينما رأيتك تحلق لحيتك، طيب، اعتدت معرفة الناس، وأعرف أن هذا الحظر للتجول بالنسبة لك...»

كان العمدة يفحصه متلهياً.

ـ بالمقابل فهو بالنسبة لي بعد أن دفعت لقاء نصب المعدات وإعالة سبعة عشر شخصاً وتسعة حيوانات، إنه ببساطة كارثة.

ـ ولهذا؟

أجاب المدير: «أقترح أن تجعل موعد حظر التجول الحادية عشرة وسوف نقتسم أرباح الحفل المسائي».

واصل العمدة ابتسامته دون أن يغير وضعه في المقعد.

قال: «أعتقد أنه لم يكن من العسير عليك أن تجد في المدينة مَن يقول بأني لص».

أبدى المدير احتجاجه: «إنها صفقة عملية مشروعة».

لم يلحظ اللحظة التي اكتسبت فيها ملامح العمدة تعبيراً جاداً.

قال الملازم بصورة غير قاطعة: «ستتحدث عن هذا الأمر يوم الاثنين».

ردُّ المدير: يوم سأكون قد رهنت جلدي ذاته، إننا فقراء للغاية».

مضى به العمدة إلى الدرج وهو يربت برقة كتفه، قال: «لست بحاجة إلى إخباري فأنا أعرف كل شيء عنك» وحينما بلغا الدرج قال بلهجة مَن يوجه عزاء:

ابعث بكاساندرا إليّ الليلة!

حاول المدير الالتفات لكن اليد القابعة على كتفه ضغطت بشكل حاسم.

قال: «بالطبع هذا أمر مفروغ منه».

قال العمدة مشدداً: «ابعث بها وستحدث في الأمر غداً».

دفع السيد بنيامين ستارة الباب بأطراف أصابعه لكنه لم يلج الدار، صاح بضيق مكتوم:

ـ النوافذ يا نورا!

كانت نورا جاكوب وهي امرأة ناضجة ضخمة ذات شعر مقصوص على غرار شعر الرجال راقدة أمام المروحة الكهربائية في غرفة المعيشة نصف المعتمة، كانت في انتظار السيد بنيامين لتناول طعام الغداء، في جهد نهضت عند سماع النداء وفتحت النوافذ الأربع المطلة على الشارع فاندفعت نغمة من الحر إلى الغرفة المثقلة الجدران برسم الطاووس الخشن المظهر ذاته المتكرر بلا انتهاء وأثاثها المغطى بقماش تعلوه الزهور، كانت كافة التفاصيل تنطق بضخامة متواضعة.

تساءلت: «ما الصحيح فيما يقوله الناس؟»

- إنهم يقولون أشياء كثيرة.

حدّدت نورا جاكوب الأمر بوضوح أكبر: «ما يقولونه عن الأرملة مونتيل، إنهم يتسكعون قائلين بأنها جنت».

قال السيد بنيامين: «أعتقد أن مساً أصابها منذ بعض الوقت» وأضاف بيقين قاطع: «هكذا سار الأمر، وصباح اليوم حاولت القفز من شرفتها».

كانت المائدة التي بدت مرئية من الشارع قد أعدت ووضع مقعد عند جانبيها، قالت نورا جاكوب وهي تصفق بيديها طالبة تقديم الطعام: «عقاب رباني» وجلبت المروحة إلى غرفة الطعام.

قال السيد بنيامين: «ازدحمت الدار بالناس منذ الصباح».

ردّت نورا جاكوب: «فرصة طيبة لمشاهدة الدار من الداخل».

جلبت الحساء إلى المائدة فتاة زنجية توج شعرها بحلقات حمراء، فغزت رائحة الدجاجة غرفة الطعام وأصبح الحر لا يطاق، شبك السيد بنيامين منديل المائدة إلى ياقته قائلاً: «نخبك»، ثم حاول تناول الحساء الحار من الملعقة.

قالت بصبر نافد: «انفخ فيه ولا تكن أبله، ثم إن عليك أن تنزع سترتك، فوساوسك الخاصة بعدم المجيء إلى الدار ونوافذها مغلقة ستجعلنا نموت من الحر».

قال: أصبح هذا أمراً لا غناء منه الآن بصورة أكبر، فلن

يكون بمقدور أحد أن يقول إنه لم يرَ من الشارع كل حركة أقوم بها حينما أكون في دارك.

أشرقت ابتسامتها الرائعة التي لم يقلل من بهائها بعض الأسنان الصناعية وصاحت: «لا تكن سخيفاً، بوسعهم أن يتقولوا عني ما يحلو لهم» وحينما استطاعت تناول الحساء راحت تدير الحديث خلال فترات التوقف.

قالت مشيرة إلى ابنتها ذات الخمسة عشر ربيعاً التي لم تعد إلى الدار لقضاء اجازتها الدراسية منذ مضت للدراسة للمرة الأولى: «حقاً قد يراودني القلق عما سيقولونه عن مونيكا، لكنهم لا يستطيعون التقول عليّ بشيء لا يعرفه الجميع بالفعل».

لم يرمقها السيد بنيامين بنظرة عدم الموافقة المعتادة، فتناولا حساءهما في صمت تفصلهما ستة أقدام هي امتداد المائدة وأقصر مسافة يسمح بها وخاصة علناً، حينما كانت تدرس بعيداً قبل عشرين عاماً كان يدبج لها رسائل طويلة وتقليدية كانت ترد عليها برسائل قصيرة تفيض عاطفة، وخلال إحدى الاجازات الدراسية وأثناء نزهة خلوية جرها نستور جاكوب وقد تعتعه السكر إلى ركن الزريبة من شعرها وأعلمها دون تبديل بقوله: إذا لم تتزوجيني سأطلق النار عليك، وتزوجا في نهاية إجازتها ثم انفصلا بعد عشر سنوات.

قال السيد بنيامين: «على أية حال ليس هناك ما يدعو لإلهاب خيال الناس بالأبواب الموصدة».

حينما انتهى من احتساء قهوته انبعث واقفاً وقال: «سأمضي

الآن فلا بد أن مينا قد داخلها اليأس من مقدمي» ولدى الباب وضع قبعته فوق رأسه وصاح: «هذه الدار توشك أن تتقد ناراً».

قالت: «هذا هو ما كنت أقوله لك».

تلبثت حتى رأته من النافذة الأخيرة يلوح مودعاً وكأنه يباركها، ثم حملت المروحة إلى المخدع وأغلقت الباب ونزعت ثيابها جميعاً، وأخيراً وعلى نحو ما يحدث كل يوم بعد طعام الغداء مضت إلى الحمام الملحق بالمخدع واقتعدت المرحاض وحيدة مع سرها.

كانت تشاهد نستور جاكوب يمر بالدار أربع مرات كل يوم، وكان الجميع يعرفون أنه يعاشر امرأة أخرى وأنه استولدها أربعة أطفال وأنه كان يعد أباً مثالياً، وخلال السنوات القليلة الماضية مرّ بالدار مرات عديدة مع أطفاله ولكن بغير المرأة، رأته يطعن في العمر فيغدو كهلاً ناحلاً شاحباً ويتحول إلى غريب لا تعاود الذهن تلك الحميمية الماضية التي ربطته بها، وفي بعض الأحيان خلال قيلولتها المفعمة بالعزلة كانت تشتهيه مجدداً وعلى نحو ملح لا كما تراه يمر قرب الدار وإنما كما كان خلال ما سبق ميلاد مونيكا بينما كان حبه التقليدي والقصير لا يزال يجعل منه رجلاً محتملاً بالنسبة لها.

رقد القاضي أركاديو حتى الضحى، من ثم لم يسمع بالمرسوم إلاّ بعد وصوله إلى مكتبه، وكان سكرتيره من ناحيته قد شعر بنذر الخطر منذ الساعة الثامنة حينما طلب منه العمدة صياغة الوثيقة.

تأمل القاضي أركاديو الأمر بعد اكتشاف التفاصيل وقال: «أياً ما كان الأمر فقد صيغت الوثيقة بعبارات صارمة لم تكن لها ضرورة».

- إنه المرسوم المعتاد نفسه.

أقرّ القاضي أركاديو: «هذا صحيح لكن الأمور تغيّرت والعبارات المستخدمة تغيّرت كذلك، لا بد أن الناس فزعوا».

ورغم ذلك لم يكن الخوف هو الشعور السائد على نحو ما اكتشف وهو يلعب الورق في مكتب المراهنات وإنما كان بالأحرى شعوراً بالفوز الجماعي في تأكيد ما كان الجميع يعونه: إن الأمور لم تتغير، وحينما غادر مكتب المراهنات لم يستطع اجتذاب العمدة للانطلاق في الحديث.

قال له: «هكذا فإن نشرات الفضائح لم تكن تستحق هذ العناء، فالناس مسرورون».

تأبط العمدة ذراعه وقال: «ما من شيء يتخذ ضد الناس إنه أمر روتيني» فداخل القاضي أركاديو شعور باليأس من أحاديث التجوال تلك، وسار العمدة بخطوات متصلبة كما لو كان في طريقه إلى عمل عاجل ثم بعد مسيرة طويلة أدرك أنه لم يكن يقصد مكاناً بعينه.

استأنف الحديث قائلاً: «لن يدوم هذا طوال العمر، فيوم الأحد المقبل سنكون قد وضعنا يدنا على المهرج الذي يقف وراء نشرات الفضائح وأودعناه السجن، ولست أدري لم يلح على خاطري أنه امرأة».

لم يكن القاضي أركاديو يعتقد ذلك، فعلى الرغم من الإهمال الذي جمع به سكرتيره المعلومات فقد توصل إلى استنتاج شامل: فنشرات الفضائح ليست من عمل شخص واحد، وهي لا تتبع على ما يبدو نموذجاً موحداً، فبعضها قدّم تحولاً جديداً خلال الأيام القليلة الماضية فقد كانت في شكل رسوم.

اختتم القاضي أركاديو حديثه قائلاً: «قد لا يكون الفاعل رجلاً أو إمرأة وإنما رجال ونساء مختلفون يعمل كل منهم على حدة».

قال العمدة: «لا تعقد لي الأمور أيُها القاضي، ينبغي أن تعلم أنه في كل مشكلة وحتى إذا شارك فيها كثيرون فهناك شخص واحد دائماً هو الملوم».

ردَّ القاضي أركاديو: «لقد قال أرسطو هذا أيُها الملازم» وأضاف باقتناع: «على أية حال تبدو الاجراءات المتخذة متشددة بالنسبة لي، فأولئك الذين يعلقون النشرات سينتظرون ببساطة إلى أن ينتهي حظر التجول».

قال العمدة: «لا يهم، ففي النهاية علينا الحفاظ على مبدأ السلطة».

شرع المجندون في التجمع عند الثكنات، فأعادت الباحة الصغيرة ذات الجدران الاسمنتية الشاهقة المرقشة بالدماء الجافة وثقوب الطلقات إلى الأذهان الوقت الذي لم يكن هناك فيه ما يكفي من السجون وأجبر السجناء على البقاء في الخارج، وفي

ذلك الأصيل راح رجال الشرطة غير المسلحين يتجولون عبر القاعات في سراويلهم القصيرة.

صاح العمدة لدى الباب: «روفيرا، احضر لهؤلاء الفتيان ما يشربونه»!

شرع الشرطي في ارتداء ملابسه.

تساءل: «روم»؟

صاح العمدة في طريقه إلى المكتب المحصن: «لا تكن أحمق، ماء مثلج».

راح المجندون يدخنون السجائر وقد تناثروا جالسين في الباحة، فراقبهم القاضي أركاديو من سياج الطابق الثاني.

ـ أهم متطوعون؟

قال العمدة: «كان عليّ انتزاعهم من تحت أسرتهم كما لو كانوا سيجندون».

قال: «طيب، يبدون كما لو كانت المعارضة قد جندتهم».

انبعثت نسمة جليدية من الأبواب الصلبة الثقيلة لدى فتح المكتب، قال العمدة مبتسماً بعد أن أضاء أنوار قلعته الخاصة: «ذلك يعني أنهم يصلحون لخوض غمار القتال» في أحد أطراف المكتب كان هناك سرير عسكري وإناء زجاجي وقدح فوق مقعد ومبولة تحت الفراش وإلى الحائط الاسمنتي العاري أسندت بنادق عادية وأخرى آلية، ولم تكن للغرفة منافذ تهوية غير النوافذ الضيقة العالية التي يمكن للمرء منها أن يسيطر على الأرصفة والشارعين

الرئيسيين في البلدة وفي الناحية الأخرى كان هناك مكتب إلى جوار الخزانة.

قام العمدة بتحريك أجزاء مجموعة الأسلحة.

قال: «ليس هذا شيئاً خطيراً، سأقدم لهم البنادق جميعاً».

أقبل الشرطي من خلفهما فنفحه العمدة عدة ورقات مالية قائلاً: «أحضر لكل منهم كذلك حزمتين من اللفائف!» وحينما انصرف قال مخاطباً القاضي أركاديو مجدداً:

ـ ما رأيك في هذا الإجراء؟

قال القاضي أركاديو بصرامة: «مخاطرة غير مجدية».

قال العمدة: «سيقف الناس فاغرين أفواههم فضلاً عن أنني أعتقد أن هؤلاء الفتية المساكين لن يعرفوا ما يصنعونه بالبنادق».

أقرَّ القاضي: «قد يكونون مضطربين، لكن هذا لن يدوم طويلاً».

بذل جهداً ليقهر شعوراً بخواء معدته وقال متأملاً: «كن على حذر أيُّها الملازم، لا تكن ذلك الذي يقع على يديه دمار كل شيء!» مضى به العمدة خارج المكتب بإيماءة غامضة.

همس في أذنه: «لا تكن أبله لعيناً أيُّها القاضي فلن يحصلوا إلاّ على رصاصات فارغة».

حينما هبطا إلى الباحة كانت الأنوار قد أضيئت والمجندون يحتسون الصودا إلى جوار المصابيح القذرة المضاءة التي كانت

ذبابات الليل ترتطم بها، راح العمدة يسير متمهلاً من أحد جانبي الباحة إلى الجانب الآخر حيث كانت هناك بريكات قليلة من الماء الراكد شارحاً لهم بنغمة أبوية طبيعة مهمتهم الليلية، فسوف ينتشرون أزواجاً عند الأركان الرئيسية ولديهم أوامر بإطلاق النار على أي مار رجلاً كان أو إمرأة يعصي النداءات الثلاثة بالوقوف وأوصاهم بالشجاعة والتعقل، وبعد منتصف الليل سيجلب لهم الطعام وأعرب عن أمله في أنه بعون الله سيسير كل شيء على ما يرام دون متاعب وأن البلدة ستعرف كيف تقدر هذا الجهد الذي تبذله السلطات لصالح الاستقرار الاجتماعي.

نهض الأب أنجيل عن المائدة حينما دقت الساعة الثامنة في برج الأجراس، فأطفأ أنوار الفناء وأحكم الرتاج ورشم الصليب على كتاب صلواته وغمغم: «باسم الرب»، في باحة نائية صدح كروان، سمعت الأرملة آزيس الدقة الثانية وهي تغفو في الرواق البارد إلى جوار أقفاص الطيور المغطاة بقماش قاتم ودون أن تفتح عينيها سألت: «هل عاد روبرتو؟ ردت خادمة مقعية إلى جوار الباب إنه دلف إلى فراشه منذ السابعة، وقبل ذلك بقليل كانت نورا جاكوب قد أدارت مفتاح الصوت في المذياع فخفضته وغرقت في نشوة موسيقى رقيقة بدا أنها تنساب من مكان نظيف ومريح، صاح صوت أكثر بعداً من أن يبدو حقيقياً منادياً اسماً ما في الأفق وشرعت الكلاب في النباح.

لم يكن طبيب الأسنان قد انتهى من الاستماع للأخبار، تذكر أن أنجيلا كانت تحل لغز كلمات متقاطعة تحت المصباح الكهربائي في الفناء فأمر هارون أن ينظر إليها: «اغلقي الباب

الخارجي واذهبي لإنهاء هذا اللغز في غرفتك» استيقظت زوجته فزعة.

نهض روبرتو آزيس الذي كان حقاً قد آوى إلى فراشه في السابعة ليلقي نظرة على الميدان عبر النافذة المشرعة فلم يرَ إلاّ شجرات اللوز المعتمة والضوء الأخير الذي كان يخبو في شرفة الأرملة مونتيل، أوقدت زوجته المصباح الصغير وبهمس مكتوم جعلته يعود إلى فراشه، فواصل كلب وحيد نباحه حتى تجاوز الدقة الخامسة.

كان دون لالو موسكوته يغط في مخدعه المتوقد الذي حفل بكومة عالية من المعلبات الفارغة والزجاجات المتربة وقد انتشرت الصحيفة على كرشه واعتلت عويناته جبينه، وكانت زوجته المصابة بالشلل تنفي البعوض بخرقة وقد هزتها ذكرى ليال أخر كهذه فيما هي تحصي في ذهنها دقات الساعة، وساد صمت أعقب الهتافات النائية ونباح الكلاب والخطو بعجلات المختلس.

راح دكتور جيرالدو يصدر التعليمات لزوجته التي كانت تعد عقاقير الحالات الطارئة وتضعها في حقيبته قبل أن تدلف إلى الفراش: «تأكدي أن هناك كورامين» كانا معاً يفكران في الأرملة مونتيل وقد تصلبت تحت وقر الحمل الأخير من اللومينال، وحده دون ساباس كان قد فقد إحساسه بالزمن بعد حوار طويل مع السيد كارمايكل، كان لا يزال في مكتبه يزن إفطار اليوم التالي بميزان دقيق حيث قرعت الدقة السابعة وأقبلت زوجته من المخدع مشعثة الشعر، غمغم أحدهم في الظلام في اللحظة التي قرعت فيها الدقة الثامنة قائلاً: «في ليلة كهذه كفّ النهر عن التدفق» كان

الصوت القادم من برج الأجراس عميقاً لا ينسخ وانتشر تماماً شيء كان قد شرع في التدافع قبل خمس عشرة دقيقة خارجاً.

طوى دكتور جيرالدو الكتاب حتى كفّ صدى حظر التجول عن التردد، وضعت زوجته الحقيبة الطبية على المائدة المجاورة للفراش ورقدت ووجهها إلى الحائط وأطفأت مصباحها، فتح الطبيب الكتاب لكنه لم يقرأ، كانا كلاهما يتنفسان بتشنج وحيدين في البلدة التي جعلها الصمت الذي لا غور له تنكمش حتى لا تتجاوز أبعاد المخدع.

ـ فيم تفكر؟

أجاب الطبيب: «لا شيء».

لم يعد يركز تفكيره حتى الحادية عشرة حينما عاد إلى الصفحة ذاتها التي كان يطالعها حينما بدأت الساعة تدق الثامنة، ثنى طرف الصفحة ووضع الكتاب على المنضدة، كانت زوجته قد أغمضت، كانا في مرات أخرى يظلان مستيقظين حتى الفجر وهما يحاولان تخمين مكان وظروف إطلاق النار، مرات عديدة بلغ وقع الأقدام وقرقعة السلاح باب دارهما فانتظرا كلاهما وقد اقتعدا الفراش زخة الرصاص التي ستحطم قفل الباب وتسقطه أرضاً، وفي ليال عديدة بعد أن تعلما كيف يميزان بين الضروب اللامتناهية للإرهاب ظلاً مستيقظين ورأسهما على الوسادة المحشوة بالمنشورات السرية التي يتعين توزيعها، وذات فجر سمعا الاستعدادات المختلسة التي تسبق عزف الرصاص ثم تناهى إليهما صوت العمدة المنهمك: «ليس هناك، إنه لم يتورط في أي

شيء» أطفأ الدكتور جيرالدو المصباح وحاول أن يغفو.

بدأ الرذاذ بعد منتصف الليل، تخلى الحلاق ومجند آخر عهد إليهما بركن قرب الأرصفة عن موقعهما ولاذا بطنف حانوت السيد بنيامين، أشعل الحلاق سيجارة وفحص البندقية في ضوء الثقاب، كانت سلاحاً جديداً.

قال: «إنها من طراز مادينوسا».

أشعل رفيقه أعواد ثقاب عديدة بحثاً عن علامة طراز بندقيته لكنه لم يستطع العثور عليها، اندفع الماء من ميزاب قرب الطنف إلى عقب السلاح فصدر رنين مخيف، فغمغم وهو يجففه بكمه: «يا له من مأزق غريب كلانا هنا يحمل سلاحاً يغرقه الماء» لم يكن بالوسع إدراك صوت غير انسياب الماء من الطنف في المدينة الخامدة.

قال الحلاق: «نحن تسعة وهم سبعة بما في ذلك العمدة، لكن ثلاثة منهم مسجونون في الثكنات».

قال الآخر: «كنت أفكر في الشيء عينه قبل لحظة».

كشفهما مشعل العمدة للأنظار على نحو وحشي وقد جثما بازاء الحائط محاولين حماية سلاحيهما من قطرات المطر التي كانت تنساب على حذائيهما كالخردل، تعرفاه حينما أطفأ المشعل وأقبل تحت الطنف، كان يرتدي معطف خنادق ويحمل على كتفه مدفعاً رشاشاً ويصحبه أحد رجال الشرطة، وبعد أن ألقى نظرة على ساعته التي كان يثبتها على رسغه الأيمن أصدر أمره للشرطي.

ـ امض إلى الثكنات والق نظرة على ما جرى للطعام!

اختفى الشرطي تحت المطر بالنشاط ذاته الذي كان يمكن أن يتلقى به أمراً في معركة، وعندئذ جلس العمدة إلى جوار المجندين على الأرض.

سأل: «هل من متاعب؟»

ردَّ الحلاق: «لا شيء».

قدّم الآخر للعمدة سيجارة قبل أن يشعل سيجارته فرفضها العمدة.

ـ إلامَ تعتزم إبقاءنا على هذا الحال أيها الملازم؟

قال العمدة: «لست أدري، في الوقت الحالي سيستمر الأمر حتى ينتهي حظر التجول وسنرى غداً ما يحدث».

صاح الحلاق: «حتى الخامسة!»

قال الآخر: «أوه، كلا، أنا الذي أقف على قدمي منذ الرابعة صباحاً!»

تناهى إليهم صوت اعتراك الكلاب عبر صوت المطر، انتظر العمدة حتى هدأت الجلبة ولم يعد هناك إلا نباح وحيد، التفت إلى المجند وقد بدا عليه الاحباط.

قال: «لا تحدثني عن هذا فقد أنفقت نصف عمري في هذه الفوضى، وأوشك أن أتهاوى لحاجتي للرقاد».

قال الحلاق: «ودون مبرر، فليس لهذا شأن بالأمر، إنه مثل ما تفعله النسوة».

تنهد العمدة قائلاً: «بدأت أفكر على هذا النحو ذاته».

عاد الشرطي ليبلغهم أنهم في انتظار انقطاع المطر لتوزيع الطعام، ثم نقل رسالة أخرى، فهناك امرأة تمَّ الإمساك بها دون تصريح مرور في انتظار العمدة بالثكنات.

كانت كاساندرا، أغفت في المقعد الوثير ملتفة بوشاح من المطاط في الغرفة الصغيرة التي ينيرها المصباح الجنائزي القائم في الشرفة، جذب العمدة أنفها، فندت عنها أنة وأخذتها رعدة من غرق في اليأس ففتحت عينيها.

قالت: «كنت أحلم».

أوقد العمدة المصباح في الغرفة، تثنت المرأة وهي تحمي عينيها بكفيها مزمجرة بالشكوى وللحظة عانى العمدة من تأثير أظافرها المطلية باللون الفضي وإبطيها اللذين أزيل الشعر منهما.

قالت: «أنت فتى بديع، كنت هنا منذ الحادية عشرة».

قال العمدة معتذراً: «توقعت أن أراك في الغرفة».

ـ لم يكن لدي تصريح مرور.

كان شعرها الذي اكتسى لون النحاس فضياً يضرب إلى اللون الرمادي الآن، فقال العمدة مبتسماً: «نسيت تماماً!» وبعد أن علق معطفه جلس إلى جوارها وقال: «آمل أنهم لم يظنوا أنك تعلقين نشرات الفضائح» كانت المرأة قد استردت أسلوبها اللين.

قالت: «ليتهم ظنوا ذلك، فأنا أعبد الانفعالات القوية».

فجأة بدا العمدة ضائعاً في الغرفة، طقطق أشاجعه وقد بدت عليه علامات الاستسلام، غمغم: «عليك أن تسدي إليَّ جميلاً» فحدجته المرأة متسائلة.

مضى في حديثه: «ليبق الأمر سراً بيننا، أريدك أن تفحصي أوراقك لترى ما إذا كان من الممكن اكتشاف المسؤول عن هذه المهزلة».

أشاحت برأسها وقالت بعد صمت قصير: «فهمت» استحثها العمدة.

ـ إنني أقوم بهذا من أجلكم أكثر من الآخرين.

أومأت برأسها موافقة.

ـ قمت بذلك فعلاً.

لم يستطع العمدة إخفاء قلقه فاستطردت كاساندرا قائلة بلهجة فجائعية محسوبة: «إنه أمر بالغ الغرابة، فقد كانت العلامات من الوضوح بحيث أفزعتني بعد أن نشرتها على المنضدة» وعندئذ تأثر نفسها بالموقف.

ـ مَن المسؤول؟

ـ إنه المدينة بأسرها ولا أحد.

الفصل الثامن

أقبل أبناء الأرملة آزيس لشهود القداس يوم الأحد، كانوا سبعة بالإضافة إلى رويرتو آزيس، صبوا جميعاً في القالب ذاته ثقالاً، خشنين لهم عناد البغال في إرادة العمل الشاق وتأخذهم رقة مع أمهم تمازجها طاعة عمياء، ولم يكن رويرتو آزيس أصغر الأبناء والوحيد منهم الذي تزوج يشارك إخوته إلاَّ في الأنف الضخم الذي يميزهم جميعاً، وكان بصحته الهشة وسلوكياته التقليدية ضرباً من العزاء عن الإبنة التي سئمت الأرملة آزيس انتظارها.

في المطبخ حيث أنزل أبناء آزيس السبعة أحمال مطاياهم جعلت الأرملة تسير وسط طوفان من الدجاج الموثق والخضر وأصناف البن والخبز البني اللون المحلى بالسكر وشرائح اللحم المملح وهي تصدر التعليمات إلى الخادمات، وحينما تمَّ ترتيب المطبخ أمرتهن بحمل الأفضل من كل شيء إلى الأب أنجيل.

كان القس يحلق لحيته وبين الفينة والأخرى يمد راحته إلى الفناء ليبلل ذقنه بالرذاذ، وكان يتأهب للانتهاء حينما دفعت فتاتان حافيتان الباب ففتحتاه دون أن تطرقاه ووضعتا أمامه عدداً كبيراً

من ثمرات الأناناس الناضجة وموز الجنة الأحمر والخبز المحلى بالسكر والجبن وسلة متخمة بالخضر والبيض الطازج.

غمز لهما الأب أنجيل وقال: «يبدو هذا مثل حلم من أحلام الأرانب» فأشارت الفتاة الصغرى وقد اتسعت عيناها دهشة إليه.

ـ والقس يحلقون لحاهم أيضاً!

مضت بها الأخرى إلى الدار قائلة: «ماذا كنت تظنين؟» ابتسم القس وأضاف جاداً: «إننا بشر نحن الآخرين» ثم تأمل المؤن المتناثرة على الأرض وأدرك أن دار آزيس هي وحدها القادرة على تقديم هذه الوفرة.

صاح رافعاً عقيرته إلى حد الصياح تقريباً: «أبلغا الأبناء أن الرب سيردها إليهم عافية».

نحى الأب أنجيل الذي لم يتعلم خلال أربعين عاماً في الكهنوت كيف يتحكم في عصبيته التي تسبق الوقائع الهامة الوفور أدوات الحلاقة جانباً دون أن يفرغ منها، ثم التقط المؤن وكوّمها تحت رف الأوعية ومضى إلى الموهف مجففاً يديه في مسوحه.

كانت الكنيسة تغص بمَن فيها، وشغل آل آزيس المقصورتين القريبتين من المنبر الذي أهدوه إلى الكنيسة وقد نقشت أسماؤهم على صفائح نحاسية تعلوه وقد توسطتهم الأم وزوجة الابن الأصغر، وحينما بلغوا الكنيسة معاً للمرة الأولى خلال شهور عديدة كان بوسع المرء الاعتقاد بأنهم لا يسيرون مترجلين وإنما على صهوات جيادهم، كان كريستوبال آزيس أكبر الأبناء والذي

وصل من المزرعة قبل نصف ساعة فلم يتح له الوقت لحلاقة لحيته لا يزال ينتعل حذاء الركوب والمهمازين، وحينما شاهد الجمهور عملاق الغابة هذا لم يكن بوسعه إلاّ أن يقر بصحة الرواية الشائعة والتي لم تتأكد قط والقائلة بأن سيزار مونتيرو كان الابن السري لأدالبرتو آزيس العجوز.

في الموهف تعرّض الأب أنجيل لحادث مؤسف: فلم تكن الحلى الطقوسية في مكانها، وجده القندلفت في غاية الضيق يعبث بالأدراج فيما يريد حواراً غامضاً مع نفسه.

أمره القس قائلاً: «ناد ترينيداد وسلها أين وضعت البطرشيل».

كان قد نسي أن ترينيداد مريضة منذ أمس، وراح القندلفت يحدّث نفسه قائلاً بأنه من المؤكد أنها حملت بعض الثياب إلى دارها لترتقها هناك، تقلّد الأب أنجيل الوشاح المزخرف المخصص للجنازات، لم يستطع تركيز أفكاره، وحينما رقي المنبر نافد الصبر ولا زالت أنفاسه متقطعة أدرك أن الحجج التي نضجت خلال الأيام الماضية لن تكون لها الآن قوة الاقناع التي كانت تتمتع بها في العزلة التي سادت غرفته.

تحدّث لمدة عشر دقائق متعثر الألفاظ وقد أذهله فيض من الأفكار لا يتناسب مع الأطر السابقة لحديثه، لمح الأرملة آزيس يحيط بها أبناؤها، بدا الأمر كما لو كان قد تعرفهم عقب ذلك بعد قرون في صورة عائلية مهتزة، وحدها ريبكا آزيس بدت وهي تجلب الهواء إلى صدرها البديع كائناً بشرياً ومعاصراً له، أنهى

عظته دون أن يشير مباشرة إلى نشرات الفضائح.

ظلت الأرملة آريس متصلبة لبضع دقائق قصيرة وهي تنزع خاتم زواجها وتعيده مكانه، ثم رشمت الصليب ونهضت فغادرت الكنيسة عبر صحنها الرئيسي يتبعها أبناؤها على صورة حاشدة.

استطاع دكتور جيرالدو ذات صباح كهذا أن يتفهم الآلية الداخلية للانتحار، كان الرذاذ ينهمر دونما صوت، كان الأقطروس يصدر صفيره في الدار المجاورة وزوجته تثرثر فيما هو يغسل أسنانه بالفرشاة.

قالت وهي تعد مائدة الافطار، غريبة أيام الآحاد تبدو كما لو كانت معلقة فوق الرؤوس تضوع برائحة اللحم النيء.

أحكم الطبيب تركيب موساه وشرع في حلاقة لحيته، كانت عيناه رطبتين وأجفانه منتفخة، حدثته زوجته: «لا تغفو جيداً هذه الأيام» وأضافت بمرارة توشيها الرقة: «ستصحو ذات يوم أحد لتجد نفسك كهلاً» كانت قد ارتدت رداء بالياً وقد غطت رأسها بمجعدات الشعر.

قال: «اصنعي معي معروفاً واصمتي!»

مضت إلى المطبخ ووضعت وعاء القهوة على الموقد وانتظرت حتى تغلي القهوة، مصغية في بادىء الأمر لصفير الأقطروس ثم بعد لحظة لصوت المطر ثم مضت إلى المخدع لتعد ملابس زوجها فيجدها جاهزة حينما يخرج من الحمام، وحينما حملت طعام الافطار إلى المائدة رأته متأهباً لمغادرة الدار، بدا أصغر قليلاً بسراويله الكاكية وقميصه المنقط.

تناولا طعام الافطار في صمت وقرب النهاية رمقها باهتمام عاطفي، كانت تحتسي قهوتها وقد أحنت رأسها مرتعدة قليلاً بتأثير العناد.

قال معتذراً: «إنها كبدي التي تؤرقني».

ردت دون أن ترفع رأسها: «لا شيء يبرر الانهيار».

قال: «لا بد أني مخمور فالكبد تتخثر بهذا المطر».

قالت بجلاء: «دائماً تقول الشيء نفسه لكنك لا تفعل شيئاً» وأضافت: «إذا لم تفتح عينيك فستضطر لمعالجة نفسك».

بدا أنه يصدق ما تقول: «في ديسمبر سنقضي أسبوعين في البحر» راقب الرذاذ من خلال فتحات الفاصل الخشبي الذي يفصل غرفة الطعام عن الفناء وقد أحزنه وقر أكتوبر فأضاف: «وعندئذ لن تكون هناك لأربعة أشهر أيام آحاد كهذه» لملمت الأطباق وحملتها إلى المطبخ، وحينما عادت إلى غرفة الطعام ألفته قد وضع قبعته المصنوعة من القش على رأسه وأعد حقيبته للانطلاق.

قال: «هكذا غادرت الأرملة آريس الكنيسة مرة أخرى».

كانت زوجته قد أخبرته قبل أن يشرع في غسل أسنانه بالفرشاة لكنه لم يبد اهتماماً وقتها.

قالت مؤكدة: «ارتادوا الكنيسة ثلاث مرات هذا العام، ومن الواضح أنهم لم يجدوا شيئاً أفضل يتسلون به.

افتر الطبيب عن طاقم أسنانه القوي قائلاً: «الأثرياء معتوهون».

كانت بعض النسوة قد توجهن في عودتهن من الكنيسة لزيارة الأرملة مونتيل، بادر الطبيب بالتحية المجموعة الباقية منهن التي مكثت في غرفة المعيشة، واكبته غمغمة من الضحكات المكتومة في طريقه إلى الدرج، وقبل أن يطرق الباب أدرك أن هناك أخريات في المخدع، دعته إحداهن للدخول.

كانت الأرملة مونتيل جالسة في الفراش وقد أرخت شعرها وضمت طرف الملاءة إلى صدرها وفي حجرها مشط ومرآة.

قالت للطبيب: «هكذا قررت أن تشهد الحفل أنت أيضاً».

قالت إحدى النسوة: «إنها تحتفل بعيد ميلادها الخامس عشر».

بابتسامة حزينة صوّبت الأرملة مونتيل قولها: «الثامن عشر» ورقدت في الفراش مرة أخرى وغطت نفسها بالملاءة حتى الرقبة، أضافت بمرح: «بالطبع لم توجه الدعوة للرجال وأنت آخرهم أيُّها الطبيب، إنه فأل سيء».

علق الطبيب قبعته المبللة على المشجب، وقال مراقباً المريضة بسرور يمازجه التأمل: «صحتك تتقدم، أدركت الآن لتوي أنه ليس هناك ما أصنعه هنا» ثم قال ملتفتاً إلى مجموعة النسوة يستميحهن عذراً:

- أتسمحين لي؟

حينما خلت الغرفة إلا منهما اكتست ملامح الأرملة مونتيل التعبير المرير الذي يعلو وجه مريضة، فواصل الطبيب الحديث

باللهجة المرحة ذاتها فيما هو يضع الأشياء التي يخرجها من حقيبته على المنضدة المجاورة للفراش.

قالت الأرملة متوسلة: «من فضلك يا دكتور لا مزيد من الحقن فقد أصبحت كالمنخل».

ابتسم الطبيب قائلاً: «الحقن هي أفضل اختراع لإعالة الأطباء».

ابتسمت بدورها.

قالت وهي تمس عجيزتها من خلال الملاءة: «صدقني لقد اهترأ هذا الجزء مني وما عدت أستطيع حتى أن ألمسه».

قال الطبيب: «لا تلمسيه إذن».

اتسعت ابتسامتها.

- تحدّث بجد مرة واحدة يا دكتور حتى ولو بمناسبة يوم الأحد!

عرى الطبيب ذراعها ليقيس ضغط الدم.

قال: «لن يسمح لي طبيبي بذلك فهو مضر بكبدي».

فيما هو يقيس ضغط الدم راحت الأرملة ترقب مؤشر المضغاط بدقة، فوضع زجاجة تضم أقراصاً بيضاء على المنضدة ومعها تعليمات بأن تتناول قرصاً كل اثنتي عشرة ساعة، وقال: «إذا لم تكن بك رغبة للمزيد من الحقن فلن يكون هناك المزيد منها، فأنت في عافية وأفضل صحة» لوحت الأرملة بيدها وقد نفد صبرها.

قالت: «لم يسبق أن مرضت قط».

ردّ الطبيب قائلاً: «أصدق ما تقولين لكن علينا أن نخترع شيئاً لنبرر تناول الأقراص».

سألت متجاهلة التعقيب.

- أيتحتّم أن أمكث في الفراش؟

قال الطبيب: على العكس، فأنا أحظر هذا تماماً، امضي إلى غرفة المعيشة وتولي رعاية زائراتك على نحو ما ينبغي، وأضاف بصوت عابث قائلاً: «فضلاً عن أن هناك أموراً كثيرة للثرثرة بشأنها».

صاحت: «يا للسماء يا دكتور، لا تكن ثرثاراً على هذا النحو، لا بد أنك أنت الذي يعلق نشرات الفضائح».

ابتهج دكتور جيرالدو لسماعه هذه الفكرة، واختلس نظرة إلى الحقيبة الجلدية ذات البرشام النحاسي الموضوعة في ركن المخدع تأهباً للرحيل فصاح لدى الباب: «واحضري لي معك هدية حين ترجعين من رحلتك حول العالم» كانت الأرملة قد استأنفت مجدداً المهمة الشاقة المتمثلة في تشذيب شعرها.

- بالطبع يا دكتور!

لم تهبط إلى غرفة المعيشة وإنما مكثت في المخدع حتى انصرفت الزائرة الأخيرة ثم ارتدت ملابسها ووجدها السيد كارمايكل تتناول الطعام إلى جوار باب الشرفة المشرع.

ردّت تحيته دون إبعاد ناظريها عن الشرفة وقالت: «في

أعماقي أحب هذه المرأة، إنها باسلة» أطل السيد كارمايكل كذلك نحو دار الأرملة آزيس حيث كانت الأبواب والشرفات والنوافذ لا تزال مغلقة في الساعة الحادية عشرة.

قال: «الأمر يرجع إلى طبيعتها فهي لا يمكن أن تكون على نحو آخر ولها فؤاد لم يخلق إلاّ لرجل» وأضاف متنقلاً باهتمامه إلى الأرملة مونتيل: «وأنت أيضاً يا سيدتي تماثلين وردة».

بدت كما لو كانت تصادق على قوله برقة ابتسامتها، وتساءلت: «أتعلم؟» وإزاء تردد السيد كارمايكل استبقت الرد قائلة: «دكتور جيرالدو مقتنع بأنني مجنونة».

- لا تقولي هذا!

أومأت برأسها أن نعم ومضت قائلة: «لن يدهشني إذا كان قد حدثك بشكل ما عن إرسالي إلى مصحة عقلية» لم يدر السيد كارمايكل كيف يتملص من هذه الورطة.

قال: «لم أغادر الدار طوال الصباح».

تهالك إلى جوار المقعد الجلدي الوثير الموضوع إلى جوار الفراش فتذكرت الأرملة جوزيه مونتيل وقد صرعه احتقان مخي في ذلك الكرسي قبل موته بخمس عشرة دقيقة، فقالت مبددة الذكرى الكابوسية: «في هذه الحالة يمكن أن تزوره بعد ظهر اليوم» ثم عمدت إلى تغيير الموضوع بابتسامة صافية:

- هل حادثت صديقي الطبيب ساباس؟

أومأ السيد كارمايكل موافقاً.

وواقع الأمر أنه تردى في يومي الجمعة والسبت في أعماق الهوة المسماة دون ساباس محاولاً اكتشاف طبيعة استجابته إذا ما عرضت عقارات جوزيه مونتيل للبيع، وقد افترض أن دون ساباس بدا على استعداد لشرائها، أصغت الأرملة دون أن تبدي بادرة لنفاد الصبر، وأقرّت بحزم هادىء بأن ذلك إن لم يحدث يوم الأربعاء المقبل فسيقع في الأربعاء الذي يليه، وكانت على أية حال متأهبة لمغادرة البلدة قبل انتهاء شهر أكتوبر.

انتزع العمدة مسدسه بحركة فورية من يده اليمنى وتشنج بدنه حتى العضلة الأخيرة بالتأهب لإطلاق النار وعندئذ استيقظ كلية وتعرف القاضي أركاديو.

ـ اللعنة!

صعق الخوف القاضي أركاديو.

قال العمدة منحياً المسدس: لا تتسلل على هذه النحو ثانية، وتهالك على المقعد الناشي: «سمعي يصبح أكثر حدة خلال رقادي».

قال القاضي أركاديو: «كان الباب مفتوحاً».

كان العمدة قد نسيه في الفجر، برح به الإعياء فتهالك في المقعد وغرق في النوم على الفور.

ـ كم الساعة؟

قال القاضي أركاديو: «تقترب من الثانية عشرة».

كانت الرعدة لا تزال ترن في أحد أوتار صوته.

قال العمدة: «سألقى حتفي من فرط الرغبة في النوم».

تقلب في تثاؤب طويل وراوده شعور بأن الزمن قد توقف، فعلى الرغم من كدحه ولياليه المؤرقة استمرت نشرات الفضائح في الصدور وذات صباح وجد ملصقاً على باب غرفته جاء به: «لا تهدر البارود على الصقور أيها الملازم» وفي الشارع كانوا يرددون بصوت عال أن أولئك الذين يقومون بالدوريات هم أنفسهم الذين يلصقون نشرات الفضائح لتبديد ملل جولاتهم، وكان العمدة يحدّث نفسه بأن البلدة تكاد تموت ضحكاً.

قال القاضي أركاديو: «انفضه عنك ودعنا نمض لنجد شيئاً نأكله».

لكنه لم يكن جائعاً، أراد أن يغفو ساعة أخرى وأن يستحم قبل الخروج، أما القاضي أركاديو الذي بدا حليقاً ومنتعشاً فقد أعلن أنه كان سيعود للدار ثانية لتناول طعام الغداء وحينما مرّ بالغرفة وألفى بابها مفتوحاً فقد دخل ليطلب من العمدة تصريحاً بالبقاء في الشوارع والمرور بعد فرض حظر التجول.

قال الملازم ببساطة: «لا» ثم برّر موقفه بلهجة أبوية: «من الخير لك أن تمكث آمناً في الدار».

أشعل القاضي سيجارة، وقف متأملاً لهب الثقاب منتظراً إلى أن ينحسر غضبه، لكنه لم يجد ما يقوله.

أضاف العمدة: «لا تحمل الأمر محمل السوء، صدقني، فأنا أتمنى لو كنت مكانك أدلف إلى فراشي في الثامنة ليلاً وأنهض حينما يحلو لي».

قال القاضي: «بالطبع» وأضاف مبرزاً تهكمه: «هذا هو ما ينقصني، والد جديد في الخامسة والثلاثين من عمري».

ـ أيها القاضي!

التفت إليه وحدج أحدهما الآخر بنظراته.

ـ لن أعطيك التصريح، مفهوم؟

قضم القاضي سيجارته وشرع في الحديث لكنه قمع رغبته في ذلك، سمعه العمدة يهبط الدرج ببطء، فجأة قال منحنياً بصوت عال:

ـ أيها القاضي!

لم يأت رد.

صاح العمدة: «لا زلنا أصدقاء».

لم يتلق إجابة هذه المرة أيضاً.

ظل منحنياً في انتظار استجابة القاضي أركاديو حتى أغلق الباب وغدا وحيداً مع ذكرياته مرة أخرى، لم يبذل جهداً للعودة إلى النوم، كان يشعر بالأرق في منتصف النهار مسحوقاً في مدينة ظلت مستعصية الولوج وغريبة بعد سنوات طويلة من توليه المسؤولية عن مصيرها، في ذلك الفجر الذي هبط فيه إلى البر خلسة بصحبة حقيبة من الورق المقوى مربوطة بحبل متين يحمل أمراً يجعل المدينة تخضع بأي ثمن كان هو الذي عرف معنى الرعب، وكان سنده الوحيد خطاب يحمله لأحد أنصار الحكومة المجهولين كان عليه أن يقابله في اليوم التالي ليجده جالساً مرتدياً

سراويل قصيرة إلى جوار باب مخزن للأرز، وبتعليماته وإرادة القتلة المأجورين الثلاثة الذين صحبوه أنجزت المهمة، غير أنه في ذلك الأصيل وعلى الرغم من عدم إدراكه للشرنقة الخفية التي كان الزمن ينسج خيوطها حوله كان بحاجة إلى اندلاع فوري في البصيرة ليتساءل عمن خضع للآخر.

ظلت الأحلام تراوده وهو مفتوح العينين إلى جوار الشرفة يلطمه المطر حتى بلغت الساعة الرابعة، ثم استحم وارتدى زيه الميداني ومضى إلى الفندق ليتناول إفطاره، وعقب ذلك قام بجولة تفقدية مألوفة وفجأة وجد نفسه واقفاً عند أحد الأركان ويداه في جيوبه دون أن يدري ما يفعل.

رآه صاحب مكتب المراهنات يلج المكان عند الغسق ويداه لا تزالان في جيوبه، حياه من مؤخرة المشرب الخاوي لكن العمدة لم يرد التحية.

قال: «زجاجة مياه معدنية».

أحدثت الزجاجات صوتاً عالياً فيما دون روكه يزيحها داخل البراد.

قال: «ذات يوم سيجرون لك جراحة فيجدون كبدك مليئاً بالفقاقيع».

حدّق العمدة في الكأس، تناول رشفة من المياه، تجشأ وظلّ متكئاً بكوعيه على المنضدة وعيناه مثبتتان على الكأس، تجشأ مرة أخرى، كان الميدان مقفراً.

قال: «طيب، ما الحكاية؟»

ردّ دون روكه: «اليوم الأحد».

- أوه!

وضع عملة معدنية على المنضدة وغادر المكان دون تحية، عند ركن الميدان حدثه أحدهم وكان يسير كمَن يردف ذيلاً ضخماً بشيء لم يفقهه، أفاق بعد لحظة، أدرك على نحو مضطرب أن ثمة أمراً يقع فمضى إلى الثكنات، ارتقى الدرج مسرعاً دون أن يلقي بالاً إلى المجموعات التي بدأت تتحلق حول الباب، أقبل شرطي، قدّم له ورقة لم يحتج إلا لنظرة عابرة ليدرك مضمونها.

قال الشرطي: كان يوزعها عند ساحة مصارعة الديكة.

هرع العمدة مجتازاً القاعة، فتح الزنزانة الأولى وظلّ ممسكاً المزلاج بيده معتصراً الظلال حتى تمكّن من رؤيته: كان فتى في حوالى العشرين يحمل وجهه الشاحب آثار الجدري الحادة يرتدي قبعة يسبول ويضع على أنفه عوينات تحطمت عدساتها.

- ما اسمك؟

- بيبي.

- بيبي ماذا؟

- بيبي أمادور.

حدجه العمدة للحظة وبذل جهداً في التذكر، كان الفتى يقتعد المصطبة الاسمنتية التي يتخذها السجناء فراشاً، بدا رابط

الجأش، نزع عويناته ونظفها بطرف قميصه ونظر شزراً إلى المأمور.

سأل العمدة: «أين رأى أحدنا الآخر؟»

قال بيبي أمادور: «في الجوار».

لم يلج العمدة الزنزانة، ظلّ يحدّق في السجين مكتئباً ثم شرع في إغلاق الزنزانة.

قال: «طيب يا بيبي، أعتقد أنك آذيت نفسك».

أدار المفتاح ودسه في جيبه ومضى إلى غرفة الانتظار ليقرأ المنشور السري ويعيد قراءته.

جلس قريباً من الشرفة المفتوحة يلطم البعوض فيما كانت الأنوار توقد في الشوارع المقفرة، كان يعرف هذا السلام الذي يصاحب الغروب وذات مغيب آخر مثل هذا راوده الشعور بالقوة في سمتها.

قال بصوت عال محدثاً نفسه: «وهكذا عادوا».

كذا قبل، كانت المنشورات منسوخة على وجهي الورقة وكان يمكن تعرفها في أي زمان ومكان بسمة التردد غير القابلة للتحديد التي تسم المطبوعات السرية.

غرق في الأفكار طويلاً في الظلال طاوياً الورقة وناشراً إياها قبل اتخاذ قرار وفي النهاية دسها في جيبه وتحسس مفاتيح الزنزانة.

رفع عقيرته منادياً: «روڤيرا!»

انبثق الرجل الذي كان يستطيع الثقة به من العتمة، فأعطاه المفاتيح.

قال: «تول مسؤولية ذلك الفتى، حاول اقناعه بالكشف عن أسماء جالبي الدعاية السرية إلى البلدة!» ومضى في حديثه موضحاً: «فإن لم تستطع الحصول على الأسماء بطريقة لطيفة جرب أي طريقة بمقدورك استخدامها لجعله يتحدّث!»

حدثهم متفقداً البنادق ليتخير أفضلها: «ستخرجون الليلة للقيام بالدوريات، ليس عليكم القيام بشيء إلا بترك الناس يعلمون أنكم أنتم الذين تجوبون الشوارع» حينما تعلدوا السلاح جميعاً وزع عليهم الذخيرة ووقف أمامهم.

ذكره الشرطي بأنه مناوب للقيام بأعمال الدورية الليلة.

قال العمدة: «إنس ذلك، لا تغلق على شيء حتى تتلقى أوامر جديدة!» وأضاف العمدة كما لو كان يذعن لإلهام مفاجىء: «ثمة شيء آخر، اصرف أولئك الواقفين في الباحة فلن تكون هناك دوريات الليلة».

استدعي الرجال الثلاثة الذين ظلوا دونما عمل في الثكنات وفقاً لأوامره إلى مكتبه المحصن، جعلهم يرتدون الأزياء الرسمية التي كان يغلق الخزانة عليها، وفيما كانوا يقومون بذلك لملم فوق المنضدة الرصاصات الفارغة التي وزعها على الرجال في الدوريات خلال الليلة الماضية واستخرج من الخزينة قبضة من الذخيرة الحية.

حدثهم متفقداً البنادق ليتخير أفضلها: «ستخرجون الليلة

للقيام بالدوريات، ليس عليكم القيام بشيء إلا بترك الناس يعلمون أنكم أنتم الذين تجوبون الشوارع» حينما تقلدوا السلاح جميعا وزع عليهم الذخيرة ووقف أمامهم.

حذرهم قائلاً: «ولكن اصغوا جيداً لشيء واحد، سأقوم بإعدام أول مَن يرتكب حماقة بينكم أمام جدار الباحة» انتظر رد الفعل الذي لم يظهر فصاح: «مفهوم؟»

أصغى الرجال الثلاثة الذين كان لاثنين منهما سحن هندية ذات مظهر عادي وكان الثالث أشقر يميل إلى التعملق له عينان صريحتان، للكلمات الأخيرة فيما هم يضعون الطلقات في خزائن البنادق فوقفوا في وضع انتباه.

- مفهوم يا سيدي الملازم!

قال العمدة متنقلاً إلى الحديث بلهجة غير رسمية: «وهناك شيء آخر، أبناء آزيس في البلدة ولن يكون مدهشاً على الاطلاق أن تقابلوا أحدهم مخموراً يسعى لخلق المتاعب فأياً كان ما يحدث لا تتورطوا معه» وفي هذه المرة أيضاً لم يتلق رد الفعل المنتظر فصاح: «مفهوم؟»

- مفهوم يا سيدي الملازم!

اختتم العمدة حديثه قائلاً: «إذن فأنتم تعلمون بالأمر جميعاً، أبقوا حواسكم الخمسة في حالة تأهب».

تلقى الأب أنجيل لفحة من رائحة التحلل حينما أغلق الكنيسة بعد التسبيح الذي قدم موعده ساعة بسبب حظر التجول،

كانت رائحة مقيتة غابرة لا تكفي لجذب انتباهه، بعد قليل وفيما كان يحمر شرائح موز الجنة الأخضر ويسخن اللبن لوجبة العشاء اكتشف سبب الرائحة: لم تكن ترينيداد التي أقعدها المرض منذ يوم السبت قد أزالت الفئران النافقة من المصايد، فعاد إلى الكنيسة وفتح المصايد وأزال الفئران النافقة ثم مضى إلى دار مينا على بعد دارين من الكنيسة.

فتح توتو ڤايسبال الباب، في القاعة الصغيرة المعتمة حيث تناثرت مقاعد جلدية عديدة في فوضى وتدلت لوحات على الجدران كانت أم مينا وجدتها تحتسيان شراباً حاراً طيب الرائحة في أكواب صغيرة وكانت مينا تصنع زهوراً صناعية.

قالت المرأة الضريرة: «لم نرك في دارنا منذ اسبوعين يا أبت!»

كان هذا صحيحاً، ففي كل أصيل كان يمر بالقرب من النافذة التي كانت مينا تجلس غير بعيدة عنها تصنع الزهور الورقية لكنه لم يلج الدار.

قال: «الزمن يمضي سراعاً دون أن يحدث ضجيجاً» ثم التفت إلى توتر ڤايسبال موضحاً أنه في عجلة من أمره وقال: «جئت لأطلب منك أن تدع مينا تمضي إلى الكنيسة وتتولى مسؤولية مصايد الفئران اعتباراً من الغد» وأضاف موضحاً: «مرضت ترينيداد منذ السبت الماضي».

أبدى توتو ڤايسبال موافقته.

تدخلت الضريرة في الحديث: «يتمنى المرء أن يضيع

الوقت، فقبل كل شيء وبعده سيبلغ العالم نهايته هذا العام».

وضعت أم مينا راحتها على ركبة الضريرة لعلها تلتزم الصمت.

دفعت اليد بعيداً.

قال القس: «الرب يعاقب مَن يروجون الخرافات».

قالت الضريرة: «مكتوب في الكتاب المقدّس سيتدفق الدم في الدروب ولن يكون بمقدور قوة بشرية وقفه».

رمقها القس مشفقاً، كانت طاعنة في السن، بالغة الشحوب، وبدت عيناها العمياوان كما لو كانتا تقتحمان حجب الأشياء لتفضا أسرارها.

قالت مينا ساخرة: «السوف تستحم بالدماء».

التفت الأب أنجيل نحوها، رآها تنهض بشعرها الفاحم والشحوب عينه الذي يسم الضريرة من قلب دوامة الأشرطة والورق الملون، بدت كخاتمة رمزية لمهرجان مدرسي.

قال لها: «وأنت، تشتغلين يوم الأحد».

تدخلت الضريرة مجدداً في الحديث: «قلت لها بالفعل أن السماء ستمطر رماداً محترقاً على رأسها».

ابتسمت مينا قائلة: «إن للضرورة وجه طلب».

كان القس لا يزال واقفاً فأدنى توتو ڤايسبال مقعداً ودعاه للجلوس، كان رجلاً هشاً مرتبك الحركات بسبب حيائه.

رفض الأب أنجيل قائلاً: «شكراً سيلحقني موعد حظر التجول في الطريق» لاحظ الصمت العميق الذي ران على البلدة فقال معقباً: «يبدو أن الساعة قد تجاوزت الثامنة».

ثم تبيّن سر الصمت المطبق، فبعد أن ظلت السجون خاوية لعامين تقريباً أودع بيبي أمادور السجن ووقعت البلدة تحت رحمة القتلة الثلاثة، فلزم الناس دورهم مع حلول الساعة السادسة».

بدا الأب أنجيل وكأنه يحادث نفسه وهو يقول: «غريب أن يفلت الأمر على هذا النحو».

قال ڤايسبال: «كان لا بد أن يقع هذا عاجلاً أو آجلاً».

لدى الباب قال القس مواصلاً حديثه: «نسيج العنكبوت يلف البلدة كلها».

ـ ألم تر المنشورات؟

وقف الأب أنجيل متحيراً: «مرة أخرى؟»

تدخلت الضريرة قائلة: «في أغسطس ستبدأ أيام الظلمة الثلاثة».

مدت مينا يدها لتقدم لها زهرة كانت قد بدأت في صنعها وقالت لها: «اصمتي وكفي عن هذا!» تعرفت الضريرة الزهرة بحاسة اللمس.

قال القس: «هكذا رجعت من جديد».

قال توتو ڤايسبال: «منذ حوالى أسبوع، لأني وجدت واحداً

هنا دون أن أعرف مَن الذي أحضره، أتعرف فحواه؟»

أومأ القس برأسه.

واصل توتو ڤايسبال الحديث: «يقولون إن كل شيء على ما كان عليه تماماً، الحكومة تغيّرت ووعدوا بأن يسود السلام وتقدّم ضمانات وفي البداية صدقهم الجميع لكن المسؤولين ما زالوا هم أنفسهم».

قالت أم مينا: «وهذا صحيح، فها نحن قد فرض علينا خطة التجول مجدداً وأطلق أولئك القتلة الثلاثة في الشارع».

قال توتو ڤايسبال: «لكن هناك أمراً جديداً واحداً، فهم يقولون الآن أن هناك مجموعات منظمة من رجال العصابات تعمل ضد الحكومة من جديد».

قالت الضريرة: «هكذا كله مكتوب».

قال القس مكتئباً: «عبث، علينا أن ندرك أن الموقف قد تغيّر» وصحّح حديثه قائلاً: «أو على الأقل كان قد تغيّر حتى هذه الليلة».

تساءل بعد ساعات مؤرقاً في حر الكلة الخانق رغم ذلك عما إذا كان الزمن قد مرَّ حقاً خلال السنوات التسع عشرة التي قضاها في الأبرشية، وبإزاء داره ذاتها سمع ضجيج الأحذية والأسلحة الذي كان في أوقات أخرى يسبق دوي طلقات البنادق، في هذه المرة ابتعد وقع الأحذية ومرَّ مجدداً بعد ساعة دون إطلاق للنار، وبعد وقت قصير أدرك وقد عذبه إعياء الأرق والحر أن الديكة كانت تصيح منذ فترة.

الفصل التاسع

حاول ماتيو آزيس تخمين الوقت برصد صياح الديكة، وأخيراً طفا على سطح الواقع.

ـ كم الساعة؟

مدت نورا جاكوب ذراعها في الظلال والتقطت الساعة بمؤشريها الفوسفوريين من فوق المنضدة القريبة من الفراش، أيقظتها تماماً الإجابة التي لم تكن قد ندت عنها بعد.

قالت: «الرابعة والنصف».

ـ اللعنة!

قفز ناهضاً من الفراش لكن الألم الذي انبعث في رأسه ثم اللعاب المعدني في فمه أجبراه على أن يخفف من غلوائه، فتحسس الأرض في الظلمة بقدمه بحثاً عن حذائه.

قال: «كان يمكن أن يدركني ضوء النهار».

قالت: «كم يكون ذلك جميلاً» أضاءت المصباح الصغير فتعرفت عموده الفقري الناتىء الفقرات وردفيه الشاحبين،

وأضافت: «عندها ستضطر إلى البقاء مختبئاً هنا حتى الصباح».

كانت عارية تماماً، وتغطي أسفل خاصرتها فحسب بطرف الملاءة، حتى صوتها فَقَدَ وقاحته الدافئة حينما أضيء المصباح.

انتعل حذاءه، كان طويلاً قوياً، أحست نورا جاكوب التي كانت تستقبله بين الحين والآخر طوال عامين بضرب من الاحباط إزاء الحظ الذي شاء لها أن تمتلك سراً ناصية رجل بدا لها أنه خلق لتتحدث المرأة عنه.

قالت: «إذا لم تلزم الحذر فسوف تترهل».

ردَّ محاولاً إخفاء استياءه: «إنها الحياة الرخية» وأضاف مبتسماً: «لا بد أني حامل».

قالت: «وددت لو كنت كذلك، فلو عرف الرجل الوضع لقلت لامبالاتهم».

التقط مانع الحمل من الأرض مع سراويله التحتية ومضى إلى الحمام فألقى بها في المرحاض، اغتسل متجنباً التنفس بعمق، فقد كان المكان يضوع في الفجر برائحتها، وحينما عاد إلى الغرفة ألفاها تقتعد الفراش.

قالت: «ذات صباح سأمل هذا التخفي وأخبر العالم كله».

لم ينظر إليها حتى أتم ارتداء ثيابه، فأدركت أن ثدييها اللذين لم يعرفا الترهل لا زالا على عريهما فغطت نفسها حتى العنق بالملاءة دون توقف عن الثرثرة.

أضافت: «لست أرى كم الساعة الآن فدعنا نتناول طعام

الافطار في الفراش ونظل هنا حتى الأصيل، فأنا قادرة على تعليق نشرة فضائح بنفسي».

ندت عنه ضحكة من القلب.

قال: «سيموت العجوز المسكين بنيامين، ماذا يفعل الآن؟»

قالت: «يمكنك أن تتصور، إنه ينتظر موت نستور جاكوب».

رأته يلوح بيديه مودعاً لدى الباب، فقالت: «حاول أن ترجع عشية عيد الميلاد» فوعدها بذلك، سار على أطراف أصابع قدميه عبر الباحة وخرج إلى الشارع عبر الباب الرئيسي، كانت هناك قطرات ندى ثلجية سرعان ما بللت جلده، وفيما هو يقترب من الميدان ارتطمت به صيحة:

ـ قف!

أضيء مشعل كهربائي في عينيه فأشاح بوجهه.

قال العمدة المحتجب خلف الضوء: «أوه! اللعنة، انظروا مَن وجدنا، أذاهب أنت أم عائد؟»

أطفأ مشعله، فرآه ماتيو آزيس بصحبة رجال الشرطة الثلاثة، كان وجهه مغسولاً ومنتعشاً وقد علق الرشاش بكتفه.

قال: عائد.

اقترب العمدة ليتطلع إلى ساعته في ضوء مصباح الطريق، كانت هناك عشر دقائق لا بد أن تنقضي قبل حلول الخامسة،

بإشارة موجهة إلى رجاله أمر العمدة بانهاء حظر التجول وظلَّ ماتيو آزيس موقوفاً حتى انتهاء نفخ النفير الذي أضفى على الفجر نغمة حزينة، ثم صرف رجال الشرطة وصحب ماتيو آزيس عبر الميدان.

قال: «هكذا الحال، لقد انتهت مشكلة الأوراق».

كان صوته ينضح بالإعياء أكثر مما يشي بالغبطة.

ـ هل أمسكوا بمَن يلصقها؟

قال العمدة: «ليس بعد، لكنني قمت بالجولات الأخيرة وبوسعي أن أؤكد لك اليوم وللمرة الأولى أن ورقة واحدة لن ترى الفجر معلقة على الحائط، لم يتعد الأمر الضغط على عنق الجناة».

لدى وصولهما إلى الباب الرئيسي لدار ماتيو آزيس تقدّم هذا لتهدئة الكلاب، كانت الخادمات قد شرعن في التحرك جيئة وذهاباً في المطبخ وحينما دخل العمدة حيّته زمجرة الكلاب المقيدة وهي الزمجرة التي سرعان ما استحالت بعد لحظة إلى خطوات لحيوانات أليفة مسالمة، ألفتهما الأرملة آزيس جالسين يحتسيان القهوة على المقعد الحجري بالمطبخ وقد علت الشمس.

قالت: «الرجل الذي يستيقظ مبكراً خدين طيب وزوج سيء».

ورغم روحها المرحة كشف وجهها عذاب ليلة من الأرق الحاد، ردَّ العمدة تحيتها، التقط رشاشه من الأرض وتقلده.

قالت: «تناول القهوة التي تريدها أيها الملازم لكن لا تجلب سلاحاً نارياً إلى داري!»

ابتسم ماتيو آزيس قائلاً: «على العكس، ينبغي أن تقترضيه لتذهبي إلى القداس به، ألا تعتقدين أن هذا صواب؟»

ردّت: «لست بحاجة إلى نفاية كهذه لأحمي نفسي فالعناية الإلهية إلى جانبنا» وأضافت جادة: «كان آل آزيس ممن يتقون الله قبل أن يوجد قس على أميال بعيدة».

حيّاهم العمدة مودعاً قائلاً: «على أن أتحين سنة من النوم فليست هذه حياة صالحة لمسيحي» وشقَّ طريقه وسط الدجاج والبط والديكة الرومية التي شرعت في غزو الدار، فأبعدتها الأرملة، ودلف ماتيو إلى غرفته، تحمّم وبدّل ملابسه وخرج ليسرج بغلته، فقد انطلق إخوته مغادرين الدار فجراً.

كانت الأرملة آزيس ترعى أقفاص الطيور حينما بدا ولدها في الباحة.

حدثته قائلة: «تذكّر أن العناية بجلدك أمر يختلف عن معرفة كيفية إبقاء الآخرين بعيداً عنه!»

قال: «جاء معي فحسب لتناول قدح من القهوة لقد سرنا نتحدث حتى باب الدار دون ملاحظة ذلك».

وقف عند نهاية الرواق يتطلع إلى أمه لكنها لم تلتفت إليه حينما تحدثت وبدت كما لو كانت تخاطب الطيور، فردّت: «سأقول لك هذا فحسب: لا تحضر قتلة إلى داري» وتفرغت له تماماً بعد فراغها من العناية بأقفاص الطيور:

- وأنت، أين كنت؟

في ذلك الصباح اعتقد القاضي أركاديو أنه اكتشف نذر شؤم في الأحداث العارضة التي تشكل الحياة اليومية، فقال محاولاً تفسير قلقه لزوجته: «إنها تسبب لك الصداع» كان صباحاً مشمساً وقد تجرّد النهر لأول مرة خلال أسابيع عديدة من مشهده المفزع ورائحة اللحم المهترىء التي كانت تنبعث منه، فمضى العمدة إلى حانوت الحلاق.

استقبله هذا قائلاً: «العدالة تسير ببطء، لكنها تصل في النهاية».

كانت أرض الحانوت قد نظفت ولمعت بالزيت وغطيت المرايا بضربات فرشاة مغموسة في الرصاص الأبيض، فشرع الحلاق في تلميعها بخرقة فيما استقر القاضي أركاديو في المقعد.

قال: «ينبغي ألا يكون هناك شيء من قبيل أيام الاثنين».

شرع الحلاق في قص شعره.

قال مبادراً في مرح: «يوم الأحد هو الملوم، فلولاه لما كانت هناك أيام اثنين».

أغمض القاضي أركاديو عينيه، فلم يبق ثمة ما يلوم يوم الأحد بشأنه بعد نعاس دام عشر ساعات ومضاجعة متوقدة هياجاً وحمام استغرق طويلاً، لكن هذا اليوم كان يوماً غليظاً من أيام الاثنين وحينما دوى رنين الساعة التاسعة في برج الكنيسة وحلّ أزيز ماكينة الحياكة في الدار المجاورة محل رنين الجرس كان ثمة

شيء آخر جعل القاضي أركاديو يرتعد: كان الصمت يجوب الشوارع.

قال: «هذه مدينة أشباح».

قال الحلاق: «لقد أردتموها أيها القوم على هذا النحو، كنت قبلاً أقص في صباح يوم الاثنين شعر خمسة رؤوس قبل التاسعة أما اليوم فأنت أول عطايا الرب لي».

فتح القاضي أركاديو عينيه وتأمل النهر لحظة في المرآة وردّد: «أيها القوم» ثم تساءل: «مَن تقصد؟»

تردّد الحلاق: «أنتم، قبلكم كانت هذه البلدة رائعة شأن مثيلاتها جميعاً، لكنها الآن أسوأها».

ردَّ القاضي: «إذا كنت تحدّثني بمثل هذه الأمور فذلك لأنك تعرف ألاّ علاقة لي بهم» وتساءل دون أن يكتسي صوته نغمة عدوانية: «أتجرؤ على أن تحدث العمدة بمثل هذا؟»

أقرَّ الحلاق بأنه ما كان ليجرؤ على ذلك.

قال: «لعلك لا تدري ما معنى أن تنهض كل صباح وأنت على يقين من أنهم سيقتلونك وتمر عشر سنوات دون أن يقتلوك».

أقرَّ بدوره قائلاً: «لست أدري ولا أريد أن أدري».

قال الحلاق: «افعل كل ما بوسعك حتى لا تعرف ذلك يوماً».

أحنى القاضي رأسه وبعد صمت طويل تساءل: «أتعلم يا

جارديولا؟» ودون انتظار للرد أضاف: «الملازم يتردى عميقاً في هذه البلدة ويغوص أعمق فأعمق كل يوم لأنه اكتشف متعة لا خلاص منها، شيئاً فشيئاً ودون ضجيج يذكر يزداد ثراء». وبما أن الحلاق كان يصيخ السمع صامتاً فقد أنهى حديثه قائلاً: «أراهنك أنه لن يكون مسؤولاً عن حادث قتل واحد آخر».

- أتظن ذلك؟

قال مصراً: «أراهنك بمائة بيزو لقاء بيزو واحد منك».

- في الوقت الحالي ليس ثمة عمل يناسبه أكثر من إقرار السلام.

انتهى الحلاق من قص شعره فرد المقعد للخلف وبدّل المنشفة صامتاً وحينما التقط خيط الحديث أخيراً كانت بحة القلق تمازج صوته.

قال: «غريب أن تكون أنت مَن يقول ذلك ويقوله لي».

لو أن الوضع الذي كان القاضي جالساً فيه كان يسمح له بأن يهز كتفيه لما تردد في القيام بذلك.

قال كمَن يقرر حقيقة: «ليست هذه هي المرة الأولى التي قلت فيها هذا».

قال الحلاق: «الملازم صديقك الأثير».

كان قد خفض صوته فتردد متوتراً ودوداً، بدت على ملامحه وهو منهمك في العمل سمات شخص لم يعتد الكتابة حينما يوقع باسمه.

سأل القاضي أركاديو جاداً: «خبرني بأمر واحد يا جارديولا، ما هو انطباعك عني؟»

كان الحلاق قد شرع في حلاقة لحيته، فأمعن التفكير لحظة قبل الرد.

قال: «حتى الآن كنت أعتقد أنك رجل يعلم أنه سيغادر هذه البلدة ويرغب في ذلك».

ابتسم القاضي قائلاً: «بإمكانك مواصلة التفكير على هذا النحو».

استسلم لحلاقة لحيته باللامبالاة المكتئبة ذاتها التي كان يمكن أن يستسلم بها لقطع رقبته، أبقى عينيه مغمضتين فيما كان الحلاق يدلك فكه بقطعة من حجر الشب وينشر الذرور ثم يزيله بفرشاة ناعمة للغاية، وحينما نزع المنشفة من حول عنقه دس وريقة في جيب قميصه.

قال له: «هناك شيء واحد أخطأت فيه أيها القاضي، فهذه البلاد ستشهد انتفاضة عظيمة هائلة».

تلفت القاضي حوله ليتيقن من أنهما لا يزالان وحدهما في الحانوت، كانت الشمس اللاهبة وأزيز ماكينة الحياكة في صمت التاسعة والنصف ويوم الاثنين الذي لا فرار منه تشير إلى شي آخر إضافي بالنسبة له: لاحا كما لو كانا وحدهما في البلدة، ثم استل الورقة من جيبه وراح يطالعها.

أدار الحلاق ظهره ناحيته وراح يرتب رفه، قال مردداً من

ذاكرته ما تتضمنه الورقة: «ولا تزال حالة الطوارىء ذاتها مفروضة والرقابة على الصحف عينها والمسؤولون المخضرمون أنفسهم» وحينما رأى القاضي أركاديو في المرآة وقد كف عن القراءة قال له:

- مررها للآخرين!

دسَّ القاضي الورقة ثانية في جيبه.

قال: «أنت شجاع جداً».

قال الحلاق: «لو أنني أخطأت في الحكم على أحد لأصبحت مليئاً بالرصاص منذ سنوات» ثم أضاف بصوت جاد: «تذكّر شيئاً واحداً أيُها القاضي: لن يتمكن أحد من إيقاف الانتفاضة هذه المرة!»

حينما غادر القاضي أركاديو حانوت الحلاق أحسَّ بجفاف حلقه، فدعا في مكتب المراهنات بجرعتين مضاعفتين من شراب مسكر فتجرعهما الواحدة تلو الأخرى وإثر ذلك أدرك أن هناك وقتاً طويلاً يتعين أن يقتله، كان قد حاول أيام دراسته الجامعية أن يجرب ذات سبت علاجاً طائشاً لمرض غامض، فمضى إلى مرحاض بأحد المشارب بكامل وقاره ونثر بعض البارود على فرجة جنسية صلبة وأشعل النار فيها.

مع الكأس الرابعة خفف دون روكه الجرعة وقال مبتسماً: إذا مضيت بهذا المعدل فسوف يحملونك إلى الخارج على أكتافهم مثل مصارع ثيران» ابتسم بدوره لكن الابتسامة لم تتجاوز شفتيه فظلت عيناه مطفأتين، بعد نصف ساعة مضى إلى المرحاض،

تبول، وقبل أن يخرج دفع بالمنشور في باطن المرحاض.

حينما ارتد إلى المشرب ألفى الزجاجة قائمة إلى جوار الكأس وخط بالحبر يحدد مستوى السائل، قال له دون روكه: «هذا ما احتسيته وحدك» مضى يستجلب الهواء متئداً، أقفر المكان إلاّ منهما، فصبَّ القاضي لنفسه نصف كأس وعكف على ارتشافه ببطء، سأل: «أتدري؟» ولما لم يجر دون روكه ما يدل على أنه فهم قال له: «سيقع أمر هائل في هذه البلدة».

كان دون ساباس يزن إفطار طائره حينما تناهى إليه نبأ زيارة أخرى يقوم بها السيد كارمايكل لداره فهمس في أذن زوجته: «خبّريه بأني نائم» وبعد عشر دقائق كان قد استسلم للنوم حقاً، وكان الجو قد غدا جافاً مرة أخرى لدى استيقاظه وأصاب الحر الدار بالشلل، كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة.

سألته زوجته: «بم حلمت؟»

- لا شيء.

تمهلت حتى يصحو زوجها دون أن تثور ثائرته، بعد لحظة غلت المحقنة فحقن دون ساباس فخذه بجرعة من الأنسولين.

قالت الزوجة باستياء ممطوط مع صوتها: «مرت ثلاث سنوات ولم يراودك حلم».

صاح: «اللعنة، ماذا تريدين الآن؟ لا يمكن إجبار أحد على أن يحلم».

قبل سنوات كان دون ساباس قد حلم خلال قيلولة الظهيرة

بأنه شاهد شجرة سنديان كانت تحمل بدلاً من الزهور شفرات حلاقة، ففسرت زوجته الحلم وفازت بجائزة في اليانصيب.

قالت: «إن لم تحلم اليوم فغداً».

قال نافد الصبر: «لم يحدث اليوم ولن يقع غداً، لن تراودني الأحلام فافعلي ما تشائين!»

تمدّد في الفراش من جديد فيما زوجته تنسق الغرفة، كانت أنواع الآلات القاطعة كافة قد أبعدت عنها، وحينما انقضت نصف ساعة نهض دون ساباس متمهلاً ومتجنباً الانفعال وشرع في ارتداء ملابسه.

تساءل: «ماذا قال كارمايكل؟»

- إنه سيعود فيما بعد.

لم يتبادلا الحديث مرة أخرى حتى جلسا إلى المائدة، فراح يتناول دون حماسة طعامه البسيط الذي يناسب حالته المرضية، أما زوجته فمدت أمامها وجبة كاملة تبدو للوهلة الأولى ضخمة لجسمها الهش وملامحها الفاترة، قلبت الأمر طويلاً في ذهنها قبل أن تقرر طرح السؤال:

- ما الذي يريده كارمايكل؟

لم يكترث دون ساباس حتى برفع رأسه.

- نقود، ماذا غير ذلك؟

تنهدت المرأة قائلة: «ظننت ذلك» ثم استأنفت بصوت

تمازجه الشفقة: «يا لكارمايكل المسكين، أنهار النقود تنساب بين يديه لسنوات عديدة ويظل يتقوت من نفحات الكرام» وفيما هي تتحدث فقدت شهيتها للطعام.

ناشدته قائلة: «أعطه إياها يا سابيتاس، سيخلفها الرب عليك» صالبت شوكتها وسكينها فوق الصحفة وقالت بفضول: «كم يحتاج؟»

ردَّ بهدوء: «ماتا بيزو».

- تصور!

على العكس تماماً من يوم الأحد الذي يعد أكثر الأيام إزعاجاً اعتاد دون ساباس أن يمضي أصيلاً هادئاً يوم الاثنين، كان بمقدوره أن ينفق ساعات طويلة في مكتبه يغط أمام المروحة الكهربائية فيما قطعانه تكبر وتسمن وتتوالد في مرابيه، غير أنه اليوم لم ينل لحظة راحة واحدة.

قالت المرأة: «إنه الحر».

تعمد دون ساباس أن يدعها تلمح شرارة ضيق في عينيه الذابلتين، في المكتب الضيق ذي القمطر الخشبي العتيق والكراسي الجلدية الأربعة وأطقم الخيول المكومة في الأركان كانت المصاريع مغلقة والهواء دافئاً غليظاً.

قال: ربما، لم يكن الجو حاراً من قبل على هذا النحو في أكتوبر».

قالت: «أتذكر منذ خمسة عشر عاماً حينما ساد حر كهذا وقع زلزال».

قال مباغتاً: «لا أذكر، تعلمين أني لا أتذكر شيئاً» وأضاف متذمراً: «ثم إني لست في حالة تدعوني للحديث عن الكوارث هذا الأصيل».

تناول مغمضاً عينيه ومصالباً ذراعيه على بطنه، غمغم: «إذا جاء كارمايكل فقولي له إني لست هنا» فارتسم التوسل على ملامح زوجته.

قالت: «لست في حالة مزاجية طيبة».

لكن لم يتحدث مرة أخرى، فغادرت المكتب دون أن تحدث أدنى صوت وهي تسدل الستار على الباب، وعند الغسق بعد أن غفا دون ساباس بالفعل فتح عينيه فرأى أمامه العمدة وكأنما هو امتداد لحلم ينتظر استيقاظه.

ابتسم الملازم قائلاً: «لا ينبغي لرجل مثلك أن يغفو والباب مفتوح».

لم يبد على ملامح دون ساباس ما يمكن أن يشي بضيقه، قال: «أبواب داري مفتوحة لك دائماً»، مدَّ يده ليقرع الجرس لكن العمدة أوقفه بتلويحة من يده.

تساءل دون ساباس: «ألا تريد بعض القهوة؟»

قال العمدة مكتسحاً الغرفة بنظرة يمازجها الحنين: «ليس الآن، كان الجو بديعاً هنا وأنت نائم، بدا الأمر كما لو كنت في بلدة أخرى مختلفة».

فرك دون ساباس أجفانه بأشاجعه متسائلاً:

ـ كم الساعة؟

تطلع العمدة إلى ساعته، قال: «إنها تقترب من الخامسة» غيَّر وضعه في مقعده ومضى في رقة نحو ما يريد قوله.

ـ الآن هل نتبادل الحديث؟

قال دون ساباس: «أعتقد أنه لا مفر لي من ذلك».

قال العمدة: «لن يستحق التملص عناء القيام به، وفي نهاية الأمر ليس هذا سراً مكتوماً عن أحد» وبالفتور المسترخي ذاته ودون أن يشدد على كلماته أو إيماءاته لحظة أضاف:

ـ حدثني بأمر واحد يا دون ساباس كم رأساً من قطعان الأرملة مونتيل نحرتها ودمغتها بخاتمك منذ عرضت عليك ابتياع مزرعتها؟

هزَّ دون ساباس كتفيه.

ـ ليس لدي أدنى فكرة.

قال العمدة كمَن يقرر حقيقة: «لعلك تذكر أن شيئاً كهذا يطلق عليه اسم ما».

تلفظ العمدة به مدققاً: «سرقة الماشية».

قال العمدة مؤكداً: «هذا صحيح» واستطرد دون تغيّر في نبرة صوته: «فلنقل على سبيل المثال أنك نحرت مئتي رأس في ثلاثة أيام».

قال دون ساباس: «يا ليت».

قال العمدة: «النقل مائتي رأس، والشروط معروفة لك: خمسون بيزو لكل رأس تدفع كضرائب للبلدية».

ـ أربعون.

ـ خمسون.

استسلم دون ساباس صامتاً، كان يتكىء على ظهر مقعده الدوار مديراً الخاتم ذا الحجر الأسود المصقول حول إصبعه وعيناه ثابتتان على رقعة شطرنج وهمية.

رمقه العمدة باهتمام تجرد تماماً من الاشفاق وأضاف: «غير أن الأمور هذه المرة لا تقف عند هذا الحد، فمن هذه اللحظة وصاعداً تقع قطعان مزرعة جوزيه مونتيل أياً كان موضعها تحت حماية حكومة المدينة» ومضى مفسراً:

ـ هذه المرأة المسكينة معتوهة تماماً كما تعلم.

ـ وماذا عن كارمايكل؟

قال العمدة: «أودع السجن منذ ساعتين».

تفحصه العمدة وقد علا ملامحه تعبير حائر بين الولاء والذهول، ودون مقدمات انفجر الجسم اللاحم العليل فوق المكتب مهتزاً بضحك عارم لا سبيل لكبح جماحه.

قال: يا لها من معجزة أيها الملازم، لا بد أن هذا كله يبدو لك كالحلم».

عند الغسق تيقن دكتور جيرالدو أنه قد تملك ناصية الماضي، مرة أخرى عمَّ الغبار شجرات اللوز في الميدان، إن

شتاء جديداً ينقضي لكن خطاه المختلسة كانت تترك آثاراً عميقة في ذاكرته، وكان الأب أنجيل عائداً من جولة الأصيل التي اعتاد القيام بها حينما ألفى الطبيب يحاول دس المفتاح في قفل عيادته.

ابتسم قائلاً: «كما ترى يا دكتور، حتى لكي تفتح باباً تمس حاجتك إلى عون الرب».

ابتسم الطبيب بدوره وقال: «أو مشعل كهربائي».

أدار المفتاح في القفل ثم محض الأب أنجيل اهتمامه كله، رآه غليظاً ومهتزاً في عتمة الغسق، فقال: «انتظر لحظة يا أبت، لا أعتقد أن كبدك على ما يرام» وأمسك بذراعه.

ـ ألا تعتقد ذلك؟

أنار الطبيب المصباح قرب الباب الخارجي وباهتمام يفيض بالاشفاق الشخصي بأكثر ما يشي بالفضول المهني فحص وجه القس، ثم أزاح الستار المسدل على الباب وأضاء مصابيح العيادة.

قال: ليس كثيراً أن تهب لجسمك خمس دقائق يا أبت فلنلق نظرة على ضغط دمك».

كان الأب أنجيل في عجلة من أمره ولكنه دلف إلى العيادة إزاء إصرار الطبيب وأعد ذراعه للمضغاط.

قال: «في شبابي لم يكن هناك وجود لمثل هذه الأشياء».

وضع الدكتور جيرالدو مقعداً أمامه وجلس عليه لتشغيل المضغاط.

ابتسم قائلاً: «هذا أوان شبابك يا أبت، لن يخونك جسمك».

فيما كان الطبيب يتابع المؤشر فحص القس الغرفة بذلك الفضول الساذج الذي تثيره غرف الفحص الطبي عادة، تدلت على الجدران شهادات علمية حائلة اللون وصورة لفتاة موردة الوجه اختطفت الزرقة أحد خديها ولوحة تصويرية لطبيب يجالد الموت وبينهما إمرأة عارية، في مؤخرة الغرفة وخلف السرير الحديدي كانت هناك خزانة متخمة بالقوارير التي ألصقت بها أوراق تحمل تعريفاً بمحتوياتها، وإلى جوار النافذة خزانة تضم أدوات الفحص وأخريان تكدست داخلهما الكتب وكانت الرائحة الوحيدة التي يمكن تحديدها هي رائحة الكحول الطبي.

حينما فرغ الطبيب من قياس ضغط الدم لم تفصح ملامحه عن شيء.

غمغم الأب أنجيل: «تحتاج صورة قديس في هذه الغرفة».

رمق الطبيب الجدران: ليست الحاجة ماسة إليه هنا فحسب وإنما في المدينة بأسرها: «وضع المضغاط في حقيبة جلدية وأغلقها بجذبة نشطة للزمام. وقال:

ـ ينبغي أن تعرف أمراً واحداً يا أبت، ضغط دمك رائع.

قال القس: «هذا ما تصورته، وأضاف بحيرة يمازجها الفتور: «لم أشعر قط في أكتوبر بأني في خير حال كما أشعر الآن».

شرع ببطء يرد أكمام ردائه، في هذه اللحظة بدت جلية حالته الأساسية، فبعباءته المرفوة الحوافي ونعليه المتشققين ويديه الخشنتين بأظافرهما التي تحاكي قروناً محترقة بدا رجلاً فقيراً فقراً مدقعاً.

ردّ الطبيب: «رغم ذلك أشعر بالقلق عليك، ينبغي أن تدرك أن نظامك اليومي ليس الأفضل في أكتوبر كهذا!»

قال القس: «مطالب الرب كثيرة».

استدار الطبيب ليتطلع إلى النهر عبر النافذة وقال: «أتساءل عن مدى صحة هذا، لا يبدو لي أنه أمر متعلق بشؤون الرب، ذلك الدأب عبر سنوات طويلة لتغطية غرائز الناس بدرع مع العلم الكامل بأنه تحت هذا الدرع يجري كل شيء على نحو ما كان» وبعد صمت طويل تساءل:

ـ ألم يراودك الشعور بأن عمل الرب الذي لا سبيل إلى تغييره قد تداعى خلال الأيام القليلة الماضية؟

قال الأب أنجيل: «راودني هذا الشعور في كل ليلة من عمري وذلك هو السر في أنني أعلم أن عليّ بمزيد من القوة في الصباح التالي».

انبعث واقفاً وقال متأهباً لمغادرة العيادة: «الساعة تقترب من السادسة» ودون أن يتحرك الطبيب من أمام النافذة بدا كما لو كان يمد ذراعه ليعترض طريقه.

ـ أبت، ضع راحتك ذات ليلة على قلبك وسل نفسك عما

إذا لم يكن ما تقوم به هو محاولة تضميد جراح الفضيلة.

لم يستطع الأب أنجيل إخفاء شعور داخلي مفزع بالاختناق فقال: «في ساعة الاحتضار ستتعلم كم هي ثقيلة هذه الكلمات أيُّها الطبيب!» حيّا مودعاً وأغلق الباب برقة لدى رحيله.

في صلاته لم يستطع تركيز أفكاره، وفيما هو يغلق الكنيسة أقبلت مينا لتقول إن فأراً واحداً سقط في المصيدة خلال يومين، فراوده شعور بأنه في غياب ترينيداد تعاظمت الفئران حتى غدت تهدد بتقويض الكنيسة، ورغم ذلك أعدت مينا المصايد، وكانت قد سممت الجبن وتتبعت آثار الفئران الصغيرة وأحكمت غلق الجحور التي ساعدها بنفسه في العثور عليها بالقار.

قال لها: «دعي قليلاً من الإيمان يخالط عملك وعندها ستقبل الفئران إلى المصايد كالحملان».

تقلب طويلاً فوق الحشايا الجرداء قبل أن يغفو، وفي وهن اليقظة أدرك تماماً ذلك الشعور الغامض بالهزيمة الذي غرسه الطبيب في فؤاده، وتآمر ذلك القلق ثم حشود الفئران في الكنيسة والشلل المخيف الذي أحدثه حظر التجول جميعاً لتمكين قوة عمياء من اجتذابه إلى جحيم أشد ذكرياته هولاً.

كان قد وصل إلى البلدة لتوه فأيقظوه في منتصف الليل لمناولة نورا جاكوب قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة، أصغى لاعتراف حافل أدلت به في صوت هادئ وعلى نحو دقيق ومفصل في المخدع المعد لاستقبال ملاك الموت: كان كل ما بقي هو أيقونة للمسيح مصلوباً عند رأس الفراش ومقاعد خاوية

عديدة إلى جوار الجدران، لم يكن نستور جاكوب زوج المحتضرة فيما أعلنته أباً لطفلتها المولودة لتوها، اشترط لإحلالها من خطاياها أن تكرر الاعتراف وطلب الغفران الأخير بحضور زوجها.

الفصل العاشر

أذعن لاعبو السيرك لأوامر المدير المنغمة فنزعوا الأوتاد وتهاوت الخيام كأنما في كارثة جهمة وصفير كالأنين يصدر عنها مثلما تصفر الريح بين الأشجار، وحين أطل الفجر كانت الخيام قد طويت والأطفال والنسوة يتناولون طعام الإفطار وسط حقائب السفر فيما نقل الرجال الحيوانات المفترسة إلى ظهور الزوارق وعندما أطلقت هذه الأخيرة صفيرها الأول كانت آثار نيران المخيم في الأرض الفضاء هي الإشارة الوحيدة إلى أن السيرك مرَّ بالبلدة.

لم يكن العمدة قد ذاق طعم النوم، وبعد مراقبة نقل معدات السيرك إلى الزوارق راح يضرب في ضجيج المرفأ وما يزال في زيه الميداني وقد صلبت لحية وجهه طالت ليومين واعتكرت عيناه من فرط الرغبة في النوم، فلمحه مدير السيرك من موضعه فوق سقف الزورق.

صاح به منادياً: «مرحباً أيها الملازم، ها أنذا أغادر مملكتك بأسرها».

كان يلبس رداء سروالياً فضفاضاً عتيقاً أضفى على وجهه

المستدير لمحة كهنوتية ويحمل سوطه ملتفاً في قبضته.

دنا العمدة من حافة الرصيف وصاح ملوحاً بيديه في مرح: «معذرة أيها الجنرال، آمل أن تكون شريفاً فتحدّث أتباعك عن سر رحيلك» ثم التفت إلى الحشد وقال موضحاً بصوت عال: «سحبت تصريحه لأنه رفض تقديم عرض مجاني للأطفال».

أغرق الصفير الأخير للزوارق وضجيج المحركات رد مدير السيرك، ومج الماء رائحة الطمى الفاتر، فانتظر إلى أن استدارت الزوارق وسط النهر، وعندئذ انحنى عبر الحاجز مستخدماً يديه كمكبر للصوت وصاح بكل ما في رئتيه من قوة:

- وداعاً يا شرطي يا ابن المومس!

لم يحر العمدة رداً، ظلّ منتظراً ويداه في جيبه إلى أن تبدّد صوت المحركات فشق طريقه عبر الحشد باسماً ومضى إلى حانوت موسى السوري.

كانت الساعة قد أوشكت على بلوغ الثامنة وقد شرع السوري في جمع السلع المعروضة إلى جوار الباب.

قال له العمدة: «هكذا ترحل بدورك».

قال السوري ناظراً إلى السماء: «الفترة قصيرة، سيهطل المطر».

قال العمدة كمَن يقرّر حقيقة: «المطر لا ينهمر في أيام الأربعاء».

تراجع بكوعيه فأسندهما إلى المنضدة ملاحظاً السحب

الكثيفة المحلقة فوق الأرصفة حتى انتهى السوري من جمع السلع وطلب من زوجته أن تجلب لهما بعض القهوة.

تنهد كمَن يحدّث نفسه: «على هذا النحو سنضطر إلى اقتراض الناس من المدن الأخرى».

احتسى العمدة قهوته على مهل، كانت ثلاث عائلات أخرى قد غادرت البلدة، ووفقاً لتقديرات السوري يبلغ عدد العائلات الراحلة مع هذا التطور خمس عائلات في أسبوع واحد.

قال العمدة: «سيعودون إن عاجلاً أو آجلاً» وراح يحدّق ممعناً التفكير في الآثار الغامضة التي خلفتها القهوة في قاع القدح وعقب ساهماً بقوله: «سيتذكرون أينما مضوا أن حبالهم السرية مدفونة في هذه البلدة».

وعلى الرغم من بشارته تلك اضطر إلى البقاء في الحانوت حتى ينقضي سيل المطر الذي أغرق البلدة في طوفان لعدة دقائق ثم مضى إلى ثكنات الشرطة ووجد السيد كارمايكل الذي كان لا يزال يتربع على مقعد عال وسط الباحة وقد أغرقه فيض المطر.

لم يبد اكتراثاً به، وبعد أن تلقى الأنباء من رجل الشرطة المناوب جعل رجاله يفتحون الزنزانة التي بدا بيبي أمادو غارقاً في النوم بها على الأرض الحجرية التي عانقها وجهه، قلبه بقدمه ورصد لبرهة بشفقة مكتومة الوجه الذي شوهته اللكمات.

سأل: «متى تناول الطعام لآخر مرة؟»

- الليلة قبل الماضية.

أمرهم بحمله، فجره ثلاثة منهم عبر الزنزانة ممسكين به من تحت إبطيه وأجلسوه فوق المصطبة الأسمنتية الناتئة من الجدار على ارتفاع قدمين، وفي المكان الذي كان جسده ممدداً فيه قبع ظل رطب.

أبقاه شرطيان قاعداً وأسند الثالث رأسه بجذب شعره، كان يمكن للمرء أن يظن أنه ميت لولا تنفسه المتقطع وتعبير الإعياء اللامتناهي المرتسم على شفتيه.

حينما رفع الرجال أيديهم عنه فتح عينيه، تشبثت يداه في عماء بالحافة الاسمنتية، ثم انهار على المصطبة مصدراً أنيناً خشناً.

برح العمدة الزنزانة وأمرهم بإعطائه بعض الطعام وتركه يرقد هوناً وقال: «ثم عاجلوه حتى يقيىء كل ما يعرفه، لا أظن أنه سيقاوم أكثر من هذا» ومن الشرفة رأى السيد كارمايكل في الباحة وقد دفن رأسه بين كفيه وانكفأ على نفسه فوق المقعد.

صاح منادياً: «روفيرا، امض إلى دار كارمايكل وأبلغ امرأته بأن تبعث إليه ببعض الملابس!» وأضاف على نحو باتر: «ثم أحضره إلى مكتبي!»

كان النعاس قد بدأ يساوره وقد انحنى على مكتبه حينما طرقوا الباب، لاح السيد كارمايكل مرتدياً حلة بيضاء جافة تماماً باستثناء حذائه الذي بدا متورماً لزجاً كأحذية الغرقى، وقبل مخاطبته أمر العمدة الشرطي بجلب حذاء من دار السيد كارمايكل.

رفع السيد كارمايكل يده معترضاً الشرطي وقال: «إنني على ما يرام هكذا» ثم أضاف محدثاً العمدة وقد ارتسمت على ملامحه كبرياء قاسية:

ـ هذا هو الحذاء الوحيد الذي امتلكه.

دعاه العمدة للجلوس، وكان قد اقتاده قبل أربع وعشرين ساعة إلى المكتب المحصن وأخضعه لتحقيق دقيق حول وضع ضيعة مونتيل فقدم له إيضاحاً مفصلاً وفي النهاية حينما أفصح العمدة عن اقتراحه بأن يشتري المزرعة بثمن يحدده خبراء البلدية أعلن تصميمه القاطع على عدم السماح بذلك إلى أن تثبت صحة الوصية أمام المحكمة.

وفي هذا الأصيل وبعد يومين من التجويع والتعريض للريح والمطر أفصح رده عن التصميم القاطع ذاته.

قال له العمدة: «أنت بغل يا كارمايكل، لو أنك انتظرت حتى تنظر المحكمة الوصية فإن قاطع الطريق دون ساباس سيكون قد وضع خاتمه على قطعان مونتيل بأكملها».

هزَّ السيد كارمايكل كتفيه استهانة:

قال العمدة بعد صمت طويل: «اليكن، كلنا نعلم أنك رجل شريف، ولكن تذكر أمراً واحداً، قبل خمس سنوات قدم دون ساباس لجوزيه مونتيل القائمة الكاملة لأسماء الذين تربطهم اتصالات بجماعات الثوار وهذا هو السبب في أنه كان القائد الوحيد من قادة المعارضة الذي استطاع البقاء في البلدة».

قال السيد كارمايكل وسخرية خفيفة توشي صوته: «وبقي زعيم آخر: طبيب الأسنان».

تجاهل العمدة هذه المقاطعة.

ـ أتظن أن رجلاً كهذا قادر على خيانة مَن ينتمي إليهم سيكترث بما إذا كنت ملقى طوال أربع وعشرين ساعة تحت المطر أم في رائعة النهار.

أخيراً أضاف بنغمة لينة: «فضلاً عن هذا فكر في أطفالك».

لم يكن السيد كارمايكل يعلم أن زوجته وأكبر اثنين من أبنائه قد زاروا العمدة في الليلة الماضية فوعدهم بأنه سيطلق سراحه خلال أربع وعشرين ساعة.

قال السيد كارمايكل: «لا عليك، فهم يعرفون كيف يعنون بأنفسهم».

لم يرفع رأسه حتى سمع العمدة يتجول من ناحية إلى أخرى في المكتب، أطلق تنهيدة وقال: «لا يزال أمامك طريق آخر يا سيدي الملازم!» وقبل أن يواصل حديثه رمقه بنظرة تفيض بالهدوء المفعم رقة».

ـ أطلق عليّ النار!

لم يتلق رداً، وبعد لحظة كان العمدة غارقاً في النوم بغرفته والسيد كارمايكل قد عاد إلى مقعده في الباحة تحت المطر.

على بعد مجموعتين من المباني فحسب كان السكرتير يهتز من فرط السعادة، فقد أمضى الصباح بين النوم واليقظة في خلفية

المكتب ودون أن تتاح له القدرة على تجنب الأمر لمح نهدي ربيكا آزيس الرائعين، كان ذلك مثلما لمح البرق في الضحى: فجأة فتح الحمام، وندت عن المرأة الفاتنة العارية إلاّ من منشفة لفت حول شعرها صيحة مكتومة وهرعت لإغلاق النافذة.

عذبته لنصف ساعة مرارة ذلك الحلم الكابوسي في المكتب المعتم. وحوالى الساعة الثانية عشرة أغلق الباب بالقفل وانطلق ليمنح ذاكرته غذاء.

حينما مر بمكتب البرق أشار له مدير المكتب وقال له: «سيصلنا قس جديد، فقد كتبت الأرملة آزيس رسالة إلى القاصد الرسولي» فلوح السكرتير مودعاً.

قال: «أعظم فضيلة يتصف بها الإنسان أن يعرف كيف يخفي الأسرار».

عند منعطف الميدان صادف السيد بنيامين الذي كان يمعن التفكير قبل أن يقفز متخطياً البريكات الراكدة أمام حانوته فبادره قائلاً: «لو أنك تعرف يا سيد بنيامين!»

تساءل السيد بنيامين: «أعرف ماذا؟»

قال السكرتير: «لا شيء، سأحمل معي هذا السر إلى القبر».

هزّ السيد بنيامين كتفيه دونما اكتراث وراح يرقب السكرتير وهو يقفز عبر البريكات بنشاط الشباب على نحو دفعه بدوره إلى الالقاء بنفسه في مغامرة القفز.

في غيبة السيد بنيامين وضع أحدهم طعاماً يضم ثلاث صحاف وأطباقاً وأدوات مائدة ومفرشاً مطوياً، في مؤخرة الحانوت، فنشره السيد بنيامين على المائدة ورتب الأشياء تأهباً لالتهام طعام الغداء، وقام بكل شيء في حرص بالغ فتناول الحساء أولاً بصفرته ودوائر الدهن الطافية على سطحه والعظمة الجرداء المغموسة فيه لينساب نخاعها، وفي طبق آخر التهم الأرز الأبيض واللحم المحمر وقطعة مشوية من المنيهوت، شرع الحر في التفاقم فلم يكترث السيد بنيامين به، وحينما انتهى من غذائه كوم الأطباق ووضع الصحاف مكانها وتجرع كوباً من الماء وكان يتأهب لتعليق أرجوحته حينما تناهى إليه صوت شخص يقترب من الحانوت.

تساءل صوت يشوبه النعاس: «هل السيد بنيامين هنا؟»

أطلَّ برأسه فرأى إمرأة ترتدي السواد وشعرها ملتف بمنشفة والرماد يكسو بشرتها، كانت أم بيبي أمادور.

قال السيد بنيامين: «لست هنا».

قالت المرأة: «إنه أنت».

قال: «أعرف، ولكن الأمر سيان لأني أعرف لم تبحثين عني».

وقفت المرأة مترددة إلى جوار الباب الصغير قرب مؤخرة الحانوت فيما كان السيد بنيامين ينتهي من نصب أرجوحته، ومع كل نفس كان صفير خافت يند عن رئتيها.

قال السيد بنيامين بخشونة: «لا تقفي هناك، اذهبي أو ادخلي!»

اقتعدت المرأة الكرسي المجاور للمنضدة وانخرطت في نحيب صامت.

قال: «عفواً، عليك أن تدركي أنك تعرضينني للشبهات بوقوفك هناك على مرأى من الجميع».

كشفت أم بيبي أمادور رأسها، وجففت عينيها بالمنشفة، وبحكم العادة المحض اختبر السيد بنيامين مقاومة حبال الأرجوحة حينما انتهى من اعدادها ثم ألقى نظرة إلى المرأة.

قال: «هكذا تريدين أن أكتب لك التماساً».

أومأت المرأة برأسها موافقة.

واصل حديثه: «هذا صحيح، فلا زلت تؤمنين بكتابة الالتماسات» خفض صوته وشرع يوضح لها الأمر: «العدالة هذه الأيام لا تعتمد على الالتماسات وإنما على الطلقات».

ردت: «الجميع يقولون الشيء نفسه لكن الحقيقة أن ابني وجدي مودع بالسجن».

خلال حديثها راحت تفك المنديل الذي كانت تحكم عليه قبضتها حتى ذلك الوقت وانتزعت وريقات نقد مبللة بالعرق، كانت ثمانية بيزوات، قدمتها للسيد بنيامين.

ـ إنها كل ما أملك.

رمق النقود، هزّ كتفيه لا مبالياً، التقط الوريقات وأوسدها المائدة، قال: «أعرف أن هذا لا جدوى منه لكني سأقوم به لأبرهن للرب على أنني رجل عنيد» رمقته المرأة شاكرة وشرعت في النحيب مجدداً.

محضها السيد بنيامين النصح قائلاً: «على أية حال حاولي الذهاب إلى العمدة واقناعه بتركك تري الفتى لإقناعه بقول ما يعرف، أما بغير ذلك فسيكون الأمر كالقاء الالتماسات للخنازير».

جففت أنفها بالمنشفة، غطت رأسها مجدداً، غادرت الحانوت لا تلوي على شيء.

غفا السيد بنيامين في قيلولته حتى الرابعة، وحينما مضى إلى الفناء ليغتسل كان الجو قد غدا صافياً والهواء حافلاً بالنمل الطائر، مضى بعد تبديل ملابسه وتمشيط الشعيرات القليلة الباقية له إلى مكتب البرق ليبتاع ورقة مدموغة.

كان في طريق عودته إلى الحانوت ليكتب الالتماس حينما أدرك أن أمراً ما يقع بالمدينة، سمع صيحات بعيدة، فسأل مجموعة من الصبية كانوا يعدون مارين به عما يحدث فأجابوه دون توقف، عاد إلى مكتب البرق وردّ الورقة المدموغة.

قال: «لست بحاجة لها الآن فقد قتلوا لتوهم بيبي أمادور».

هبط العمدة الدرج من مخدعه وثباً وهو لا يزال واقعاً تحت آثار النعاس يحمل حزامه بيد ويزر رداءه بالأخرى، ضلله لون الأفق عن الوقت، أدرك قبل أن يعلم شيئاً أن عليه أن يمضي إلى الثكنات.

كانت النوافذ موصدة خلال مروره، أقبلت امرأة من الاتجاه المضاد وسط الشارع ملوحة بيديها، في الهواء كانت تحلق نمال طائرة، شهر مسدسه وشرع في العدو قبل أن يدرك ما يجري.

حاول رهط من النسوة اقتحام باب الثكنات، حاول جمع من الرجال منعهن، اندفع العمدة بينهم يشق طريقه ضرباً، أسند ظهره إلى الباب وشهر مسدسه في وجه الجميع:

ـ سأردي مَن يتقدم خطوة واحدة.

عندئذ فتح شرطي كان يدفع الباب من الخلف بوابة الثكنات ببندقيته المعدة للإطلاق ونفخ صفارته، هرع شرطيان آخران إلى الشرفة فأطلقا عدة طلقات في الهواء، تراجعت المجموعة متفرقة حتى نهايتي الشارع، وفي هذه اللحظة بدت المرأة عند ركن الشارع نابحة ككلب، فتعرف فيها العمدة أم بيبي أمادور، قفز إلى الباحة ولدى الدرج أصدر أمراً للشرطي.

ـ عليك بهذه المرأة!

في الداخل جثم صمت كامل، لم يكتشف العمدة الأمر حقاً إلا حينما نحى رجال الشرطة الذين كانوا يغلقون مدخل الزنزانة ورأى بيبي أمادور، كانت يداه مدسوستين بين فخذيه وقد ارتمى على الأرض منحنياً، بدا شاحباً ولم تكن هناك آثار للدم.

أقنع العمدة نفسه بأنه ليست هناك جراح ثم رفع الوجه عالياً واضعاً أسفل القميص داخل السروال وأحكم تثبيت الأزرار وأخيراً ثبت الحزام.

حينما انبعث واقفاً كان قد استرد هدوءه لكن التعبير الذي ارتسم على ملامحه وهو يواجه الشرطة وشى بتسلل الإعياء.

- مَن الذي فعلها؟

قال العملاق الأشقر: «جميعنا، لقد حاول الهرب».

حدّق فيه العمدة مفكراً، ولثوان قلائل بدا أنه ليس لديه ما يقوله: «لن يبتلع أحد هذه الحكاية» تقدم نحو العملاق الأشقر ماداً يده:

- أعطني مسدسك!

انتزع الشرطي حزامه وسلمه، فوضع العمدة رصاصتين جديدتين موضع الخرطوشين الفارغين بالحزام ودس هذين في جيبه وأعطى المسدس لشرطي آخر، استسلم العملاق الأشقر الذي كان إذا ما لمحه المرء عن قرب يوحي ببراءة الطفولة لرفاقه وهم يقودونه إلى الزنزانة المجاورة، وهناك تجرد من ملابسه تماماً وقدمها للعمدة، جرى كل شيء في غير تعجل وكل منهم يلم بالدور المخصص له كأنهم في حفل طقوسي، وأخيراً أغلق العمدة بنفسه، زنزانة القتيل ومضى إلى شرفة الباحة، كان السيد كارمايكل لا يزال يعتلي المقعد العالي.

حينما اقتيد إلى المكتب لم يستجب للدعوة إلى الجلوس، ظلّ واقفاً أمام المكتب بملابسه التي ابتلت مرة أخرى ولم يكد يحرك رأسه حينما سأله العمدة عما إذا كان يدرك كل شيء.

قال العمدة: «طيب، إذن، لم يتح لي الوقت بعد للتفكير

فيما أزمع القيام به أو ما إذا كنت سأقوم بشيء على الاطلاق» وأضاف: «أياً كان ما سأفعله فتذكر هذا: شئت أو أبيت فأنت ضالع في الصفقة».

ظلّ السيد كارمايكل مستغرقاً في أفكاره أمام المكتب وملابسه ملتصقة بجسده وبوادر التورم تعلو جلده كما لو لم يطف بعد إلى السطح في الليلة الثالثة التي يمضيها كالغريق، وعبثاً انتظر العمدة إيماءة تدل على أنه حي.

- فكّر في الموقف يا كارمايكل، إننا شركاء الآن.

قالها بجد بل وبلمسة مأساوية لكن ذهن السيد كارمايكل لم يبد ما يدل على أنه سجلها، ظلّ دونما حراك يواجه المكتب متورماً، تعساً، حتى بعد إغلاق الباب المصفح.

أمام الثكنات قبض شرطيان على رسغي أم بيبي أمادور، بدا الثلاثة كما لو كانوا يلتقطون أنفاسهم، وإيقاع مسالم يضبط تنفس المرأة فيما ظلّت عيناها جافتين، لكنها حينما لمحت العمدة لدى الباب أطلقت صرخة خشنة وانتفضت بعنف أجبر أحد الرجلين على إطلاقها فيما جعلها الآخر تنحني إلى الأرض بليّ ذراعها كأنه في مباراة للمصارعة.

لم يكترث العمدة بالنظر إليها، صحب الشرطي الآخر وواجه المجموعة التي كانت تشاهد الصراع من المنعطف، لم يوجه حديثه إلى شخص بعينه.

قال: «ليأخذ أحدكم هذه المرأة إذا أردتم تجنب ما هو أسوأ».

شق طريقه بصحبة الشرطي عبر المجموعة وبلغ مقر المحكمة، فلم يجد أحداً هناك، ثم انطلق إلى دار القاضي أركاديو فدفع الباب دون طرقه، وصاح:

ـ أيها القاضي!

ردت زوجة القاضي في الظلال وقد غلبت عليها الأخلاط الغليظة لحملها:

ـ غادر الدار.

لم يتحرك العمدة من عتبة الدار.

ـ إلى أين؟

قالت المرأة: «إلى أي مكان آخر يمكن أن يمضي؟ ماخور وضيع».

أشار العمدة للشرطي بالدخول، مرا بالمرأة دون أن ينظر إليها، وبعد أن قلبا غرفة النوم رأساً على عقب وأدركا أنه لا أثر لشيء يتعلق بالرجال عادا إلى غرفة المعيشة.

تساءل العمدة: «متى خرج؟»

قالت المرأة: «منذ ليلتين».

صمت العمدة طويلاً ليفكر.

صاح فجأة: ابن المومس هذا! يمكنه الاختباء على عمق مائة قدم تحت الأرض أو الرجوع زحفاً إلى بطن أمه لكننا سنخرجه حياً أو ميتاً، إن للحكومة يداً طويلة.

تنهدت المرأة.

ـ ليسمع الله منك يا سيدي الملازم!

أظلمت الدنيا، كان رجال الشرطة لا يزالون يبعدون الجموع عند المنعطفات القريبة من الثكنات، لكنهم مضوا بأم بيبي أمادور إلى دارها وبدت المدينة كما لو كان السلام قد حلّ بها.

انطلق العمدة إلى زنزانة القتيل وجعل رجاله يجلبون له قطعة من قماش الخيام وبمساعدة الشرطي المرافق له وضع القبعة والعوينات على الجثة وأحكم لفها، وبحث في مختلف أنحاء الثكنات عن قطع من الحبال والأسلاك وربط الجثة بشكل حلزوني من العنق حتى العقبين، وحينما فرغ من الأمر كان العرق يغلله لكنه بدا متعشاً ولاح كأنه تخلّص عضوياً من ثقل الجثة.

عندئذ فحسب مرّ أمام الزنزانة وأمر الشرطي: «أحضر المجرفة والمعول والمصباح ثم ناد جونزاليز ليمضي إلى مؤخرة الباحة فيحفر حفرة واسعة عميقة هناك في الجزء الأكثر جفافاً!» قالها كما لو كان يفكر في كل كلمة وهو يلفظها.

اختتم حديثه قائلاً: «وتذكر شيئاً لعيناً واحداً طوال ما بقي من حياتك، هذا الفتى لم يمت قط».

بعد ساعتين لم يكن اللحد قد حفر بعد، ومطلاً من الشرفة رأى العمدة أن الشارع خاو إلاّ من أحد رجاله كان يقوم بالحراسة بين منعطف وآخر، فأضاء مصباح الدرج ومضى لينال قسطاً من الراحة في أكثر أركان غرفة الانتظار عتمة دون أن يترامى إليه إلاّ صوت الكروان بين الفينة والأخرى.

انتشله صوت الأب أنجيل من أفكاره، سمعه أولاً يتحدث مع الشرطي المناوب ثم مع شخص آخر بصحبته وأخيراً تعرّف صاحب الصوت الآخر، فمكث منحنياً في المقعد الوثير حتى سمع الأصوات مجدداً تتردد داخل الثكنات وعلى الدرجات الأولى من الدرج، ثم مدَّ ذراعه الأيسر في الظلام وقبض بشدة على البندقية.

توقف الأب أنجيل حينما رآه عند أعلى الدرج، وخلفه وقف الدكتور جيرالدو مرتدياً سترة قصيرة بيضاء حديثة الكي وفي يده حقيبة صغيرة، افتر ثغره عن ابتسامة.

قال بروح مرحة: «خابت آمالي أيها الملازم، فقد انتظرت طوال الأصيل أن تدعوني للقيام بتشريح الجثة».

ثبت الأب أنجيل عينيه الصريحتين المسالمتين ثم تحوّل بهما إلى العمدة فابتسم هذا بدوره.

قال: «لن يجري تشريح فليست هناك جثة».

قال القس: «نريد رؤية بيبي أمادور».

واصل العمدة توجيه حديثه للطبيب منكساً البندقية، قال: «وأنا أيضاً أريد ذلك، ولكن ليس هناك ما يمكننا عمله» وتوقف عن الابتسام قائلاً:

ـ لقد هرب.

صعد الأب أنجيل خطوة أخرى، فشهر العمدة البندقية باتجاهه وقال محذراً: «ابق حيث أنت يا أبت!» فصعد الطبيب خطوة.

قال وما زال على ابتسامه: «اصغ لأمر واحد أيها الملازم، من المستحيل الاحتفاظ بالأسرار في هذه البلدة، فالجميع يعرفون منذ الرابعة أنهم فعلوا بذلك الفتى ما صنعه دون ساباس بالحمير التي باعها».

ـ لقد هرب.

فيما هو يراقب الطبيب لم يكد يتيح له الوقت للاحتراس بينما الأب أنجيل يصعد درجتين فجأة ويداه مرفوعتان.

حرّر العمدة ذراع الأمان من موضعه بضربة حازمة من طرف يده وظلّ مغروساً في مكانه وقد باعد ما بين ساقيه.

صاح: «قف!»

أمسك الطبيب في إحكام بكم مسوح القس، فانتاب السعال الأب أنجيل.

قال الطبيب: «دعنا نلعب على المكشوف أيها الملازم!» تصلب صوته للمرة الأولى منذ فترة طويلة وأضاف: «هذا التشريح يجب القيام به، الآن سنجلو لغز نوبات الإغماء التي تصيب المعتقلين في هذا السجن».

قال العمدة: «سأرديك قتيلاً أيها الطبيب إذا تحركت من موضعك» لم يكد يحول نظرته إلى القس وهو يضيف: «وذلك ينصرف إليك أيضاً أيها الأب!».

تجمد الثلاثة في موضعهم.

استطرد العمدة مخاطباً القس: «فضلاً عن هذا كان ينبغي

أن تكون مسروراً أيُها الأب، فذلك الفتى هو معلق نشرات الفضائح».

شرع الأب أنجيل في القول: «سبحان الله!»

لم تدعه نوبة من السعال التشنجي يواصل حديثه، فانتظر العمدة حتى انقضت النوبة.

قال لهما: «الآن أصيخا السمع لهذا التحذير فحسب، سأشرع في العد، وحينما أصل الرقم ثلاثة سأطلق النار على هذا الباب مغمضاً عيني فكونا على حذر من ذلك الآن وفي المستقبل» وحذر الطبيب بوضوح:

- لقد انتهت الألاعيب الصغيرة، إننا نخوض حرباً أيُها الطبيب!

جذب الطبيب الأب أنجيل من كم ردائه، وشرع في الهبوط دون أن يدير ظهره ناحية العمدة وفجأة بدأ في القهقهة.

قال: «أفضل الأمر على هذا النحو يا جنرال، الآن يفهم أحدنا الآخر حقاً».

راح العمدة يعد: «واحد».

لم يسمعا الرقم التالي، وحينما افترقا قرب منعطف الثكنات بدا الأب أنجيل محطماً واضطر للإشاحة بوجهه بعيداً لأن الدموع كانت تندي عينيه، ربت دكتور جيرالدو على كتفه دون أن يكف عن الابتسام وقال: «لا تدهش على هذا النحو يا أبت فالحياة هي هذا كله»، وحينما انعطف قرب داره تطلع إلى ساعته في ضوء مصباح الطريق فوجدها الثامنة إلاّ ربعاً.

لم يستطع الأب أنجيل ابتلاع طعامه، فبعد نفير حظر التجول جلس إلى مكتبه يكتب رسالة وظلّ منكباً على مكتبه حتى تجاوز الليل منتصفه فيما الرذاذ الخفيف يناوش الكون حوله، كان يكتب دونما كلل وبحروف تميل إلى العجلة وبانفعال بلغت قوته حد أنه لم يغمس قلمه في الحبر إلاّ بعد أن كتب كلمتين لا أثر لهما على الورق لنفاده.

وفي اليوم التالي أودع الرسالة البريد على الرغم من أنه لن يرسل إلاّ يوم الجمعة المقبل، وخلال الصباح كان الجو رطباً مفعماً بالسحب لكنه اكتسب شفافية مع الضحى، لاح طائر ضال في الفناء وأمضى نصف ساعة يتقافز قفزات صغيرة وعبثية وسط الناردين، غرّد تغريدة مرحة مرتفعاً بنغمة الصوت في كل مرة بدأ فيها حتى أصبح من الحدة بحيث يمكن للمرء أن يتصوره فحسب.

شعر الأب أنجيل في مسيرة الأصيل بأنه طوال ما بعد الظهر كان شذى ضريغي يتبعه وعند دار ترينيداد وفيما هو يدير حديثاً حزيناً حول أمراض أكتوبر ظنَّ أنه قد تعرف الرائحة التي ضاعت من ريبكا آزيس ذات ليلة في مكتبه.

في طريق عودته زار عائلة السيد كارمايكل، كانت الزوجة والابنة الكبرى مغمومتين وحينما كان يأتي على ذكر السجين كانتا تبديان خلاف ما تبطنان، لكن الصغار كانوا سعداء بعيداً عن قسوة أبيهم وهم يحاولون جعل زوج الأرانب الذي بعثت به الأرملة مونتيل بشربان الماء من قدح، فجأة قطع الحديث، رسم الصليب في الهواء وقال:

- الآن عرفت، إنه نبات خناق الذئب ذلك الذي يجعل هذه الروائح تطاردني.

ارتدى ملابسه دون اغتسال أو صلاة، وبعد أن أصلح وضع ملابسه، قال:

لكن الأمر لم يكن كذلك.

لم يتحدث أحد عن نشرات الفضائح، في غمار صخب الأحداث الأخيرة لم تعد إلاّ معلماً مشهوداً من معالم الماضي وقد تيقن الأب أنجيل من ذلك خلال مسيرته المسائية وعقب الصلوات فيما هو يثرثر في مكتبه مع مجموعة السيدات الكاثوليكيات.

حينما انفرد بنفسه أحس بالجوع فأعد لنفسه بعض شرائح الموز الأخضر المقلية وقهوة ممزوجة باللبن وصحبها بقطعة من الجبن، وجعل إرضاء معدته ينسى الرائحة، وفيما هو ينزع ثيابه ليدلف إلى الفراش ثم تحت الكله وهو يتصيد البعوض الذي أفلت من مبيد الحشرات جعل يتجشأ مراراً عديدة، كان يعاني الحموضة لكن روحه كانت تتمتع بالسلام.

غفا مثل قديس، وفي هدأة حظر التجول سمع الهمسات المنفعلة والاختبار الأول للأوتار التي جذبها الفجر الثلجي وأخيراً تناهت أغنية تنتمي إلى وقت آخر، في الخامسة إلاّ عشر دقائق أدرك أنه لا يزال حياً فاقتعد فراشه بجهد وقور وهو يفرك جفنيه بأصابعه ويحدث نفسه: الأحد، ٢١ أكتوبر ثم تذكر فهمس: «القديس هيلاري».

ربط الأزرار الطويلة في مسوحه وانتعل الحذاء اليومي المهترىء الذي شرع نعلاه في الانفصال عنه، وحينما فتح الباب المطل على الناردين تذكر كلمات أغنية.

تنهد متذكراً: «سأظل في أحلامك حتى الموت».

فتحت مينا باب الكنيسة فيما كان يقرع الجرس في الدقة الأولى، مضت إلى غرفة المعمودية فألفت الجبن لم يمس والمصايد لم يلجها فأر، انتهى الأب أنجيل من فتح الباب المطل على الميدان.

قالت مينا وهي تهز الصندوق الخاوي المصنوع من الورق المقوى:

- لم يسقط فأر واحد اليوم.

لكن الأب أنجيل لم يبد اهتماماً، كان نهار بديع يشرق حاملاً معه الهواء صافياً نقياً كاعلان عن أنه في هذا العام أيضاً ورغم كل شيء سيصل ويستمر دقيقاً في موعده، ولم يبد صمت الراحل باستور له أكثر وضوحاً مما هو الآن.

قال: «كان هناك عزف ليلة أمس».

قالت مينا مؤكدة: «عزف رصاص، تواصل إطلاق النار حتى وقت قريب».

نظر إليها القس للمرة الأولى، كانت هي أيضاً بالغة الشحوب مثل جدتها الضريرة ترتدي رداء أزرق كنسياً خشناً لكنها خلافاً لتربنيداد التي يلفها إطار ذكوري كانت إمرأة قد شرعت تتضح بداخلها.

ـ أين؟

قالت مينا: «في كل مكان، يبدو أن لوثة أصابتهم وهم يبحثون عن المنشورات السرية، يقولون إنهم بالمصادفة المجردة أزالوا أرضية حانوت الحلاق وعثروا على بنادق السجن المكتظ لكنهم يقولون إن الرجال يمضون إلى الأدغال للانضمام إلى جماعات الثوار».

تنهد الأب أنجيل.

قال: «لم ألحظ شيئاً».

مضى نحو مؤخرة الكنيسة فتبعته صامتة حتى المذبح الرئيسي.

قالت: «ليس هذا كل شيء، فليلة أمس وعلى الرغم من حظر التجول وإطلاق النار...»

توقف الأب أنجيل، تطلع إليها بعينيه الكليلتين الغارقتين في الزرقة البريئة، وتوقفت مينا كذلك حاملة الصندوق الخاوي تحت ذراعها، ثم افترت عن مطالع ابتسامة عصبية قبل أن تنهي الجملة.